تحرير
عمر الجفّال

رائحة الفلفل

تحليل وتأريخ وسِير لانتفاضات العراق

أُنجز هذا الكتاب بدعم من مكتب مؤسسة روزا لوكسمبورغ في بيروت، لكن محتواه هو مسؤولية مؤلفي الكتاب وحدهم ولا يعكس بالضرورة موقف المؤسسة.

توطئة

حيّر حراك تشـــرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٩ الكُتّاب والمراقبين والباحثين داخل العراق وخارجه. فبينما اعتبر بعضــهم ما حصــل تظاهرات مطلبيّة واســعة تســير على الطريق التي ســارت عليها التظاهرات الســابقة، اعتبرها آخرون انتفاضــة وهبّة شـعبيّة ضـد منظومة الحكم التي تســيطر على الســلطة في العراق منذ الغزو الأمريكي في نيســان / أبريل عام ٢٠٠٣. بالمقابل، فإن قسماً كبيراً من الكتّاب والباحثين، وبالأساس عدد كبير من المتظاهرين، اعتبرها ثورة شعبيّة للإطاحة بالنظام السياسي والدفع لإحلال بديل عنه.

وحتّى في أجزاء واسـعة من هذا الكتاب، فإن التسـميّة ظلّت تتغيّر من احتجاجات إلى انتفاضـة إلى ثورة، وبعض الأحيان، يســتعين الكُتّاب بالتســميات الثلاث في فصــل واحد؛ ومرد ذلك، ربما، إلى عامل الزمن. لقد خرج السـكّان إلى الشـوارع بكثافة لم يشـهد لها العراق في تاريخه الحديث مثيلاً، وهو الأمر الذي جعل الفعل متقدّماً على التنظير، ومن ثم صــعوبة فهم الأحداث وبلورة مصطلحات لتفسيرها بالسرعة نفسها التي سارت عليها الأحداث.

وبالنســبة لجميع هذه التســميّات، فإن فيها من الصــحّة ما يفوق الخطأ. فما جرى احتجاجات واسـعة على تردّي الواقع الخدمي واتسـاع البطالة، وهي، بطبيعة الحال، استمراراً للتظاهرات المطلبيّة التي سـبقتها بدءاً من شـباط / فبراير عام ٢٠١١. وهي كذلك انتفاضــة المجتمع على سياسات الفساد والإفقار وتردي الواقعين السياسي والاقتصادي، كما أنّها ثورة لجيل حُكم لنحو عقدين بسـياسـات الأزمة، وفقد، نتيجة لذلك، أي علاقة تربطه بالسـلطة وأحزابها، ولذلك خرج يبحث عن تأسيس عقد اجتماعي جديد ونظام سياسي يمثّله، كما أنّها ثورة لأنّها طوّرت أدواتها على نحو كبير، واســتفادت من تجارب وأخطاء ســابقة وحاولت تجاوزها لتنال مُرادها. وهي ثورة اجتماعية كذلك، إذ لا يمكن إغفال الجانب الاجتماعي وصــراع الأجيال في الاحتجاجات؛ فثمّة فئة واســعة من الشــباب أظهروا توقاً كبيراً لإرســاء ثقافة جديدة تتجاوز الثقافة المحافظة المتجذرة في العشيرة والطائفة والدين التي ما انفكت تظهر خلال العقد الأخير. لقد أسقط شبّان حاجزاً بُني على مدار أعوام للعلاقات الاجتماعية بين الذكور والإناث، وهدموا أسطورة "الجد" التي رافقت الاحتجاجات الســابقة وأحلّوا مكانها طابعاً احتفالياً يســتخدم الموســيقى والغناء والكنايات والاستعارات المُضحكة. إلى جانب ذلك، هي ثورة لأنها حاولت وصم من يستخدم الهويات الفرعيّة بـ"العيب" إذا ما استخدمها لأغراض تصنّف أُناساً دون مواطنين. وبالمحصلة، فإنها ثورة حاولت إرســاء نمط جديدة على مســتويّات عدّة، تتجاوز الأنماط القديمة التي تحكم المجتمع والسياسة.

إن هذا الكتاب يُحاول فهم كل هذه المظاهر ومظاهر أخرى، ويســعى إلى أن يكون وثيقة يُمكن العودة إليها لفهم ما حصـل في شـهر تشـرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٩ والأشـهر التي لحقته. لكن، ورغم ذلك، فإن الكتاب إذا ما اتخذ من احتجاجات تشــرين منطلقاً، فإنه يعود مراراً إلى الاحتجاجات السابقة التي شهدها العراق، ومحاولات المجتمع المستمرة لإحداث تغيير سياسي.

ولأن خطاب التظاهرات كان مختلفاً، فإن الكتاب أيضـــاً ســـعى لأن يحمل اســـماً مغايراً. إن "رائحة الفلفل" جملة تكرّرت على مدار أكثر من عام على مسـمعي، حيث ذكر عدد كبير ممن أجريت معهم مقابلات لإتمام هذا الكتاب أو لغرض إنجاز قصص صحفيّة ومقالات أخرى، أن رائحة القنابل الدخانية التي استخدمت بكثافة ضدهم كانت تشبه رائحة الفلفل الأسود المطحون. ولم يتردّد الكثير منهم من إبداع نكات بشـــأن رائحة الفلفل هذه، رغم أن مقذوفاتها أردت عدداً كبيراً من أصدقائهم، ودخانها الكثيف سيّل الدموع الغزيرة على وجوههم.

ولقد سعى هذا الكتاب إلى أن يكون جامعاً لكل زوايا التظاهرات، إلا أن هذه المهمّة صعبة، ولا يُمكن تحقيقها خلال وقت قصير. كما أن الكتاب لا يسعى، ولا بأي شكل من الأشكال، إلى منح أهميّة أعلى للقتلى المكتوبة سـيرهم على القتلى الآخرين في التظاهرات التي شـــهدها العراق. وإذا ما تم نشـــر ســـير لبعض القتلى فحســـب، وإنما ذلك جاء لأن كتاب الســـير ربطتهم علاقة بهؤلاء، أو أنّهم تابعوا سيرهم قبل أو بعد مقتلهم. وبناء عليه، فإن سيرة أي متظاهر في العراق مهمّة، لأن كل فرد من هؤلاء كانت له أحلامه وآماله وآلامه، ومُهمّة توثيق ســـيرهم، جميعهم، يجب أن تكون سعيّاً جادّاً للمؤسسات والكُتّاب، حتّى لا ينسى التاريخ وجودهم ومساعيهم لبناء بلاد توفّر العدل لسكّانها، ولا يُعلى فيها شأن فرد ويُحطّ من شأن آخر.

ينقسـم الكتاب إلى ١٢ فصـلاً، يفسّـر بعضـها الاحتجاجات، وينتقد بعضـها الهفوات، ويكشـف بعضـها منظومة السـلطة التي قمعت وعنّفت شـبّان عزّل ببرودة جزّار. في الفصـل الأوّل يقدّم زاهر موسى تسلسلاً زمنياً للأحداث الأمنية التي رافقت تظاهرات تشرين الأول / أكتوبر، فيما يُحاول تبيان كيف أن عمليات القتل التي جرت ضد المتظاهرين لم تكن فرديّة، وإنما مؤسساتية ومتغلغلة كاســـتراتيجية للتعامل مع الاحتجاجات التي تهدّد النظام الســـياســـي في العراق. وفي الفصـــل الثاني، يكتب ســـنان أنطون، ســـيرة مختصـــرة لأحّد أبرز وجوه التظاهرات الذي قتل بالعنف الممنهج الذي يستعرضـه موسـى. هي سيرة صـفاء السراي، أحلامه وأفكاره وأمنياته، ولحظة مقتله.

في الفصـــل الثالث تســـتكشـــف زهراء علي مشـــاركة المرأة ومعنى تلك المشـــاركة وأهميتها ومضـمونها. تجادل علي بأن الانتفاضـة كظاهرة حضـرية في الغالب أنتجت فضـاءً اجتماعياً. فقد استعاد المتظاهرون فضاءً حضرياً معسكراً ومخصخصاً وذكورياً، لكن علي تحاول تفسير غياب أجندة نسوية أو أجندة قائمة على النساء في الانتفاضة.

وعن هؤلاء النســـوة الكثيرات الجريئات في التظاهرات، اختارت أماني الحســـن أن تكتب في الفصـــل الرابع ســـيرة رهام يعقوب، المتظاهرة والناشـــطة البصـــرية، التي اغتيلت معنوياً قبل اغتيالها المادي وسط محافظة البصرة.

يذهب سلام زيدان، في الفصل الخامس، إلى فكفكة السياسات الاقتصادية للنظام السياسي الذي أدّى إلى انعدام العدالة الاجتماعيّة واعتماد القوى السياسيّة على سياسة "النهب" و"الزبائنية" لإدامة حكمه، ويرى أن محرّك الاحتجاجات لطالما كان منبعه اقتصادي، ويشرح كيف أن حملات في التظاهرات استطاعت تحريك الاقتصادي المحلي.

تحريك الاقتصاد الذي يشير إليه زيدان، كان اعتماده الأساس على الخطاب الذي أرساه المتظاهرون، وهو ما تتفحصه بلسم مصطفى، بشكل موسع، في الفصل السادس. تجادل عوني بأن حركة تشرين ساهمت بخلق سرديةٍ جمعيةٍ مغايرة لسرديات حكومات وأحزاب ما بعد 2003، بعيداً عن الطائفية والإقصائية. هذه السردية، بحسب عوني، دفعت الأحزاب الحاكمة وميليشياتها الى اتخاذ سياسات تصعيدية في الفضاء الإعلامي التقليدي والرقمي لشيطنة التظاهرات وتشويهها.
وتشرح عوني كيف اعتمد الحراك على وسائل إعلامية مقروءة وسمعية لمواجهة التضليل الإعلامي وللمحافظة على صورة الاحتجاجات في أذهان المجتمع، وتشدد عوني على أن المتظاهرين أسسوا سردية "يصعب محوها" تتجاوز الطائفية. وإذا كان ما رمت إليه عوني قد تحقق من خلال الخطاب، فإني أجادل، في الفصل السابع، بأن خطوط الانقسام الطائفية التي تأسست بعد عام ٢٠٠٣ على أساس جغرافي قد تم محوها، إلى حدّ كبير، في تظاهرات تشرين. وما كان يمكن كسر الحدود الجغرافية الطائفية من دون تمكن المحتجين من السيطرة على الحيز العام واستخدامه وتقاسمه. كما أُناقش أهميّة الفضاء والحيّز العامين وكذلك الحق في المدينة في بلد مثل العراق.

إن النضال لأجل امتلاك المدينة، هو من قاد فتى نازح من الموصل اسمه ريمون إلى المشاركة في تظاهرات بغداد. يكتب خضير فليح الزيدي سيرة ريمون التي بدأت بالتهجير والعوز، وانتهت بسقوطه ببنقدية صيد في تظاهرات تشرين.

يذهب علي عبد الأمير عجام، في الفصل التاسع، إلى تحليل بُنية جيل جديد يشبه ريمون. يُسمّي عجام هذا الجيل بـ"العراقيين الجُدد"، وبُنيتهم قائمة على الاتصال بالعالم من خلال شبكة الانترنيت، وهو الذي قادهم إلى اجترح ثقافة جديدة قوامها الفن، بأشكاله المختلفة، إذ أخرجوه من القاعات المُغلقة إلى الشارع.

ويُعد عمر سعدون واحداً من أبرز أسماء هؤلاء الشباب الجُدد الذي روّع مقتله جميع العراقيين. يروي غسان البرهان في الفصل العاشر سيرة سعدون، وكيف أحدث مقتله هزّة بين عائلته وأصدقائه.

وفي الواقع، ما كان لتظاهرات تشـــرين أن تكون بهذا الحجم والقوة لولا تظافر جهود الجميع ومنهم النقابات والاتحادات، وهي ما نجادل صـــفاء خلف وأنا بأهميتها في زيادة زخم التظاهرات. وعلى الرغم من أننا نركّز على حراكها في تشـــرين، إلا اننا نعود بالتاريخ إلى الخلف لنشـــرح الظروف التي أدّت إلى إضـــعاف النقابات والاتحادات، فضـــلاً عن الأزمات الداخلية التي تعانيها، وطرق التفكير القديمة التي تكبّلها. ويتخلّل جميع الفصـــول صـــور من تظاهرات بغداد لمحمد البولاني، الذي رافق التظاهرات من اليوم الأوّل، ووثقّ لحظات أصبحت أيقونية في وقت لاحق.

في النهايّة، أود أن أقدم شـــكري العميق لكل المشـــاركين في الكتاب، فلقد أبدوا طوال مرحلة الإعداد والكتابة صبراً وجهداً قلّ مثيله. وأود شكر ميريم يونس، مديرة مكتب مؤسسة روزا لوكسمبورغ في بيروت، التي تحمّست لفكرة الكتاب منذ البداية، ولم تتردد أبداً في تقديم الدعم لإنجازه.
كما أشكر أخي عاطف، الذي كان يمدني بكلّ المعلومات من ساحة التظاهرات رغم أنه ذهب محتجاً وليس باحثاً مساعداً، وأود شكره كذلك لأنه لم يتوانَ أبداً عن تقديم الإيضاحات وكسر الكثير من الفرضيات التي بنيتها. كما أشكر شريكتي حنين نعامنة التي خاضت معي نقاشات طويلة قبل الشـــروع بالإعداد للكتاب وأثناء وبعد الانتهاء منه، وطوال هذه الفترة لم تدخر أي جهد في إبداء ملاحظاتها على كل تفصيل دقيق فيه. وللأسف، فإن المساحة لا تتسع لتقديم الشكر للكثير من الزملاء والأصدقاء الذين أخذت الكثير من وقتهم وأنا أبحث عن مصدر أو معلومة أو اقتراح. ورغم هذا كلّه، فإن أي عمل كتابي مُعرض للهنات والأخطاء، وأنا أتحملها مسؤوليتها لوحدي في حال وجدت في أي مكان في هذا الكتاب.

تظاهرات تشرين: دمٌ شائطٌ على الطريق

زاهر موسى
شـاعر وإعلامي، حاصـل على شـهادة البكالوريوس في اللغة العربية من كلية التربية جامعة بغداد. بدأ عملـه التلفزيونـي عـام 2009 معداً ومقـدماً للبرامج الثقـافيـة في عـدد من القنوات الفضائية، وهو عضو هيئة تحرير مجلتي "نثر" و"بيت" الفصليتين، وكتب عموداً أسبوعياً في صحيفة "العالم الجديد" الإلكترونية، فضلاً عن مقالات في موقع "السفير العربي".

ما حدث في تشرين الأول / أكتوبر 2019، كان عشوائياً في مرحلته الأولى، وأمام اندفاع غير منظم للمتظاهرين فقد بات عنف القوات الأمنية قاتلاً ومفتقداً لأي حسـابات منطقية يعتمدها القادة الأمنيون عادة، ونتيجة لذلك فقد سقط عدد كبير مِن الشهداء برصاص كثيف أُطلِقَ دون مبرر أمني.
أقدّم في هذا الفصـل تسـلسـلاً زمنياً للأحداث الأمنية التي رافقت تظاهرات تشـرين الأول / أكتوبر، فيما أحاول تبيان كيف أن عمليات القتل التي جرت ضـد المتظاهرين لم تكن فرديّة، وإنما مؤسساتية ومتغلغلة كاستراتيجية للتعامل مع الاحتجاجات التي تهدّد النظام السياسي في العراق.

كيف بدأ كل شيء؟ مدافع الماء التي أحرقت العراق
في العراق، الدولة ذات الاقتصـاد الريعي، والتي تعيش فيه الطبقة السـياسـية صـراعاً محتدماً يتمحور حول كيفية الضغط باتجاه ضمان حصص القوى المتنافرة داخل المؤسسات الحكومية بالطريقة التي تمنح هذه القوى فرصة سرقة المال العام وديمومة وجودها السياسي، من الترف أن نتوقع إدراك السـلطة لتداعيات أخطائها، فهي لا تنظر الى الأخطاء ضـمن هذا التوصـيف، وهي تدافع عنها دوماً، ولا سـيما في جانب الأمن والمؤسـسـة العسـكرية، ولطالما عاش البلد أعواماً من العنف الرهيب كان يمكن تدارك أضرارها لو اعترف النظام أنه مخطئ ويحتاج إلى تصـويب أخطائه ومعالجتها. بدأ الأمر في هذا السـياق، وقُمِعَت الكلمة التي كانت تقال بلسـان الرجاء، لتتحول الى صراخ يطالب بزوال النظام.

جاء ذلك في احتجاجات لم يشـهد لها العراق مثيلاً منذ إعلان دولته الوطنية عام 1921. نعم، الكلمة المقموعة هي البداية لكل شـيء حدث، الدماء التي سـالت والبنادق والهراوات وأقبية الاعتقال والإخفاء التي استعملت، والتغييرات التي حدثت بكل ما فيها من تناقضـات وخطوات للأمام أو الخلف، كلها جاءت بسبب تعمّد النظام "الخطأ" والدفاع عنه وتمجيده أحياناً.

القصّـة بدأت في نهار يوم 25 أيلول / سـبتمبر 2019، وفي بغداد، وداخل المنطقة الخضـراء حيث المقار الحكومية والتشـريعية وغرف صـناعة القرار، أُنهي اعتصـامٌ أقامه عددٌ من حملة شهادات (البكالوريوس، الماجستير، الدكتوراه) دام ما يقارب المئة يوم أمام مبنى الأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي[1]، كـان هؤلاء المعتصـــمون يطـالبون بتوظيفهم في دوائر الـدولـة وتخليصـهم من حياة البطالة المذلة، وهنا آمنت السـلطة بضـرورة قمع الكلمة رغم أن أسـلوب فض الاعتصـام أقل عنفاً مما سـيليه من عمليات قمع واسـتهداف للاحتجاجات والاعتصـامات.
حينها، كان عادل عبد المهدي رئيس مجلس الوزراء العراقي السـابق منتشـياً بمنجزاته التي ذكرها مراراً، ومنها فتح المنطقة الخضـراء المحصـنة أمنياً أمام المواطنين، وعقده سـلسـلة اتفاقات مع الصين التي كان عائداً منها إبان فض الاعتصام بفارق ساعات قلائل فقط.
انتشرت صـور قليلة لفض اعتصـام الخريجين كالنار في الهشيم، وعن طريق مواقع التواصـل الاجتماعي في الغالب، ولامسـت جرحاً انسـاذياً في المتلقي العراقي، فقد كانت بعض المعتصمات ممن طالبن بالتوظيف مع زملائهن قد تعرضن للإذلال بمدافع الماء، مما رسمهن في المخيال العراقي كطيور مبللة لا تقوى على الهروب، كانت هذه اللحظة رسـالة بصـرية ذهبت عميقاً في غضب شريحة الشباب وأعادت شحنه تمهيداً للانفجار الكبير بعد أيام قليلة من ذلك النهار العادي.

ممهّدات تشرين والتهيئة الذهنية لقمعها

لم تخل ممهدات احتجاجات تشـرين الأوّل / أكتوبر عام 2019 من نبوءات وتهديدات بين أطراف السـلطة، رغم أن جميع صـنّاع القرار تفاجأوا لاحقا من حجم ما توقعوه أو هددوا به ضمن صراعاتهم المستمرة منذ تأسيس النظام السياسي الجديد عام 2003.
في البداية، كان مقتدى الصـدر، زعيم التيار الصـدري، قد منح رئيس الوزراء المكلف حينها عادل عبد المهدي مهلة بدأت في 2 تشـرين الأول / أكتوبر 2018، وهي المهلة التي انتهت مع انطلاق احتجاجات تشرين الأول / أكتوبر 2019 دون ترابط بين الأمرين بحسب مصـادر من داخل الصـدريين[2]، ومن جانب آخر، توقع قيس الخزعلي أمين عام عصـائب أهل الحق، وهو فصـيل مسـلح وجزء من العملية السـياسـية والحشـد الشـعبي، أن تخرج تظاهرات تطيح بحكومة عبد المهدي في الشـهر العاشـر لأسـباب وصـفها بأنها تتعلق بموقف العراق من صـفقة القرن، وكان تصـريحه هذا في يوم 26 آب / اغسـطس 2019[3]، أي قبل انطلاق احتجاجات تشرين الأول / أكتوبر بشهر تقريباً.
غير أن ممهدات الاحتجاجات كانت أكثر من ذلك، إذ جاءت إحالة الفريق الركن عبد الوهاب السـاعدي يوم 27 أيلول / سـبتمبر 2019 الى إمرة وزارة الدفاع، بعد أن كان قائد قوات جهاز مكافحة الإرهاب، المؤسـســة القتالية المعنية بمواجهة الإرهاب ولها دور كبير في هزيمة

---

1 بيان لمفتشية وزارة الداخلية العراقية بتاريخ ٢٦ أيلول / سبتمبر ٢٠١٩.

2 بيان لزعيم التيار الصدري مقتدى الصدر بتاريخ 19 تشرين الأول / أكتوبر 2019.

3 مقابلة خاصة مع زعيم عصائب أهل اللحق قيس الخزعلي بتاريخ 26 آب / أغسطس 2019 مع قنوات الفضائية المحلية من بينها قناتي "العهد" و"العراقية".

"داعش"، لتزيد الطين بلة، فقد اكتسب الساعدي نجومية شعبية بين العراقيين إبان معارك تحرير المحافظات الشمالية والغربية من تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" بين أعوام 2014 و2017، مما جعل الشباب المتحفز للتظاهر أكثر حنقاً وهو يرى السلطة تقصي قائداً عسكرياً لطالما داعب مظهره وأسلوبه خيال الناس وامنيات بعضهم في حدوث انقلاب عسكري بقيادته ينهي العملية السياسية المليئة بالفاسدين.

يشبه الساعدي، من جوانب ظاهرية، عبد الكريم قاسم الذي قاد انقلاب 1958 في العراق على الملكية الهاشمية، والذي ما زال أحفاد النازحين الى العاصمة بغداد يحبونه لأنه كان منصفاً وعادلاً وفقيراً ينتمي لطبقتهم الاجتماعية بحسبهم. الساعدي، والحال هذه، في عيون هؤلاء ينحدر أيضاً من أسرة فقيرة ويوحي مظهره البسيط وغير المتكلف بالنزاهة التي يحلم بها العراقيون، حيث يؤمن جزء كبير من العراقيين أن الطريق نحو تغيير سلمي في واقع إدارة الحكم بات مغلقاً في ظل تغوّل الأحزاب التي تعيد إنتاج نفسها دائماً وفق انتخابات تصمم هي قانونها والمفوضية المشرفة عليها بما يتوافق مع مصلحتها دون إمكانية فسح المجال أمام أي قوى جديدة، لذلك تجد الفقراء ومن يشعرون بالخوف في ظل الانفلات الأمني المستحكم، يتمنون حدوث انقلاب عسكري بقيادة عبد الوهاب الساعدي أو من يشبهونه في بلد له تاريخ انقلابي عريق، حيث شهد العراق انقلابات في أعوام 1936، و1941، و1958، و1963، و1968[4]، و هذه جميعها انقلابات ناجحة، وهناك عدد كبير أيضاً من محاولات الانقلاب الفاشلة[5].

كل ما سبق كانت أحداثاً تحفز التظاهرات الواسعة التي ستندلع يوم 1 تشرين الأول / أكتوبر 2019، والتي ستترك أثراً كبيراً في حياة العراقيين ونظرة العالم لهم ولدولتهم التي أسست على ركام الأنظمة الدكتاتورية ومرّت عليها دبابة الابرامز الأمريكية مطلع الألفية الجديدة.

موجة تشرين الأولى وطبيعة التعامل الأمني معها

بعد الساعة العاشر صباحاً من يوم 1 تشرين الأول / أكتوبر 2019 بدأت أعداد من المتظاهرين بالتجمهر في ساحة التحرير وسط العاصمة بغداد، وقبيل منتصف النهار كان العدد قد زاد وانقطعت حركة السيارات في محيط المنطقة، إذ بادرت السلطات إلى إغلاق جسر الجمهورية الواصل بين الساحة والمدخل الشمالي للمنطقة الخضراء، ومع استمرار التحشد وقع إطلاق نار من جهة الجسر باتجاه المتظاهرين بشكل عشوائي، وخلال الساعات اللاحقة التي شهدت سقوط أوائل الضحايا اتضحت استراتيجية السلطات بدفع المتظاهرين باتجاه عكسي نحو المناطق التي أتوا منها، فقد بدأ المتظاهرون بالتراجع تحت الضغط من ساحة الطيران إلى منطقة شارع

[4]وسيم رفعت عبد المجيد العاني، "العراق الانقلابي - تاريخ الانقلابات الناجحة والفاشلة في العراق 1921_2003"، دار الجواهري، 2015.
[5] المصدر السابق.

فلســـطين وصـــولاً إلى منطقة البلديات في خط عمودي حالت القوات الأمنية دون انتشـــار المتظاهرين في الشوارع الأفقية المتعامدة عليه.
الاتجاه الذي تم دفع الجزء الأكبر من المتظاهرين نحوه في ذلك النهار يحدد خلفيتهم الاجتماعية والمذهبية، إذ إن هذا الجزء الشـمالي الشـرقي من بغداد يسـكنه في غالبيته العظمى شـيعة من الطبقة المســحوقة والوســطى وتعود أصــول غالبيتهم إلى جنوب العراق قبل ان ينزحوا في ثلاثينيات القرن الماضي وما بعدها الى العاصمة.
خلال 6 عقود خضعت مناطق بغداد التي يسكنها النازحون من الجنوب إلى هندسة أمنية اتقنتها الأنظمة المتعاقبة، وقد نجحت الحكومات في تعطيل قوة الحشــود في هذه المناطق مراراً. ففي عام 1963 تم إبطال زحف جماهير غفيرة كانت في طريقها لإنقاذ نظام عبد الكريم قاســم من الانقلاب الذي قاده البعثيون. وبعد ذلك، ســيطر نظام البعث على هذه المناطق عبر زرع مقترباتها بمؤســســاته القمعية الرهيبة من الشــرق والغرب، وبعد احتلال العراق عام 2003، نجح الجيش الأمريكي والحكومات العراقية في تطويق هذه المربعات الســكنية المتجاورة على مراحـل، وخـاصّـــة في أعوام 2004، و2005 و2008 وذلـك إبـان المواجهـات مع التيـار الصدري[6].

ما حدث في تشرين الأول / أكتوبر 2019، كان عشوائياً في مرحلته الأولى، وأمام اندفاع غير منظم للمتظاهرين فقد بات عنف القوات الأمنية قاتلاً ومفتقداً لأي حســابات منطقية يعتمدها القادة الأمنيون عادة، ونتيجة لذلك فقد سقط عدد كبير من الشهداء برصاص كثيف أُطلِقَ دون مبرر أمني.
ورغم أن تقارير دولية أشـارت في أعوام سـابقة إلى وجود 9 ملايين قطعة سـلاح خارج إطار الدولة بالعراق[7]، إلا أن الليالي العنيفة والســاخنة لم تشــهد ردة فعل عنيفة من أهالي الضــحايا ورفاقهم المتظاهرين، وهو ما شكّل ظاهرة متميزة في بلد منفلت أمنياً منذ 17 عاماً، ويستعمل فيه السلاح لأصغر الأسباب وأكبرها. لكن مرد عدم استخدام السلاح يعود لسببين رئيسيين، أوّلهما هو أن لجوء المتظاهرين إلى السلاح يعني خسارتهم "السلميّة" التي شكّلت حراكهم و ومن ثم خســارتهم لتعاطف المجتمع معهم، وثانياً هو خوف مِن اندلاع اقتتال شـيعي - شـيعي متوقع، لم تدخر قوى الســلطة وجماهيرها وســعاً في الترهيب من مآله، مما جعل الأهالي والعشائر والقوى الاجتماعية الغاضبة تعض على النواجذ خشية من حرب الأخ مع أخيه والتي لا يمكن إيقافها في حال نشوبها بوقت قصير أو تضحيات قليلة.
وقد تكرر العنف من السلطة أكثر من مرة خلال الايام السبعة الأولى للاحتجاجات قبل توقفها في اليوم الثامن بشــكل مؤقت ريثما تنقضــي زيارة أربعين الإمام الحســين في كربلاء، وقد خرجت تظاهرات في ميسان وواسط في اليوم الأول ومُنِعَت تظاهرات البصرة بالقوة.

6 مايكل ر جوردون، "الولايات المتحدة تبدأ تشييد جدار في مدينة الصدر"، نيويورك تايمز، نشر بتاريخ 18 نيسان / أبريل 2008.
[7] مناف الساعدي، "العراق: قانون حيازة المدنيين للسلاح وعسكرة المجتمع"، موقع DW الألماني، نشر بتاريخ 22 آب / أغسطس 2012.

شـهد اليومان اللاحقان سـقوط 18 متظاهراً، و وفرضـت السـلطات حظرَ التجوال وقطع خدمة الإنترنت عن العراق بالكامل عدا إقليم كردستان، وعاشت المناطق الشعبية في الرصافة شمال بغداد ليالي ســـاخنة بفعل قطع الطرقات من قبل المحتجين وتحول مجالس عزاء ضـــحايا التظاهرات إلى بؤر تحشيد تدعم الأخذ بالثأر من السلطة بوصفها المسؤولة عن مقتل أبناء هذه المناطق التي يغلب عليها الطابع العشـــائري، الأمر الذي لم يتفاقم بســـبب تداخل جماهير قوى السلطة مع بقية الممتعضين منها.
ولأن عبد الوهاب الســـاعدي ونجوميته كانا ســـبباً في الغضـــب الأســـاس الذي انطلقت منه الاحتجاجات، فقد رُفِعَت صوره و وطولِب بقيادة انقلاب عسكري للسيطرة على مفاصل الدولة في اغلب الســـاحات، الأمر الذي دفع رئيس هيئة الحشـــد الشـــعبي فالح الفياض إلى الخروج بمؤتمر صـحفي للحديث عن مؤامرة انقلابية تم اسـقاطها، وهو الخطاب الذي زاد من اسـتفزاز الجموع بشـكل كبير وتسـبب باسـتياء عام يوم 8 تشـرين الأول / أكتوبر 2019. منذ ذلك الحين بدأت جموع المتظاهرين بنصـب خيام في سـاحة التحرير، وهو الأمر الذي سيسـتمر لأكثر من عام لاحقاً، معلنة بداية اعتصام طويل في قلب بغداد وصداع في رأس العملية السياسية.

فرضية القنّاص في الأسبوع الأول من احتجاجات تشرين

في اليوم الرابع من الاحتجاجات، وثق ناشـطون وبالتنسـيق مع إعلاميين عراقيين يعيشـون خارج العراق مشاهد مصورة لإصابات طالت المتظاهرين وصِفَت بأنها "حالات قنص"، وقد نقل مكتب وكالة رويترز ببغداد خبراً عن مصادر خاصة بها من داخل القوات الامنية العراقية اتهمت فيه فصـيلاً من الحشـد الشـعبي – تحديدا سـرايا الخراسـاني بحسـب عدد من المدونين – بأنه يقف وراء قنص المتظاهرين.
فيما شـهد اليوم الخامس من الاحتجاجات اعتداء قوة مسـلحة (أُعتقِلَ أفرادٌ منها لاحقاً واتضـح انتماؤهم إلى مديرية أمن الحشـد الشـعبي) على مقرات قنوات فضـائية وشـركة للبث الفضـائي تقدم خدمات لقنوات عربية على خلفية نقلها للتظاهرات.
لاحقا، وبعد انتهاء الموجة الأولى من الاحتجاجات ليلة يوم 7 تشـــرين الأول / أكتوبر 2019، شكلّت السلطة بضغط من مرجعية النجف ومنظمة العفو الدولية وعدد من البعثات الدبلوماسية لجنة تحقيقية للوقوف على أســـباب العنف ضـــد المتظاهرين، وترأس اللجنة وزير التخطيط الســـابق نوري الدليمي، وكان أبرز ما جاءت به اللجنة ســـقوط 149 قتيلاً في صـــفوف المتظاهرين و4207 جريحاً، إضافة إلى ثمانية قتلى من قوات الأمن في عموم العراق.
وتضـــمن تقرير نتائج التحقيق إحصـــائية صـــحية لدائرة الطب العدلي تبين أن 70% من الإصابات لقتلى المظاهرات في منطقتي الرأس والصدر، وهو ما عزّز لجوء السلطات الأمنية إلى اسـتخدام قنّاصـين في البنايات المحيطة بمنطقة التظاهرات، غير أن التحقيق لم يتهم الحشـد الشـعبي واوصـى بإحالة قادة أمنيين وعسـكريين بما فيهم مسـؤول حماية شـخصـية في رئاسـة الجمهورية إلى التحقيق بعد إعفائهم، وهو ما جعل السياسيين والمدونين المنحازين للاحتجاجات يشككون بقيمة التحقيق.

لكن التحقيقات والأحداث تُثبت، بما لا يقبل الشكّ، أن القوات الأمنية -رسميّة كانت أم لا- كانت تهدف إلى قتل المتظاهرين. فأغلفة الرصاص المكتشفة فوق أسطح أحد البنايات والتي وثِقَت في تقرير اللجنة الحكومية المكلفة بالتحقيق في اسباب العنف وهي من نوعية 5.8 × 42 ملم، وبحسب خبراء، يمكنها أن تستعمل لأسلحة القنص وللأسلحة العادية، وعلاوة على ذلك، فإن إطلاق الرصاص الحي بكثافة وبشكل عشوائي على جموع يصيب عدداً كبيراً بإصابات قاتلة.
وقد أثبتت الأيام القصدية في استهداف رؤوس المتظاهرين عبر قنابل الغاز المسيل للدموع، مما يعزز القصدية في استهداف المتظاهرين قنصا في الأيام الأولى لتظاهرات تشرين الأول / أكتوبر، إذ إن الغطاء الحكومي للقوى القامعة وفّر مساحة نجاة للقتلة من خارج القوات الأمنية وهو ما يجعل الغطاء مناسبا للقوات نفسها أكثر إقناعاً، وقد ظهرت تبريرات حكومية لاحقة لا بد من ذكرها رغم هزالتها وشناعتها، ومنها انتشار تعاطي عقاقير الهلوسة بين المنتسبين الأمنيين من جهة وكذلك عدم تدرّب هذه القوات على مكافحة الشغب بطريقة صحيحة من جهة أخرى، بالإضافة إلى ربط عنف المنتسب الأمني الحكومي بعودته القريبة من ساحات المعارك ضد الإرهابيين.
ولا يُمكن فهم هذه التبريرات، إلا على أنها محاولة من الجهات الرسمية لحرف الأنظار عن قرار استخدام الرصاص والقتل من منهجية معتمدة في التعامل مع التظاهرات، إلى تحويلها لأحداث فرديّة يتحمل مسؤوليتها أفراد داخل المؤسسة الأمنية.
وفي الواقع، فإن هذه التبريرات تحوّلت، في وقت لاحق، إلى منهجية لدى المؤسسة الأمنية، إذ أنها لم تحاكم ضباطاً ورتباً كبيرة منحت أوامر مباشرة باستخدام الرصاص الحي، وقامت، بدلاً من ذلك، بمحاكمة عناصر أمنية نفذّت أوامر قادتها[8].

انتقال الشرارة إلى المحافظات الجنوبية

بالإضافة إلى بغداد، شهدت محافظات ذي قار والبصرة وميسان وواسط والديوانية والنجف وكربلاء وبابل والمثنى احتجاجات مماثلة في الأيام السبعة الأولى، غير أن طبيعة الاحتجاجات في ذي قار اتخذت بعداً أكثر عنفاً، مع استمرار إحراق مقرات الأحزاب الإسلامية الشيعية (ما عدا مقرات التيار الصدري) بالإضافة إلى الحزب الشيوعي، وهذه الظاهرة كانت تكراراً لما شهدته تظاهرات البصرة عام 2018 على خلفية ارتفاع ملوحة المياه وفشل الحكومة المحليّة في توفير الخدمات، غير أن مسلسل الحرائق سيستمر ويطال قنصليات إيرانية وبيوتا للمسؤولين[9] وهو ما سيخلق تبعات خطيرة وموجات عنف ارتدادية لاحقاً.
من جهة ثانية، تبلورت صفة ساحات احتجاج جديدة في المحافظات على غرار ساحة التحرير، وكانت أبرزها ساحة الحبوبي في ذي قار، وساحة ثورة العشرين في النجف، وساحة البحرية في البصرة، وبات لكلِ محافظة ساحة احتجاجها الخاصة والتي شهدت لاحقاً نصب خيام للاعتصام في كل واحدة منهن ما عدا بعض الاستثناءات.

[8] بيان لقيادة العمليات المشتركة بتاريخ 7 نيسان / أبريل 2021.
[9] تصريح ضابط برتبة كبيرة لموقع "الجزيرة نت" بتاريخ 24 أيلول / سبتمبر 2021.

وقد تحولت الساحات المتناسلة من ساحة التحرير الأم إلى ملاذات للمتظاهرين الخائفين على حياتهم، خصوصاً بعد حالات الاعتقال والاختطاف التي رافقت عودة بعضهم إلى بيوتهم، بالإضافة إلى رغبة عددٍ كبير من شباب التظاهرات بالتحرر من الضغوط الأسرية التي تطالبهم بالتوقف عن الاحتجاج، وصولاً إلى مرحلة بات البقاء في الساحات والخيم يمثل انقطاعاً لبعض المتظاهرين عن المجتمع الذي باتوا يرونه مدجناً حسب وجهات نظرهم الغاضبة والحانقة.

الموجة الثانية من الاحتجاجات

بعد البداية الارتجالية للتظاهرات على مستوى المحتجين وعلى مستوى ردة فعل السلطة، جاء وقت التنظيم، واستعد الطرفان للجولة الثانية بطريقة أكثر حنكة.

قامت السلطة، بتطويق ساحات الاحتجاج وعلى رأسها ساحة التحرير عبر قطع الشوارع المؤدية لها ونشر القوات الامنية في مداخلها، وكانت الصفوف الأولى للقوات الأمنية بمواجهة المحتجين ليلة 24 تشرين الأول / أكتوبر 2019 لا تحمل أسلحة قاتلة، إلا أن ذلك لم ينه الكارثة أبداً.

من جانبهم، عبّأ المتظاهرون أنفسهم جيداً، ثم قاموا في ساحة التحرير بالاستقرار في بناية متروكة مشرفة على نهر دجلة وجسر الجمهورية تسمى شعبياً بالمطعم التركي، حيث سمّوها المتظاهرون "جبل أحد"[10]، مكسبيها صفة برج المراقبة ومشاغلة قوات مكافحة الشغب، وستكون هذه البناية مصدراً للكثير من الحكايات على مدى أشهر لاحقة، وقد انطوت رمزية المطعم التركي على ثنائية بليغة جداً، إذ إن البناية نفسها كانت مقراً للقوات الحكومية القامعة للتظاهرات السابقة في ساحة التحرير على مدى عقد كامل، حتى إن بعض السياسيين الشامتين بالمتظاهرين اعتلوا تلك البناية في تظاهرات عام 2011[11]، وهكذا مثّلت السيطرة عليها رد اعتبار للمتظاهرين من قامعيهم، كما أن البناية تمثل بالنسبة للعراقيين دلالة واضحة على فشل النظام وعجزه، خصوصاً وأنها بقيت مهجورة لنحو 17 عاماً في قلب بغداد بحجة أنها قصفت من قبل القوات الامريكية بقنابل تحتوي اليورانيوم المنضب في عام 2003.

شهد يوم 25 تشرين الأول / أكتوبر 2019 الكثير من الحراك باتجاه المباني الحكومية في عموم محافظات الجنوب، وحُرِقَت الكثير مِن المقار السياسية، ومحاصرة بنايات الحكم المحلي رغم فرض حظر التجوال، ولم تكن هذه التحركات من دون تضحيات مؤلمة، إذ بلغت 40 قتيلاً وإصابة أكثر من 1700 آخرين بجروح في اليوم الأول فقط[12].

العصيان المدني

في هذه الأيام، ظهرت فكرة الإضراب العام ودعوة الطلبة والموظفين إلى تعطيل الحياة العامة وتفعيل العصيان المدني، ثم ظهرت مجاميع - في الجنوب غالباً – تسمى (أفواج مكافحة

[10] "حصن محتجي العراق.. هذه قصة المطعم التركي"، قناة العربية، نشر بتاريخ 6 تشرين الثاني / نوفمبر 2019.

[11] المصدر السابق

[12] Iraq protests: 40 dead as mass unrest descends into violenc ،BBC, 25 October 2019

الدوام)، وكان جمهور التيار الصدري، بزعامة مقتدى الصدر، عنصراً أساسياً في هذه الجماعات، وفي يوم 27 تشرين الأول / أكتوبر 2019 تم تتويج هذه الجهود بخروج تظاهرات طلبة المدارس والكليات بملابسهم البيضاء لتكون لحظة فاصلة في تاريخ الاحتجاجات بالعراق، فقد غابت مشاركة الطلبة بالشأن السياسي العام منذ ستينيات القرن الماضي، وباتت صورة أفواج الطلبة داخل النفق المؤدي إلى ساحة التحرير بداية كل أسبوع مظهراً أساسياً في الاحتجاجات وزخماً قوياً داعماً لها.
ومع نصب الخيام برزت ظاهرتان كانتا عنصراً أساسياً في إدامة الاحتجاجات، الأولى هي ظاهرة المفارز الطبية لكوادر من المسعفين والمسعفات والذين عالجوا غالبية حالات إصابة المتظاهرين قبل نقلهم إلى المستشفيات، والثانية هي ظاهرة المواكب الحسينية التي انتشرت في ساحات الاحتجاج لتقديم المساعدات كالغذاء والماء وعدد كبير من الخدمات، وقد ساهم في الكثير من تلك الجوانب نقابات مهنية ومنظمات إنسانية، غير أن السلطات الرسميّة تحدّثت عن "خطوط تمويل" بمبالغ كبيرة قد اتصلت بساحات التظاهر ومصدرها كان من خارج العراق في الغالب -في إشارة إلى دعم خارجي لتقويض النظام، وهذا الأمر أكده متظاهرون لكنهم قللوا من حجم المال السياسي المنفق قياساً إلى التبرعات الخيرية الوطنية، كما أنهم أدانوا شكلاً من أشكال التبرعات جاءت من الخارج وطُرِدَ مَن أوصلها أحياناً وبُرّر رفضها بهزالة مواقف من يقف وراءها أو شذوذه الفكري والسياسي[13].

مطلع شهر تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٩، شهد بداية قطع الطرق باتجاه حقول النفط في جنوب العراق، وتحديداً في البصرة وميسان وذي قار، وقد بادرت السلطة إلى فتح الاعتصامات الخانقة لصناعة النفط بالقوة بغية وصول الموظفين إلى الحقول وضمان استمرار تدفق المورد الأساس للعراق مالياً، لكن هذا الأمر لم ينجح وبقيت الأمور تتصاعد بين الحين والآخر، ثم تطورت إلى محاصرة موانئ البصرة ومحاولة قطع الطريق السريع الرابط بين محافظات الجنوب وبغداد وهو الأمر الذي سيتكرر ولأكثر من عام، تزامن ذلك مع انخفاض حاد بأسعار النفط وأزمة اقتصادية شديدة.
وأظهرت الحركات الاحتجاجية التي حاصرت حقول النفط والموانئ وقطعت الطرق السريعة تطوراً في عقلية المعارض للنظام الريعي والمنتفعين منه، إذ باتت حقول النفط رمزية إضافة لسبب أساس من أسباب فشل النظام الذي وجد قدرته على البقاء في استنزافها وتقاسم مواردها، برغم أن عدداً كبيراً من المحتجين كانوا يريدون ضمان فرص توظيف في تلك الحقول قبل وبعد احتجاجات تشرين الأول / أكتوبر.

الاغتيال والاختطاف أو الاعتقال المزامن للاحتجاجات
شهدت الموجة الأولى والثانية التي استمرت طويلاً من احتجاجات تشرين الأوّل / أكتوبر عدداً كبيراً من حالات التغييب التي كان أغلبها اعتقالاً لم تتضح فيه الجوانب القضائية المعهودة،

[13] حوار للكاتب مع متظاهرين من خيمة (محد يحب العراق بكدنا)، بتاريخ ١٥ أيار / مايو ٢٠٢١.

فيما حدثت عمليات اختطاف أقل تم إطلاق سـراح بعض المختطفين فيها وبقي عدد منهن في حالة تغييب لم تنجح السـلطة في ايجاد حل لها حتى بعد تغيير الحكومة، وقبيل انتهاء الشـهر العاشـر من التظاهرات كانت الحصـيلة 158 معتقلاً، أطلق سـراح 123 منهم وبقي 35 معتقلاً في حينها[14].

أما على مستوى الاغتيالات التي بدأت في البصرة بعد يوم واحد من اندلاع الاحتجاجات وراح ضـحيتها ناشـط وزوجته تمت تصـفيتهما داخل البيت[15]، فلم تتوقف رغم التباعد الزمني لحالات الاغتيال، واستهدفت ناشطين وناشطات في عموم بغداد والمحافظات الجنوبية، وتنوعت طرق الاغتيال بين اسـتعمال القتلة لدراجات نارية تطارد الضـحية أو اقتحام بيوتهم وإطلاق النار المباشـر عليهم، في حين كان اسـتعمال القنابل أقل ولم تتجاوز حالات القتل بهذه الطريقة الحالتين في مجمل الاستهدافات.

وقد باتت الصـناعة الإعلامية المناوئة للتظاهرات غطاء لعمليات الاغتيال والاختطاف والاعتقال وشرعنة لها، مما يؤكد تصميم السلطة على اتباع هذا النهج واستبعاد كونه تخبطاً في القرارات، كما أن نشـاط بعض الفصـائل المسـلحة في اسـتهداف أسـماء محددة من قيادات الاحتجاج ضمن تبريرات سياسية يكمل الصورة، إذ إن الحكومة والطبقة السياسية الصانعة لها منحت تلك الجماعات المسلحة فرصـة الدفاع عن النظام باعتقادهم أنه نظام شـيعي مدعوم من إيران ومسـتهدف من السـنة وحلفائهم الخارجيين، وعلى ضـوء ذلك فقد تم اعتبار مواجهة النشطاء الشيعة واغتيالهم امتداد للحرب على الإرهاب.

قنابل الغاز القاتلة

في الموجة الثانية للاحتجاجات، بعد 25 تشـرين الأول / أكتوبر 2019، اسـتبدلت السـلطة القناص ليحضر بدلاً منها قتل المحتجين عبر إطلاق قنابل الغاز المسيلة للدموع باتجاه رؤوسهم مباشـرة من قبل قوات مكافحة الشـغب والقوات الأمنية أيضـاً، وفي يوم 28 تشـرين الأول / أكتوبر 2019 سـقط صـفاء السـراي أحد قدماء المحتجين الشـباب في سـاحة التحرير والذي سيصبح لاحقاً ايقونة للاحتجاجات بالطرقة هذه، حيث تم خرق رأسه بقنبلة غاز أدت إلى وفاته قرب جسر الجمهورية، وعلى مدى عام لاحق من الاحتجاج سيتكرر القتل بهذه الطريقة كثيراً رغم حديث السـلطة المتكرر عن عدم إعطائها موافقة بإطلاق النار أو تصـويب أسـلحة تفريق الجموع إلى رؤوس المتظاهرين.

معركة الجسور

اختار جزء من المتظاهرين، غالبيتهم من جمهور التيار الصـدري الاتجاه شـرقاً من سـاحة التحرير لتعطيل جسـري السـنك والشـهداء، ونجحوا في السـيطرة على مرآب مطل على نهر دجلة وجسـر السـنك ليكون مماثلاً للمطعم التركي (جبل احد) في سـاحة التحرير، لكن إعداد

[14] بيان للمفوضية العليا المستقلة لحقوق الإنسان في العراق بتاريخ ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٩.

[15] تصريح لمسؤول أمني عراقي بمحافظة البصرة لوكالة العين الإخبارية، نشر بتاريخ 3 تشرين الأول / أكتوبر 2019.

المتظاهرين بدأت بالتناقص كلما ابتعدوا عن موقعهم الأســـاس في قلب بغداد، ورغم كتابة شــعارات تدعو لإغلاق المقرات الحكومية في عموم مناطق الرصــافة إبان حظر التجوال، إلا أن الحياة كانت تعود إلى طبيعتها كلما تم رفعه، ولم تبلغ نسبة الموظفين المضـربين عن الدوام نسبة كبيرة في بغداد قياساً إلى محافظات الجنوب، ورغم شيوع ظاهرة التنمر على الموظفين الحكوميين غير المنقطعين عن دوائرهم في مواقع التواصل، إلا أن هذه الظاهرة لم تتسرب الى الشارع المحتقن وهو ما يعزز مفهوم انضباط التظاهرات في عدد من جوانبها.
حتى ذلك الحين، كان عدد ضـــحايا القمع قد بلغ 319 شـــخصـــاً على الأقل قتلوا خلال الاحتجاجات. ووفقاً للمفوضــية العليا المســتقلة لحقوق الإنســان في العراق، أصــيب 15000 آخرين بجروح[16].

المجازر

قبل أن ينتهي تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٩، وهو الشهر الثاني للاحتجاجات، وقبل يوم واحد من قبول البرلمان اســتقالة رئيس مجلس الوزراء الســابق عادل عبد المهدي، شــهدت النجف موجة عنف بالقرب من مرقد محمد باقر الحكيم بعد محاولات من محتجين لاقتحامه وحرق بوابته الرئيسة.
وفي توقيت مقارب، شهدت الناصرية مجزرة راح ضحيتها العشرات من المحتجين قرب جسر الزيتون، وجاءت المجزرة بعد وفود قوات من الرد الســـريع (أحد الأذرع الأمنية الحكومية) لحقها تنسـيب الفريق الركن جميل الشـمري مشـرفاً أمنياً على ذي قار، غير أن أوامر بإطلاق النار المباشر فضـحت آلية السلطة لضـبط الوضـع في المحافظة الجنوبية وتسببت بانعدام الثقة تماماً بين القوى الفاعلة فيها من جهة والسلطة في بغداد من جهة أخرى.
وفي يوم 5 كانون الثاني / ديســـمبر 2019 خرجت تظاهرات تطالب بتنفيذ مطالب مرجعية النجف والتي نصّــت ضــمناً على ضــرورة تنقية المتظاهرين صــفوفهم من مفتعلي الشــغب والمندسين، وكانت هذه التظاهرات عبارة عن أول احتجاج جماعي لجمهور الحشد الشعبي منذ تأسيسه، وقد قرر المحتجون الذين يوصفون بـ (الولائيين)[17] الذهاب باتجاه ساحة التحرير التي دخلوها دون مصادمات، غير أن مصادر اتفقت على أن عدد من هؤلاء المحتجين تم اختطافهم، وأشــيع أن من قام بذلك هم جماعات تابعة للتيار الصــدري، حيث كان جمهور الصــدريين قد ادعى حماية التظاهرات بواسطة مجموعة من اتباعه أطلق عليهم "القبعات الزرقاء"، في اليوم التالي، حدثت مواجهة عنيفة في مرآب الســنك بين متظاهري الحشــد الشــعبي وبين محتجين غالبيتهم من الصدريين، وقررت هيئة الحشد الشعبي التدخل لحماية المتظاهرين من جمهورها

[16] بيان للمفوضية العليا المستقلة لحقوق الإنسان في العراق بتاريخ 10 تشرين الثاني / نوفمبر 2019.
[17] مصطلح شاع في العراق بعد احتجاجات تشرين الأول / اكتوبر ويقصد به العراقيون الشيعة ممن يؤمنون بولاية مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي.

مستعملة اطلاق النار الحي مما تسبب بسقوط ضحايا في محيط المرآب وساحة الخلاني وعلى مقربة من ساحة التحرير[18].
وقد استمرت المجازر حتى شهر شباط / فبراير من عام 2020، حيث شهدت ساحة الصدرين في النجف موجة عنف جديدة راح ضحيتها أكثر من عشرين ضحية سقطوا نتيجة التصعيد بين جمهور التيار الصدري والمدنيين من المحتجين الرافضين لوجود الصدريين في الاحتجاجات كونهم أحد اقطاب السلطة[19].

الصراع بين الوجود الأمريكي وحلفاء إيران في العراق وأثره على الاحتجاجات

سبقت الاحتجاجات عدد من الخروقات الجوية وعمليات القصف الممنهجة طالت عدداً من مواقع الحشد الشعبي في العراق، بحسب التصريحات الأمريكية المعلنة فإن إسرائيل كانت وراء هذه العمليات بحجة وجود صواريخ بالستية إيرانية بحوزة عدد من الفصائل بالعراق يمكنها أن تطال تل أبيب[20]، وعلى ضوء هذه الاستهدافات انتهت هدنة غير معلنة بين الوجود الأمريكي في العراق منذ 2014 وبين الفصائل الشيعية المسلحة المتحالفة مع إيران، وكان قصف إحدى القواعد ومقتل متعاقد امريكي من أصول عراقية سبباً في هجمات أمريكية ضد مقار للحشد الشعبي بالتزامن مع الاحتجاجات.
كانت الفترة ما بين 29 كانون الأول / ديسمبر 2019 حيث قصفت الطائرات الامريكية مقراً للحشد الشعبي وقتلت 25 مقاتلاً على الحدود العراقية السورية وبين 3 كانون الثاني / يناير 2019 حينما اغتالت طائرة مسيرة أمريكية قاسم سليماني وأبو مهدي المهندس في مطار بغداد الدولي من أشد الفترات ضغطاً على الاحتجاجات، إذ انقسم المتظاهرون إلى فريقين. لم يخفِ الفريق الأول سعادته بمقتل قائد فيلق القدس ونائب رئيس هيئة الحشد الشعبي بحجة أنهما داعمان لحكومة عبد المهدي ولهما يد في قمع الاحتجاجات، والثاني لا يريد أن يقف في صف قوات غازية تنتهك السيادة العراقية وتغتال أبناء القوات المسلحة العراقية والمسؤولين الرسميين وضيوفهم، ورغم محاولة الجمع بين الموقفين في بيانات موحدة، إلا أن الانقسام بدأ يزداد يوما بعد آخر، ومع انسحاب جمهور التيار الصدري من الاحتجاجات وظهور بوادر انتشار فايروس "كورونا" في العالم والعراق ضمناً، ثم احتجاب المرجعية عن إقامة صلاة الجمعة التي منحت المتظاهرين دفعا معنويا كبيراً، وكذلك استقالة عبد المهدي التي فتحت باب المزايدات على من يخلفه مما أضعف الساحة وسمح لجماهير كتل سياسية باختراقها لادعاء تمثيلهم للمتظاهرين وترشيح من يريدونه للموقع الأبرز، كل هذه الاسباب ادت في المحصلة النهائية الى فتور التظاهرات وتقلص اعداد المحتجين في بغداد، رغم استمرار العنف ضدهم

[18] بيان نشر عبر الموقع الرسمي لهيئة الحشد الشعبي بتاريخ 9 كانون الأول / ديسمبر 2019 وتم نفيه لاحقاً، وادعت الهيئة أن موقعها تعرّض للاختراق.
[19] بيان اللجنة المنظمة لتظاهرات ثورة تشرين بتاريخ 6 شباط / فبراير 2020.
[20] نقلا عن مقال لجوناثان سباير مدير مركز الشرق الأوسط للأخبار والتحليل والباحث في معهد القدس للاستراتيجية والأمن نشرته وول ستريت جورنال بتاريخ 2 آب / أغسطس 2019.

في عدد من المحافظات منها ذي قار والبصـرة التي شـهدت تغييباً لعدد من الناشـطين واغتيال عدد آخر.

الخلاصة لا تكفي!

بدأ مشـــهد تظاهرات تشـــرين وانتهى، ولم تفرز تلك الأحداث الكبيرة قيادة متفق عليها بين مجموع التنســـيقيات، وقد ترك ذلك التشـــظي واللا مركزيـة فراغـا كبيراً في آليـة تحويـل الاحتجاجات إلى قوّة سياسية، أو أن ينبثق عنها مؤسسات تضغط على السلطة لإجراء تغيير هيكلي في طريقة التعامل القوات الأمنية مع الاحتجاجات، فضـــلاً عن محاســـبة القيادات التي منحت أوامر بالقتل المباشر للمتظاهرين.

والحال، فإن الحقوقيين المحتجين أو المتعاطفين مع احتجاجات تشـــرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٩ لم ينتظموا في جبهة واحدة لإدانة الســـلطة والقمع والعنف داخلياً أو خارجياً، وشـــهدنا اجتهادات لا تعدو كونها شـــجاعة فردية – في الغالب – فرضـــتها ظروف المواجهة من أجل إطلاق سراح معتقلين أو توثيق جرائم القتل أو الاختطاف.

ميدانياً، لم يملك المحتجون ما يضـــمن ســـلامتهم من القمع الشـــديد، وكانت بعض الإجراءات البسيطة – مثل درع التحرير وهو تجمع شبابي لصد قنابل الغاز المسيل – دليلاً على أن عنف السلطة أكبر من أن يُصَد أو يُقلّل ضرره.

من جانب الســـلطة، فقد نجحت بجميع قواها المتصـــارعة في الاتفاق على تثبيط الاحتجاجات وتوهينها، وعملت الســـلطة بكل أذرعها إعلامياً وامنياً وســـياســـياً على التقليل من زخم الاحتجاجات واندفاعها، وجاءت حكومة رئيس الوزراء مصـــطفى الكاظمي لتعمل عبر قوى نـاعمـة تلتقي مع قيـادات احتجـاجيـة مؤثرة في مشـــتركـات من أجل فض التظـاهرات ورفع الاعتصامات وهو ما جرى لاحقاً.

لقد مثلت الأســاليب التي تعاملت بها الحكومة العراقية مع احتجاجات تشـرين نموذجاً قريباً من القمع الذي شـــهدته الاحتجاجات الإيرانية 2009 او احتجاجات الربيع العربي التي انطلقت في ٢٠١١، ولكنها تميزت بعدم تحميل المسـؤولية لقوى الدولة الرسـمية والحاضـرة في الميادين بشـكلٍ واضـح وصـريح ومباشـر، وتعدى الأمر تلك القوى إلى إدانة قوى غامضـة تم وصـفها بالطرف الثالث في إحالة الى الفصائل الشيعية المسلحة.

ابن ثنوة

سنان أنطون

شاعر وروائي وباحث ومترجم أدبي ولد في بغداد عام ١٩٦٧، حصل على شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية بامتياز من جامعة بغداد عام 1990، غادر العراق عام 1991 وانتقل إلى الولايات المتحدة. حصل على ماجستير في الدراسات العربية من جامعة جورج تاون في عام 1995. في عام 2006، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد في الدراسات العربية والإسلامية. أصدر أنطون ثلاث مجاميع شعرية وعدد من الروايات، وترجمت أعماله إلى أكثر من ٧ لغات عالمية، فضلاً عن حوزه على عدد من الجوائز العربية والعالمية.

«أريد عراق حلو
عراق نظيف
عراق كلها تعيش بيه سلام
عراق بيه حياة كريمة»
صفاء السرّاي

شعر بإرهاق وألم شديد في ظهره بعد أن ساعد في إسعاف أحد المتظاهرين المصابين على الجسر، فقرر أن يأخذ استراحة. مشى بمحاذاة مدرسة العقيدة ثم قطع الساحة متجهاً نحو حديقة الأمة. تذكّر أول مرة جاء فيها إلى ساحة التحرير. ثماني سنوات مرّت كان يعود فيها هنا كلّما سمع النداء. وكان يلبّيه كل مرّة. حتى صار هو الذي ينادي ويحفّز ويشجّع. يحبّ التحرير. يحبّها لأنها صارت بيته الثاني. كان الثائر فيه طفلاً، فكبر وتعلّم فن الاحتجاج، هنا، تحت نصب الحريّة الذي حيّاه بقلبه قبل أن يمر من تحته. كان من الذين يؤمنون أن الاحتجاج فنٌ. فنٌ له قواعده وتاريخه وتراثه. لكنه فنٌ يمكن أن يمارس بعفوية أيضاً، لأنه ينبع من غريزة الحريّة. وأجمل ما فيه أن آلة الاحتجاج الأولى: الجسد، متاحة ومشاعة لكل إنسان. كل ما عليه هو أن يقف، ويرفع ذراعيه، ويهتف بكل ما أوتي من صوت. وسينتظم إيقاع الأنفاس وتتناغم موسيقى الحناجر وهي تهتف، وستجد القلوب والعقول المفردات التي تقول ما يعتمل فيها، وستستعين بالقافية إن اقتضي الأمر.
يحبّها لأنها درّبته على فنون الاحتجاج هذه وصنعت منه ثائراً. يحبها لأنها مدرسة. وخيل إليه أن نصب الحرية الذي مر من تحته هو اللوح الهائل في هذه المدرسة. اللوح الذي كُتب عليه ماضي البلاد الذي يناجي حاضرها ويحلم بمستقبلها. لكنّه وبّخ نفسه وذكّرها أن المدرسة الأولى كانت المدرسة الأم والأم المدرسة. ثنوة. فهي التي كانت تشد من أزره وتشجعه على العودة هنا. هي كانت تدفعه حتى حين كان الآخرون يجدون الاحتجاج مضيعة للوقت أو حتّى ترفاً، ويلومونه على إصراره. كانوا يظنونه من غلاة الحالمين. ولكنه كان يعرف أن الحلم حق.
في حديقة الأمّة أراح جسده على الأرض مسنداً ظهره ورأسه إلى جذع شجرة فعاوده الألم. أغمض عينيه. كأن للألم نفسه ذاكرة وتاريخاً في الجسد يصرّ على تذكير المتألم بهما. كلما

اعتقلوه في الماضي، كانوا يحاولون ابتزازه بالألم. يعصبون عينيه. ويمارسون القسوة التي يجيدونها على جسده بوحشية في الظلام. يريدون إسكات آلة الاحتجاج. تخريبها وترهيب صاحبها. لكنه كان يرى وجه أمّه أثناء التعذيب ويسمع صوتها تقول له: «خلّي راسك مرفوع، وليدي.» وأجابها، من جديد، «ظل الراس مرفوع يمّه.» هل تسمعه الآن؟

حين أخذوا يفتكون بالثوّار ويهددونهم بالقتل، اضطر إلى الذهاب إلى كردستان. لكنه لم يستحمل البقاء بعيداً عن التحرير. فعاد إلى بغداد ليكون في قلب الثورة في الخامس والعشرين من تشرين الأول. فتح عينيه وأخرج هاتفه المحمول من جيبه. راجع اللقطات التي كان قد صورها في الساعات الماضية. كان التعتيم الإعلامي على ما كان يجري قد أثار حنقه، فأخذ يوثّق كل ما يمكن توثيقه من كرّ وفرّ، ومن قمع وعنف ضد المتظاهرين، ويحاول إيصاله إلى الفضائيات ليرى الناس والعالم.

أعلمه الفيسبوك أن أحدهم أعجب بشيء ما. ضغط ليعرف ما هو الشيء ومن هو المعجب. لم يعرف المعجبة التي أثارت انتباهها لقطة كان قد وضعها على جداره منذ زمن. يمشي فيها هو في الطين مردّداً شعر المعلّم «مرّة أخرى أمد القلب بالقرب من النهر، زقاق، مرة أخرى أحنّي نصف أقدام الكوابيس بقلبي، وأضيء الشمع وحدي، وأوافيهم على بعد وما عدنا رفاق، لم يعد يذكرني منذ اختلفنا أحد غير الطريق، صار يكفي.» واستعاد الأبيات التي لم تظهر في اللقطة «يا إلهي إن لي أمنية ثالثة/أن يرجع اللحن عراقياً/وإن كان حزين.» وقال في سرّه: لم تتحقق أمنية سقوط القمع بداء القلب بعد، لكن ها هو اللحن قد عاد عراقياً، وليس حزيناً. حطّ دوريّ بالقرب منه فحاول أن يلتقط صورة له، لكنه هرب. كبس على الزر الذي يعكس العدسة والتقط عدة صورة ذاتية. تأمل وجهه المتعب في الصورة. أعجبه لون الوشاح السماوي حول رقبته. كان يحتمي به من الغاز المسيل للدموع. لم يكن باسماً كعادته. لكنه نشر الصورة على جداره. هو وحده الآن لكنه لم يعد وحيداً. وفكّر بالطريق. طريقه هو الذي ما زال يقطعه. كيف بدأ وتعرّج وإلى أين سيأخذه. «سأقطع هذا الطريق إلى آخري وآخره». لكنه كان متعباً فغفا.

***

لو كان له أن يتتبع الطريق منذ بداياته ويكتب سيرته فسيكون للضيم وشظف العيش مكانهما فيها. فهو الذي رأى. مثلما رأى الملايين من جيله. رأى الموت يختطف أباه وهو لم يزل في الثانية عشرة. رأى أمه تترمّل. رأى الفقر والقهر في سنين الحصار يحتلّان حياتهم وبيتهم وطفولته. لكنه رأى أمّه تحارب على كل الجبهات بشجاعة وصبر خرافيين لتدبر أمور العيش. تعلّم منها معنى التضحية والكرامة. هو الذي رأى السرطان يغزو جسدها. رآها تقاوم آلام المرض بشجاعة وتتشبّث بالحياة. لكن جسدها ذبل. وآلمه ألا يستطيع درء آلام السرطان، ولا الآلزهايمر الذي انقضّ عليها. هو الذي رافقها حتى آخر دقيقة من حياتها في المستشفى سنة ٢٠١٧. وهو الذي أشرف على التغسيل ورآها تُدفن في النجف.

عزاؤه أنه رأى فرحها العارم حين تخرّج من قسم علوم الحاسوب في الجامعة التكنولوجية سنة ٢٠١٥. اصطحبها لتحتفل معه ومع أصدقائه. لو كانت هنا الآن لافتخرت بتعيينه معيداً يمارس اختصاصه في كليّة أهلية بعد كل هذه السنين من التنقل بين شتّى الأعمال.

كم كان الطريق طويلاً: عامل بناء، چايچي، عامل في فرن، بائع كتب، عرضـــحالچي، موظّف في معمل مشروبات.
قال له جارهم بعد أن عرف أنه حصـل على الوظيفة: «خلص بعد، شـعندك تتظاهر؟» «خايب آني جـاي أتظـاهر على هـاي؟ حتين لو يبقى بس واحد مظلوم بـأبعد نقطـة بـالعراق هم أطلع أتظاهر. لأن أحب الناس، وأحب العراق. طلعت، وأطلع، وراح أطلع.»

لكن الطريق لم يكن كله ألم وحزن. كان زاده في رحلته الجمال بأشـــكاله التي لا تنتهي، وفي واحاته التي يهرب إليها: شـعراً، ورسـماً، وطرباً على العود الذي عشـقه. وكان زاده في رحلته الحب بأطيافه: في المرأة، حبيبة وصديقة، وفي الصديق والرفيق. وفي الوطن ومعانيه.

سـيكتب سـيرته في يوم ما. لكن عليه أن يواصـل طريقه. فتح عينيه ونهض وعاد إلى التحرير.

***

نظر حوله إلى بحر الأجساد التي تملأ الساحة. كان يرى كل جسد موجة عارمة تختزن مزيجاً من الغضب والإصرار والأمل. الرؤوس مرفوعة بشموخ. والأيادي قبضات تطالب، أو تمسك لافتة، أو ترفع شعاراً، أو راية. والحناجر تهتف غاضبة. هذا هو الطوفان الذي كان يحلم بقدومه. وكم كان يحلم. لكن أحلامه لم تكن منسـوجة من سـذاجة، بل أحلام تعلّمت من التاريخ وقوانينه. حلم يسـتمد قوته من إيمانه بهذه الأرض. كان يردّد ما قاله مظفّر: «وطني علّمني أن أقرأ كل الأشياء.»

ظل على يقين أن الطوفان قادم، حتى حين كان الآخرون، بغض النظر عن نواياهم، يسـقطون في شـراك اليأس واليباس. سـيعترف أن اليأس كان يطارده هو أيضـاً أحياناً. لكنه لم يستسلم. حتى حين جاء ذات مرة إلى التحرير ولم يجد أحداً. احتضن العلم يومها وجلس ينتظر. وحيداً. ولم يقل لأحد أن الشِعر كان سلاحه بوجه اليأس.

«سـينهض من صـميم اليـأس جيـل/مريـد البـأس جبّـار عنيـد/يقـايض مـا يكون بمـا يرجّى/ويعطف ما يراد لما يريدُ»

الجواهري العظيم كان يعرف أن جيلاً قادماً سيفعلها. وفعلها هذا الجيل، جيل صفاء. حين عرض لوحاته ضمن معرض «أنا عراقي أنا أقرأ» شاكسه أحد أصدقائه قائلاً: «هذا صاحبك الخابصـنا بيه مدح حافظ الأسـد» فقال له: «إي، أدري. بس آني اللي يهمني حبّه للعراق. فآنه مستعد أمشّيلهيّا. بعدين يگولون: يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره.» وضحك.

فعلها جيلنا الذي طالما سـخروا منه. شـعر بالغضـب ذات مرة حين كتب واحد من «مثقفي» الجيل الذي سبقهم، على تويتر ذات مرة يتساءل باستعلاء: «نحن كنّا نقرأ كثيراً؟ هل يقرأ هذا الجيل أي شـيء؟ هل يعرفون أي شـيء؟» رد عليه مباشـرة وتحداه أن يواجهه في مناظرة وترك له أن يختار الموضوع. لم يرد طبعاً. كان أجبن من أن يواجه ضعفه. كان يغضب

من أولئك المثقفين الذين يتباهون بنخبويتهم. المنفصلين عن الواقع وأولئك الذين يجاملون السلطة ورموزها. ولم يتردد في مواجهتهم.

وكـان يلام على الحلم وعلى الإفراط في الأمـل والمغـالاة في حـب العراق. حين كتـب «محّد يحب العراق بگدّي» سـألـه أحدهم ما معنى أن تحب العراق؟ فالكل يقولون إنهم يحبون العراق. حتى الذين ينهبون العراق ويقتلوننا يصـرّون على المجاهرة بحبهم له ليل نهار. والذين نتظاهر ضـدهم يقولون إنهم يحبّون العراق، فما الفرق يا صـفاء؟ وكان ردّه: «اعتمدوا القلب، فالقلب يعرف مهما الرياح الدنيئة سيئة جارفة».

«چا إنت حسبالك الشعر بيه جواب لكل شي؟»

«إي طبعاً»

***

ها هو العراق يعود، هو وألحانه. وليس اللحن حزيناً.

***

شعر بألم شديد في رأسه. وسقط أرضاً.

***

ظلام

***

لم يعد يرى شيئاً إلا السواد.

لكنّه يسمع صوت أنفاسه.

ويسمع وقع أقدام تركض وصراخ وضجيج.

«انضرب»

«لك لا»

«الله أكبر»

«إجتّي براسه»

«دخّانية»

«إسعاف»

«بسرعة»

«يمّه»

«أبو التكتك»

«عالجملة العصبيّة»

***

ظلام

***

ظلام تتخلله أضواء ساطعة مثل تلك التي كادت تعميه حين احتجزوه.

***

كان قد فكّر بالموت كثيراً في الماضـــي. هو الذي رأى ثنوة تموت ببطء أمام عينيه. ما معنى أن يموت الإنســان؟ ما معنى أن يموت هو؟ ألّا يكون. لن يكون. لن يتنفّس. لن يعشــق. لن يقبّل. لن يغنّي. لن يطرب. لن يضحك. لن يرسم. لن يعزف على العود. لن يأكل. لن يشرب. لن يتظاهر. لن يهتف. لن يضحك. لن يكتب الشعر. لن يقرأ الشعر. لن يحب.

هل يتذكر الموتى حياتهم؟ ألن يتذكّر شــيئاً؟ لعلها نعمة النســيان التي غنت عنه أم كلثوم. سيحزن. لن يندم على شيء. إلا على فراق العراق. سيشتاق للعراق.

محّد يحب العراق بگدي.

لا عزاء سوى أنه سيرى ثنوة. سيقبل جبينها ويديها ويحتضنها. سيستلقي بجانبها ليريح رأسه بين يديها، كما اعتاد أن يفعل حين كانت . . . هنا.

***

٢٨ تشرين الأول، ٢٠١٩

***

«شونچ يمّه؟»

«هلا يمّه. هاي شبيه راسك وليدي؟ شصار؟»

«لا تخافين. بسيطة.»

«وين چنت؟ بالتحرير؟»

«إي. چا وين.»

«منو چان هناك ويّاك؟»

يضحك ويقول لها:

«گولي منو ما چان؟ العراق كِلّه.»

«تعال ارتاح»

***

حاول أن يتذكر بيت شعر، يسكن فيه في تلك اللحظة ويستريح.

***

«عراق، عراق، ليس سوى عراق».

عراقيات وثائرات

زهراء علي
عالمة اجتماع وأستاذة مساعدة في جامعة روتجرز - نيويورك. تقوم أبحاثها باستكشاف ديناميكيات المرأة والجندر والحركات الاجتماعية والسياسية فيما يتعلق بالإسلام (الإسلامات) والشرق الأوسط وسياقات الحرب والصراع، مع التركيز على العراق المعاصر. صدر كتابها "النساء والجندر في العراق" عن دار جامعة كامبردج في 2018.

ترجمة عن الإنجليزية: وسن قاسم

في هذا الفصل استكشف مشاركة المرأة ومعنى تلك المشاركة وأهميتها ومضمونها. أولاً، أجادل بأن الانتفاضة كظاهرة حضرية في الغالب أنتجت فضاءً اجتماعياً. إذ استعاد المتظاهرون فضاءً حضرياً معسكراً ومخصخصاً وذكورياً. ومن خلال إنتاج فضاء اجتماعي بديل وعام وشامل وبعيد عن العنف المسلح، يمكن للنساء من جميع الفئات تحدي الأعراف الجندرية المهيمنة والمشارَكة بفعالية في بناء نسيج اجتماعي غير أبوي. ثانياً، من أجل تناول أهمية مشاركة المرأة، من الضروري فهم طبيعة النظام السياسي بعد عام 2003؛ إنه نظام قائم على كل من الاختلاف الطائفي والجنسي – الجنس-طائفي –، والذي فرضت فيه القوى السياسية المهيمنة معايير جندرية محافظة تحدٍ من الحضور العام للنساء وتحيلهن إلى أدوار منزلية. وبالتالي، فإن حضور النساء الواضح جنباً إلى جنب مع الرجال يشكل تحدياً للنظام ككل. أخيراً، أحاول أن أفهم غياب أجندة نسوية أو أجندة قائمة على النساء في الانتفاضة. أنا أزعم أن الخيار السائد للنساء لوضع مشاركتهن في إطار القومية بدلاً من النسوية هو نتيجة للإطار السائد المتاح لهن والذي من خلاله يتعاملن مع مشاركتهن كأية مجموعة اجتماعية أخرى. إن مشاركتهن الواضحة هي غير محددة بالجندر بل شاملة وتحويلية.

المقدمة

في تشرين الأول / أكتوبر 2019، انتشرت حركة احتجاجية ضخمة، وتطورت بشكل رئيس في محافظات العراق الوسطى والجنوبية التي يهيمن عليها الشيعة، بما في ذلك مدن مثل النجف وكربلاء وذي قار والبصرة. وعلى الرغم من أن هذه الانتفاضة أطلقها الشباب والمحرومون من حقوقهم في البداية، إلا أنه سرعان ما انضم إليها أناس من خلفيات متنوعة. كانت النقابات والمنظمات الطلابية قد أضربت ودعت إلى العصيان المدني. ومن السمات البارزة للانتفاضة الحضور القوي للنساء، ولا سيما الشابات اللواتي اصطففن مع شعارات الانتفاضة الموحِّدة "نريد وطن" و"نازل آخذ حقي".
مهدت العديد من الحركات الاحتجاجية الكبرى، لا سيما في عام 2015 وعام 2018 في البصرة، الطريق للانتفاضة الحالية: فقد كانت حاسمة في زيادة الوعي وبناء سردية خطابية وسياسات للاحتجاجات. ومع ذلك، لم ترَ أي منهن مشاركة نسائية ضخمة مثل الاحتجاجات التي بدأت في تشرين الأول / أكتوبر 2019. إن انتشار انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر وشعبيتها

يجعلها نقطة تحول مجتمعية، وليست سياسية – أي مفهومة بالمعنى الضيق بالنسبة للدولة ومؤسساتها وكذلك المؤسسة السياسية–. وفي قمة لحظات الانتفاضة – بدءاً من 25 تشرين الأول أكتوبر وحتى نهاية تشرين الثاني / نوفمبر، جمعت ساحات الاحتجاج مجموعة واسعة من الأفراد من مختلف الطبقات والفئات العمرية والخلفيات التعليمية.
في هذا الفصل أستكشف مشاركة المرأة ومعنى تلك المشاركة وأهميتها ومضمونها. أولاً، أجادل بأن الانتفاضة كظاهرة حضرية في الغالب أنتجت فضاءً اجتماعياً. إذ استعاد المتظاهرون فضاءً حضرياً معسكراً ومخصخصاً ويهيمن عليه الذكور. من خلال إنتاج فضاء اجتماعي بديل وعام وشامل وبعيد عن العنف المسلح، يمكن للنساء من جميع الفئات تحدي الأعراف الجندرية المهيمنة والمشارَكة بفعالية في بناء نسيج اجتماعي غير أبوي. ثانياً، من أجل فهم أهمية مشاركة المرأة، من الضروري فهم طبيعة النظام السياسي بعد عام 2003. إنه نظام قائم على كل من الاختلاف الطائفي والجنسي – الجنس-طائفي –، والذي فرضت فيه القوى السياسية المهيمنة معايير جندرية محافظة تحد من الحضور العام للنساء وتحيلهن إلى أدوار منزلية. لذا، فإن حضور النساء الواضح جنباً إلى جنب مع الرجال يشكل تحدياً للنظام ككل. وتدرك النساء، وخاصة الشابات المتظاهرات، مدى التمرد الذي يحدثه وجودهن في الشوارع وساحات الاحتجاجات. أخيراً، أحاول أن أفهم غياب أجندة نسوية أو أجندة قائمة على النساء في الانتفاضة. أنا أزعم أن الخيار السائد للنساء لوضع مشاركتهن في إطار القومية بدلاً من النسوية هو نتيجة للإطار السائد المتاح لهن والذي من خلاله يتعاملن مع مشاركتهن كأية مجموعة اجتماعية أخرى. إن مشاركتهن الواضحة هي غير محددة بالجندر بل شاملة وتحويلية.

استعادة الفضاء ضد ما هو معسكر وذكوري ومخصخص

تميزت انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر عام 2019 بإعادة امتلاك الفضاءات العامة من خلال احتلال الساحات العامة والشوارع والجسور والطرق والمباني المهجورة مثل المطعم التركي. الفضاء الاجتماعي – سواء كان عاماً أو خاصاً – هو المكان الذي يوجد فيه الجسد وحيث توجد التجربة الاجتماعية وحيث يتم العيش في النسيج الاجتماعي للمجتمع والتفاوض بشأنه والتنازع عليه. كما أشار عالم الاجتماع هنري لوفيفر، فإن الفضاء الاجتماعي يُنتَج ويُبنى اجتماعياً[21]. في تأمله حول إنتاج الفضاء وضع لوفيفر تحليلاً هاماً حول كيفية إنشاء المكان والزمان والعلاقات الاجتماعية من قبل نمط الإنتاج الرأسمالي. فقد جادل بأن الفضاء الاجتماعي هو منتج اجتماعي لا يمكن اختزاله إلى بنائه المادي، ولا إلى الإنتاج الاقتصادي، بل يُطوَّر من خلال دينامية اجتماعية ومادية وعقلية، وهي ثمرة القيم والتمثيلات الجماعية التي تتم تجربتها وتصورها وفهمها. يستخدم مصطلح الإنتاج من قبل الفيلسوف لوفيفر بمعناه الماركسي فيما يتعلق بنمط الإنتاج الرأسمالي الضروري في التوسع الحضري المعاصر الذي يشمل الدولة والسوق والطبقة الرأسمالية التي تستحوذ على وسائل الإنتاج وفائض القيمة. كما استخدمه أيضاً بمعنى أكبر للتأكيد على حقيقة أن الفضاء هو نتاج ومنتج للمجتمع الذي تتم تجربته وتصوره وإدراكه معاً. كما وضع

[21] Lefebvre, Henri. 1974. *La production de l'espace*. Anthropos.

لوفيفر أيضاً نظرية لمفهوم الانتباذ، كفضاءات اجتماعية حدية للإمكانية، إذ ينبثق الخيال الاجتماعي الثوري واليوتوبيا من أفعال الناس العفوية وليس من خلال خطة واعية. بالنسبة له، ليست الحركة الثورية هي التي تخلق الفضاء، بل انقطاع الفضاءات المنتبذة نفسها يخلق شيئاً مختلفاً وبديلاً عن القوة المهيمنة. وقد قارن بين الانتباذ، والتناظر وفضاء الدولة والنظام الاجتماعي الرأسمالي.

كثيراً ما يوصف العراق بأنه مجزأ على أسس أثنية وطائفية. إذ تركز مجموعة واسعة من الأدبيات على الطرق التي أدت بها النزاعات الطائفية إلى التجزئة الإقليمية، كون البلاد مقسمة بين الشمال الكردي والوسط الجنوب الشيعي والغرب السني. بغداد، عاصمة العراق، مقسمة على أسس طائفية بواسطة القواطع الجدارية ونقاط التفتيش. ولم يُعطى سوى القليل من الاهتمام للتجزئة الطبقية وللطرق التي ترتبط بها الطبقة بالسلطة السياسية. في الواقع، التقسيم الرئيسي في العاصمة هو الفضاء الجغرافي الذي يقسم المنطقة الخضراء التي تحتلها النخبة السياسية والمنطقة غير الخضراء، حيث تعيش الأغلبية. وتم إيلاء اهتمام أقل للتجزئة على أساس الجندر والطرق التي يتم بها الفصل بين الفضاء على أساس الاختلاف الجندري. يمكن تعريف الفضاء الاجتماعي الحضري في العراق بعد عام 2003، والذي يعني الفضاء الذي يمارس فيه سكان مدنه التفاعل الاجتماعي اليومي على أنه معسكر ويهيمن عليه الذكور ومخصخص.

كما تجادل الدراسات النسوية حول الحرب والنزاع المسلح، فإن العسكرة مجندرة بشدة، وهي ضرورية في تحديد الأعراف والعلاقات الجندرية[22]. ففي العراق، تفاقمت العسكرة كظاهرة اجتماعية وسياسية خلال الحرب مع إيران في الثمانينات، مشكّلةً تمثيلات وممارسات الأنوثة والذكورة. في الحملة التي ترعاها الدولة، ارتبطت الذكورة بشخصية الجندي الذكر المسؤول عن حماية الأمة التي تم تعريفها على أنها أنثوية. وتم تصوير النساء على أنهن ضعيفات وسلبيات بينما تم ربط الذكورة بالاستخدام الفعال للعنف[23].بينما كان الجنود الذكور في الخطوط الأمامية، تحملت النساء العبء الاقتصادي والاجتماعي للأسرة. ومع ذلك، فقد تم الضغط عليهن للعودة إلى المجال المنزلي من خلال حملات الدولة التي تطالبهن بأداء "واجباتهن" الإنجابية[24]. كانت أحداث التسعينات بمثابة التطبيع التام للعنف العسكري والسياسي والقمع الاستبدادي المروع من قبل سلطة البعث والقصف المدمر الذي قادته الولايات المتحدة، مما أثر بشكلٍ كبير على الحياة اليومية للعراقيين.

---

[22] See Cockburn, Cynthia. 2010. Gender Relations as Causal in Militarization and War, *International Feminist Journal of Politics* (12:2) pp. 139-157; Cockburn, Cynthia & Enloe, Cynthia. 2012. Militarism, Patriarchy and Peace Movements, *International Feminist Journal Of Politics* (14 :4) pp.550-557 and Peterson, V. Spike . 2007. Thinking through intersectionality and War. *Race, Gender & Class* (14:3/4) pp. 10-27.

[23] See Rohde, Achim. 2010. Gender Policies in Ba'athist Iraq, in *State-Society Relations in Ba'thist Iraq*, Routledge Studies on the Middle East: 75-118; 2006; Opportunities for Masculinity and Love: cultural Production in Ba'thist Iraq during the 1980s, In Ouzgane Lahoucine eds. *Islamic Masculinities,* Zed Books.

[24] See Efrati, Noga. 1999. Productive or Reproductive? The Roles of Iraqi Women during the Iraq-Iran War. *Middle Eastern Studies,* 35 (2): 27-44 and Abdel Hussein, Lahay. 2006. *اثر التنمية والحرب على النساء في العراق: ١٩٦٨-١٩٨٨*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

كانت عقوبات الأمم المتحدة في الواقع "حرباً غير مرئية"[25] دمرت مؤسسات الدولة الأساسية وأغرقت سكان البلاد في الفقر. إذ أعادت العقوبات تعريف النسيج الاجتماعي للمجتمع الذي شهد ظهور أشكال جديدة من النظام الأبوي فقد دفع الفقر المدقع الأسر والأفراد إلى استراتيجيات البقاء. وتآكلت القيم الاجتماعية والثقافية الأساسية مع انتشار الفساد والعلاقات الفردية القائمة على المصلحة الاقتصادية وتفكك التضامن الأسري في سياق كافح فيه الأفراد لإيجاد وسائل للبقاء. في هذا السياق، ظهر انخفاض عام في الزواج بسبب الفقر، وكذلك زيجات غريبة مثل زواج فتاة من رجل ثري، فضلاً عن ارتفاع حالات الزواج غير الرسمي. أطلقت "الحملة الإيمانية" التي شنها نظام البعث العنان للسياسات الدينية والقبلية الجندرية المحافظة والتي عززت الأدوار المنزلية للمرأة وأقرت وجودها في الأماكن العامة[26]. منذ عام 2003، تفاقمت العسكرة بسبب النزاعات المسلحة وتوطيد الميليشيات المرتبطة بالجماعات السياسية المهيمنة التي وصلت إلى السلطة من خلال الاحتلال. وسرعان ما فرضت هذه الأحزاب الإسلامية الطائفية سياساتها الجندرية المحافظة في الشوارع من خلال جماعاتها المسلحة وميليشياتها المنتشرة عند نقاط التفتيش والسيطرة على أحياء مختلفة في المناطق الحضرية[27].

الأماكن الخارجية حيث يمكن للنساء قضاء أوقات فراغهن والتجول هي أماكن الاستهلاك مثل الأسواق والمطاعم والمقاهي ومحلات الآيس كريم ومراكز التسوق الجديدة. حتى في أماكن الاستهلاك هذه، غالباً ما يتم فصل النساء في أقسام "العوائل" في المطاعم والمقاهي. ويهيمن الرجال على معظم الأماكن الخارجية مثل الشوارع، إذ يمكن للرجال المشي والتسكع، وتشغل أجسادهم حرفياً الأماكن العامة بينما تمر النساء مروراً، ما لم يجلس الرجال برفقتهن. والفضاءات الاجتماعية الخارجية لا تتسم بهيمنة الرجال عليها فقط، بل هي مخصخصة أيضاً، حيث إذ إن العديد من مراكز التسوق الجديدة في العاصمة مبنية على ما كان في السابق حدائق عامة[28]. وتتطلب معظم الأماكن الخارجية المعروفة التي يمكن للنساء أن يكنّ على راحتهن فيها وضعاً اجتماعياً ودخلاً معيناً. إذ إن النوادي الاجتماعية مثل نادي الصيد في المنصور أو نادي العلوية في وسط بغداد والتي يكون التقسيم بين الجنسين فيها أقل وضوحاً وحيث يمكن للنساء والرجال أن يجدوا مطاعم ومقاهي بالإضافة إلى أنشطة للاسترخاء ومشاهدة فيلم أو الذهاب إلى حمام السباحة هي أماكن مفتوحة لأعضائها فقط وعضويتها باهظة الثمن.

مراكز التسوق ليست بنفس التراتبية لأنها من حيث المبدأ مفتوحة للجميع، لكن البغداديين يتأنقون في ملبسهم للذهاب إلى المركز التجاري، إذ سعر الشاي أو القهوة أكثر بثلاث مرات منه خارج

[25] Gordon, Joy. 2012. *Invisible War. The United States and the Iraq Sanctions*. Harvard University Press.

[26] See Al-Jawahiri H. Yasmine, 2008. *Women in Iraq. The Gender Impact of International Sanctions*. I.B. Tauris ; Al-Ali, Nadje. 2007. *Iraqi Women. Untold Stories from 1948 to the Present*. Zed Books; Ismael S. Jacqueline & Ismael T. Shereen. 2008. Living through war, sanctions and occupation: the voices of Iraqi women, *International Journal of Contemporary Iraqi Studies* Volume 2 Number 3: 409-424; Ali, Zahra. 2018. *Women and Gender in Iraq: Between Nation-Building and Fragmentation*. Cambridge University Press.

[27] See Ali, Zahra. 2018. *Women and Gender in Iraq: Between Nation-Building and Fragmentation*. Cambridge University Press.

[28] See Sirri, Omar. 2020. Seeing the Political in Baghdad's Shopping Malls. *LSE Blogs*.

المركز التجاري. إن تقسيم الفضاء بين الجنسين أقل وضوحاً في مراكز الاستهلاك هذه، كما أن شَغل الرجال والنساء للفضاء أقل تقييداً. بعد اجتياز نقطة التوقف والتفتيش عند مدخل المركز التجاري، لا توجد في الداخل علامات تدل على حرب أو انقسام طائفي ولا جنود ولا ضباط شرطة. كما أن طبيعة قواعد الملبس في هذه الأماكن كاشفة للغاية إذ يرتدي الناس ملابس أنيقة وتسود ملابس الطبقة الوسطى والعليا. ومع ذلك، فإن تنوع ملابس النساء، من اللواتي يرتدين ملابس محافظة للغاية إلى اللواتي يرتدين ملابس لا تغطي أجسادهن هي أيضاً سمة لافتة للنظر.
هناك، أكثر من أي مكان آخر في الهواء الطلق في العاصمة، يختلط الرجال والنساء ويتنقلون من مكان لآخر، إذ إن التوترات بين الجنسين المرتبطة بوجود الإناث وتنقلهن وملابسهن ليست قوية كما هي في الشوارع حيث يسود وجود الذكور.
يعتبر اندلاع الاحتجاجات السلمية في العراق ظاهرة حضرية بشكل أساسي. من نواحٍ عديدة، تشكل مشاركة الشباب والنساء رد فعل على الفضاء المعسكر الذي يسيطر عليه الذكور والمخصخص. وتنتج الانتفاضة فضاءً اجتماعياً بديلاً، غير معسكر وشامل من حيث الطبقة والجندر، والذي يكون الغرض منه ليس الاستهلاك ولكن خلق روابط وعلاقات اجتماعية. ساحة التحرير في بغداد وساحة الحبوبي في الناصرية وساحات الاحتجاجات في جميع أنحاء البلاد هي فضاءات يمكن أن يتواجد فيها ويزدهر أولئك الذين يُنظر إليهم بازدراء والمسَيطر عليهم والذين يتعرضون للتمييز. وتعتبر ساحات الاحتجاجات فضاءً عاماً في الهواء الطلق تشغله النساء، بشكلٍ واضح وصوت عالٍ. تقوم النساء بالتظاهر والتنظيم، سواء في الخطوط الأمامية كممرضات ومقدمات رعاية يواجهن وحشية قوات الأمن العراقية، أو يعبّرن عن أنفسهن في أعمالهن الفنية التي تزين ساحات الاحتجاجات أو في تولي أدوار أكثر تقليدية مثل الطبخ والتنظيف. في ساحة التحرير ببغداد، تصادق شابة من الطبقة الوسطى من المنصور شاباً من الطبقة العاملة من مدينة الصدر. ويمسك العشاق بأيدي بعضهم في مواجهة الرصاص الحي لقوات الأمن.
في هذه الأماكن، يتم نسج نسيج اجتماعي جديد من خلال التنظيم الجماعي، حيث يلتقي المجتمع العراقي ويتفاوض ويبني روابط وأعراف مجتمعية جديدة: حيث يتساوى الفقراء غير المتعلمين مع الطبقة الوسطى المتعلمة، وحيث يلتقي الرجال والنساء والصغار والكبار، ويتشاركون في فضاء مشترك ويبنون حركة مشتركة. كان المتظاهرون، في الواقع، ينشئون "أشكالاً جديدة للدولة" من خلال تقديم خدمات صحية وتعليمية مجانية وتنظيف الشوارع وإعادة الصبغ فضلاً عن ترميم المعالم العامة وتجميل الأماكن العامة من خلال الفن والتصميم الأصلي. كانت ساحات الاحتجاجات للنساء والأفراد من جميع الطبقات بمثابة انتباذات بعيداً عن التناظر المجزأ والمعسكر والمخصخص الذي يهيمن عليه الذكور والذي تفرضه القوة المهيمنة.

تحدي الجنس-طائفية: الشخصي هو سياسي

في حين أن حجم مشاركة النساء في الاحتجاجات ملحوظ، فإن مشاركتهن داخل الحركة الاحتجاجية ليست جديدة. كانت إحدى التظاهرات الأولى التي نُظمت في عراق ما بعد عام 2003 هي تظاهرة من أجل حقوق المرأة تندد بالتشكيك في قانون الأحوال الشخصية، وهو إطار قانوني يجمع حق المرأة في الطلاق والزواج وحضانة الأطفال والميراث وما إلى ذلك.

نظمت النسويات احتجاجات ضد محاولة الأحزاب الإسلاموية الشيعية لإحلال قانون طائفي محل القانون – الذي يشمل حالياً الفقه الديني السني والشيعي –. وبينما لم تنجح هذه المحاولة، فإن الأحزاب الإسلاموية الشيعية التي وصلت إلى السلطة مع الإدارة الأمريكية تجدد باستمرار محاولتها لفرض قانون طائفي ومحافظ، وكانت محاولتها الأخيرة هي اقتراح القانون الجعفري[29].
هذه المحاولة "لتطييف" مجال الحقوق القانونية للمرأة يتم نشرها في إطار النظام السياسي الجديد الذي تم وضعه في العراق من قبل الغزو والاحتلال بقيادة الولايات المتحدة. منذ عام 2003، يقوم النظام السياسي العراقي على الحصص القائمة على الجماعة – الطائفية والعرقية والدينية – المعروفة باسم نظام المحاصصة.
إن فرض الانقسام الطائفي والجنسي هو طريقة تؤكد بها الجماعات الإسلاموية الشيعية هيمنتها على المجال الاجتماعي والسياسي. ومن ثم، فإن النظام السياسي الجديد لا يقوم على الاختلاف الطائفي فحسب، بل على الاختلاف الجنسي أيضاً. بعبارة أخرى، يمكن تعريف النظام السياسي العراقي بأنه جنس-طائفي (sextarian)، وهو مصطلح صاغته مايا مكداشي في سياق لبنان[30].
فالطائفية مجندرة، ويتم اللعب بسياسات الهوية على الأعراف والعلاقات الجندرية، وخاصة على أجساد النساء. إذا كانت السياسات الجندرية المحافظة قد بدأت بالفعل أثناء العقوبات مع "الحملة الإيمانية" لنظام البعث، فإن تفاقم الأزمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية منذ عام 2003 والسياسات الجنس-طائفية للنخبة السياسية التي وصلت إلى السلطة قد خلقت أشكالاً متطرفة من السيطرة الاجتماعية والمحافظة.
إن التداخل بين العنف السياسي وفرض النزعة الجنس-طائفية هو مكون للجهاز الأمني للنظام من السياسيين المنتخبين في البرلمان إلى الميليشيات. كما أنه واضح جداً في قمع الاحتجاجات السلمية، إذ إنه مجندر: أي تحدٍ للمعايير الأبوية الجندرية يُنظر إليه على أنه تهديد للنظام ككل. غالباً ما تصور المؤسسة السياسية العراقية الانتفاضة على أنها "غير أخلاقية" من خلال قنواتها الإعلامية ومنصات التواصل الاجتماعي. وغالباً ما يُتهم المتظاهرون بالفساد الجنسي، والانحراف، وتنتشر جميع أنواع الشائعات حول "السلوك غير المشروع" المفترض حدوثه بين الشباب تحت الخيام الموجودة في ساحات الاحتجاجات.
لا تهيمن القوى الدينية الطائفية الأبوية على المجال السياسي فحسب، بل تهيمن أيضاً على الشوارع من خلال مجموعاتها المسلحة وميليشياتها. ويستخدم العنف المسلح لمنع مشاركة المرأة من خلال بث الخوف والرعب وخطف المتظاهرات مثل صبا مهداوي وماري محمد أو قتلهن كما حدث لسارة طالب وزوجها عادل، وريهام يعقوب في البصرة، وزهراء علي في بغداد. وتتعرض النساء أيضاً للهجوم على وسائل التواصل الاجتماعي. وتحول هاشتاغ # بناتك_ياوطن الذي تم إطلاقه للاحتجاج النسائي في 13 شباط / فبراير الماضي إلى # عاهراتك_ياوطن. على

[29] See Ali, Zahra.2018. *Women and Gender in Iraq: Between Nation-Building and Fragmentation*. Cambridge University Press.

[30] See Mikdashi, Maya. 2018. Sextarianism: Notes on studying the Lebanese state. *The Oxford Handbook of Contemporary Middle-Eastern and North African History*, (eds.) Amal Ghazal and Jens Hanssen, Oxford University Press.

جدار النفق المؤدي إلى ميدان التحرير، وعلى اللافتات التي حملتها الشابات في أثناء الاحتجاجات، يمكن قراءة الجملة التالية "نساء ثورة أكتوبر ثائرات لا عاهرات".

صوت المرأة ثورة

إن مشاركة النساء وحدها لا تجعل الاحتجاج نسوياً أو يتمحور حول مصالح النساء. في الواقع، دعت بعض التظاهرات النسائية في عراق ما بعد الغزو إلى إصلاحات قانونية تبدو متناقضة مع المصالح المباشرة للنساء من حيث الحقوق القانونية. إن التظاهرات النسائية الإسلاموية الشيعية من أجل القانون الجعفري، على الرغم من محدوديتها وتنظيمها كما يبدو، هي مثال على احتجاج النساء الذي يدعو إلى فقدان الحقوق القانونية مقابل الدفاع عن هويتهن الشيعية. كانت النساء، الشابات ومن جميع الأعمار، حاضرات، بصوت عالٍ وواضح خلال انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر، فقد نُظِمَت تظاهرة نسائية تحمل شعار "بناتك يا وطن" في شباط / فبراير 2020 كجزء من الانتفاضة. تم استخدام مصطلح "بناتك" بدلاً من "نسائك" للإشارة إلى تحول في الأجيال: فتيات يبدأن التغيير ويصنعن التاريخ.

جنباً إلى جنب مع الشعارات التي تشيد بالأمة، تستخدم الشابات المشاركات في الاحتجاجات علانيةً بعض الشعارات المناهضة للنساء. ومن أشهر الأمثلة التي تكررت خلال الاحتجاج، كيف سخرت الشابات، وكذلك الشبان، من مدير مدرسة ثانوية للبنات تم تصويره وهو يصرخ في وجه الطالبات الصغيرات اللواتي يغادرن المدرسة للانضمام إلى الاحتجاج "عيب، اللي دتسووه عيب". وسخر المتظاهرون من هذه الجملة التي صرخ بها مدير المدرسة الذي هو في منتصف عمره عدة مرات بصوت درامي وتم بثها في البرنامج الشهير "البشير شو". مثال آخر هو كيف أدان القادة السياسيون الإسلامويون الاختلاط بين الجنسين في أثناء الاحتجاج، بمن فيهم الزعيم المثير للجدل مقتدى الصدر. من خلال منع الاختلاط بين الجنسين وتسمية صوت المرأة على أنه "عورة" – أي أنه ينتمي للمجال الخاص، سعت الجماعات السياسية الإسلاموية إلى تعريف مشاركة المرأة في الاحتجاج على أنها انتهاك للأعراف الدينية. سخر المتظاهرون من هذه التصريحات من خلال شعار: "لا مو عورة صوتج ثورة". إن الوجود الواضح للمرأة في المظاهرات وساحات الاحتجاجات في مثل هذا السياق هو أمر تمردي، وهو تحد للممارسات والأعراف الجندرية السائدة.

ومع ذلك، على الرغم من هذه الأمثلة الواضحة للمعارضة القائمة على الجندر، فإن معظم النساء المشاركات في الانتفاضة لم يدافعن عن أجندة نسوية واضحة أو يؤطرن مشاركتهن على أنها تعامل مع مخاوف خاصة بالجندر. كيف نفهم المشاركة المكثفة للنساء في انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر إلى جانب غياب أجندة تركز على النساء؟ هذا ليس خاصاً بالسياق العراقي، في الواقع كما حللته نرمين علام، كان كذلك خلال انتفاضة 2011 المصرية[31]. تستخدم علام مفهوم "إطار العمل الجماعي" الذي تم تطويره في تحليل الحركات الاجتماعية لتحليل عملية التعبئة الجماعية للأفراد إزاء المطالب المشتركة. وتجادل بأن غياب قضايا الجندر من "إطار العمل الجماعي"

[31] See Allam, Nermin. 2017. *Women and the Egyptian Revolution: Engagement and Activism during the 2011 Arab Uprisings*, Cambridge University Press.

للنساء المصريات لم يكن علامة على الإكراه أو السلبية أو النشاط المضلل، بل كان بالأحرى نتيجة لإطار من الصدى (وهو في حد ذاته نتيجة تأطير موروث) والفرص السياسية والتجربة الذاتية للنساء خلال 18 يوماً من الانتفاضة. وتشير نرمين علام أيضاً إلى أن الفاعلية غامضة حتماً وغالباً ما تنطوي على جوانب متناقضة لا يمكن فصلها بسهولة. إن مكانة النساء ومصالحهن ومطالبهن وهوياتهن ليست ثابتة، بل يتم تجديدها باستمرار عندما تتفاعل النساء مع المشاركين الآخرين ويتفاوضن على الهياكل والعلاقات المعقدة.

وتشير علام إلى أن الشعارات الموحدة للانتفاضة المصرية ليست فقط لا مبالية بالجندر ولكنها أيضاً "عديمة اللون" بمعنى أنها تصور سردية وطنية تنحي جانباً الاختلافات العرقية والجنسية والطبقية والدينية. بالنسبة إلى نرمين علام، يجب فهم تأطير النساء لمشاركتهن في انتفاضة 2011 ضد هذا الخطاب العام الموحد. في حين أن تسييس الاختلافات العرقية - الدينية، خاصة بين الأغلبية السنية المسلمة والأقلية القبطية يختلف اختلافاً كبيراً عن سياسات الهوية العرقية والدينية والطائفية في العراق، فإن التركيز على توحيد الشعارات الوطنية أمر شائع في كلتا الانتفاضتين. في الواقع، كلتا الانتفاضتين لا تعملان على تعبئة هويات طبقية محددة، وتخلطان بين الطبقي والعرقي والطائفي والجندري في إطار "الوطن". وهكذا، لم تتجاهل المتظاهرات المصريات والعراقيات أجندة تركز على النساء فحسب، بل أيضاً أي أجندة خاصة بطبقة أو هوية محددة. في العراق، يشير شعار الانتفاضة "نريد وطن" إلى هذا الرفض وخيار التجمع حول شعار موحد يعزز مطلب مشترك بدلاً من سلسلة مطالب محددة. في حالة العراق أكثر من الحالة المصرية، يشير مصطلح "الوطن" الذي يُنادى به ويُؤدى في ساحات الاحتجاجات إلى تجربة مجتمعية في مداواة صدمات العنف المسلح والسياسي. إنه رد فعل على السردية الجنس-طائفية المثيرة للانقسام وسياسات المؤسسة السياسية.

وبهذا المعنى، يصبح "الوطن" نقيض الجنس-طائفية، وما هو مناهض للجنس-طائفية، وبهذا المعنى يمكن فهمه على أنه يتحدى الأعراف الجندرية دون أن يكون خاصاً بالجندر. أشاد المتظاهرون بالتنوع العمري والجنسي والطبقي حيث إن ساحات الاحتجاجات تشكل فضاءات يلتقي فيها العراقيون ويجتمعون للتفاوض على "عقد اجتماعي". إن النساء اللواتي شاركن في الانتفاضة يأتين من خلفيات متنوعة: من الأم غير المتعلمة في منتصف العمر التي ترتدي عباءتها السوداء وتطبخ للمتظاهرين إلى الطالبة المثقفة من الطبقة الوسطى التي تقود النقاشات حول إصلاح قانون الانتخابات والشابات من العائلات المحافظة واللواتي يتحدين قواعد الملبس السائدة. وتشترك جميعهن في فضاء مشترك، ويضعن الاستراتيجيات وينظمن الاحتجاجات الأسبوعية.

منذ بداية انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر، قُتل أكثر من 700 متظاهر أعزل، معظمهم من الشباب، بالرصاص الحي أو قنابل الغاز المسيل للدموع التي استخدمتها قوات الأمن العراقية والميليشيات التابعة لها، وهناك أكثر من 25,000 جريح ومئات المختطفين والمفقودين. وقد زاد العنف المميت والترهيب من تصميم المتظاهرين: فسرعان ما أصبح تكريم شهداء الثورة أحد شعاراتها الرئيسية. وكان صفاء السراي من أوائل الشهداء والشخصيات المهمة في الاحتجاجات، وهو "ابن ثنوة" في إشارة إلى والدته ثنوة بدلاً من الإشارة إليه على أنه ابن والده. أصبح "ابن ثنوة" الآن اسماً شائع الاستخدام لوصف الثوار وتشير العديد من ألقاب المتظاهرين إلى أمهاتهم بدلاً من أسماء

آبائهم. يوضح هذا المثال أن الانتفاضة لم تنتج فضاءً مادياً وخطابياً فحسب، بل أيضاً فضاءً خيالياً يتحدى التمثيلات والممارسات الجندرية السائدة.
في التجارب الفردية والجماعية المتنوعة والغنية في ساحات الاحتجاجات، تجاوزت الانتفاضة المطالب السياسية الضيقة، ولم يشكك الثوار في القمع الاقتصادي والسياسي الذي يُمارس من خلال الفساد والمحسوبية والتمييز فحسب، بل شككوا أيضاً في النظام الاجتماعي والمجتمعي للنظام وهي القواعد التي تفرض أسلوب حياة معياري ومحافظ. يطالب المحتجون العراقيون بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية، وخدمات حكومية فاعلة مثل الرعاية الصحية والتعليم والإسكان والتوظيف وما هو مطلوب لعيش حياة كريمة. كما يطالبون بالحرية، حرية ألا يُقتَلوا بسبب الدين أو الطائفة التي ينتمون إليها أو يرفضون الانتماء إليها، وحرية التدين أو عدم التدين، وحرية أن يرتدوا ما يحلو لهم، والتنقل عبر الحدود الاجتماعية والطائفية وحرية الاختلاف.
تحت خيام قليلة مثل "خيمة نساء الانتفاضة،" نوقِشَت الأجندات النسوية التي تعالج قضايا معينة تتعلق بحقوق المرأة، بينما تحت معظم الخيام، تعتبر النساء أن الثورة تقوم بتغيير العراق بالفعل وأن تحقيق أهدافها سيفيد النساء إلى جانب الرجال. كما احترم الناشطون النسويون في مجموعات منظمة رسمياً أثناء تواجدهم في ساحات الاحتجاج الطبيعة غير الرسمية والمفتوحة للانتفاضة التي ترفض أي نوع من الانتماءات. إن تنوع مشاركة النساء، سواء كن يشاركن كأفراد أو كعضوات في مجموعات حقوق المرأة، واضح في عملية التعبئة لليوم العالمي للمرأة الذي يُظهر أن المصطلح المحدود "المرأة العراقية" المستخدم تاريخياً، غالباً من قبل الأجندات السياسية الذكورية، سواء كانت علمانية أو إسلاموية، يُستبدَّل في الواقع بمصطلح "النساء العراقيات" الأكثر شمولاً.

الخاتمة

اختارت النساء، جنباً إلى جنب مع الفئات الاجتماعية الأخرى في الغالب، الوقوف خلف الشعار الموحد "نريد وطن" للتعبير عن مطالبهن بنظام سياسي جديد قائم على المساواة مع المؤسسات العاملة التي تقدم الخدمات والوظائف والفرص. كما تطالب بالحرية الدينية والسياسية والعدالة للذين قُتلوا أثناء الاحتجاجات السلمية. هذه المطالب، المبهمة والعامة، جعلت من الممكن للنساء والرجال من خلفيات اجتماعية وأيديولوجية مختلفة أن يجتمعوا دون الاضطرار إلى التعامل مع قضايا أكثر إثارة للانقسام .هل فوتت النساء فرصة للدفاع عن أجندة تركز على النساء؟ كانت الانتفاضة، لا سيما في الأسابيع الأولى منها، "دراما اجتماعية،" وهي فضاء وزمان محددين[32] ينتجان انتباذات، وفضاء خطابي ومادي وخيالي سمح بتعبيرات اجتماعية تكون في المكان والزمان المعتادين موصومة أو مستحيلة. و من ثم، يمكن للمرء أن يجادل بأنها كانت لحظة مناسبة لطرح أجندة نسوية راديكالية.
في العراق وكذلك في جميع أنحاء المنطقة، لم تُترجم المشاركة الواسعة للنساء في النضالات القومية والمناهضة للإمبريالية في الأربعينات والخمسينات في تمثيلهن السياسي وحقوقهن

[32] Turner, Victor. 1975. *Dramas, Fields, and Metaphors*. Cornell University Press.

السياسية والاجتماعية. في الواقع، غالباً ما يتم دفع مطالب النساء جانباً لصالح المطالب التي يعتبرها الناشطون الذكور أكثر أهمية. كما أشار الكثيرون، فإن الخطابات المناهضة للاستعمار والقومية قد حدت في الواقع من أجندة حقوق المرأة إن لم تعارضها. هل انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر هي فرصة أخرى ضائعة على النساء لتقديم مطالبهن الخاصة؟ أولاً، كما أشارت نرمين علام في حالة الانتفاضة المصرية، فإن غياب ما هو خاص بالجندر هو "نتيجة إطار من الصدى"[33]. لقد عبّرت المتظاهرات العراقيات عن مطالبهن في الإطار المتاح لهن. إن فاعليتهن وتموضعهن، كما هو الحال بالنسبة لأي فئة اجتماعية أخرى، مبهم ويعتمد على سياقهن الاجتماعي والسياسي.

إن أهمية مشاركة النساء العراقيات في الانتفاضة هي نتاج لموقفهن المتقاطع، إذ يواجه الذكور العراقيون تحديات على أساس الطبقة والطائفة والدين وما إلى ذلك، وتواجه النساء القمع الأبوي بالإضافة إلى تحديات مماثلة. يتعين عليهن "المساومة مع النظام الأبوي" كما أشارت دنيز كانديوتي[34] والتفاوض داخل وضد الفضاء الاجتماعي المعسكر الموجود بالفعل والذي يسيطر عليه الذكور والمخصخص. وتسمح الدراما الاجتماعية والفضاء المحدد للاحتجاج، كما هو الحال بالنسبة للفئات الاجتماعية الأخرى، بالمشاركة بنشاط في نسج النسيج الاجتماعي للمجتمع. على هذا النحو، يمكن أن ينسجن فضاءً اجتماعياً غير أبوي يكون شاملاً وحراً وأقل تراتبية من حيث الطبقة والطائفة والجندر. جادل هنري ليفيفر، بأن الحركة الثورية ليست هي التي تنتج الفضاء ولكن انقطاع الفضاءات المنتبذة نفسها هي التي تخلق شيئاً مختلفاً وبديلاً عن القوة المهيمنة. وهكذا، فإن مشاركة النساء في الانتفاضة نفسها، في الواقع، في تعابيرها وتجاربها المتنوعة الفردية والجماعية، قد أنتجت فضاءً بديلاً للفضاء التناظري المعسكر والمخصخص والذي يهيمن عليه الذكور.

[33] See Allam, Nermin. 2017. *Women and the Egyptian Revolution: Engagement and Activism during the 2011 Arab Uprisings*, Cambridge University Press.

[34] Deniz Kandiyoti. 1988. Bargaining with Patriarchy. *Gender and Society* (2:3) pp.274-290.

الياء التي قتلت صاحبتها

أماني الحسن
مواليد عام ١٩٩٦ ، حاصلة على البكالوريوس بعلم الاجتماع من كلية الآداب جامعة واسط. تتركز اعمالها على النساء، ولا سيما في مجتمعات جنوب العراق، ونشرت مقالاتها في مواقع وصحف عراقية وعربية .

تتداخل الصور والأضواء أمامي، تتراوح بين ظلام ونور ساطع.. دوار يصيبني ممزوج بشعور غريب من الطمأنينة والهدوء. أُلملم شتات عقلي لمعرفة مجريات الأمور. أتحسس جسدي بهدوء. سائل معتدل الحرارة يغطيني. يداي تتركان مقود السيارة بتعب. تنتابني رغبة تذكّر لكل ما حدث لي منذ الصغر. أحاول إيجاد هويتي في تلك المحاولة. الذاكرة لا تسعفني. الأصوات من حولي عالية لا تساعدني على استحضار اوقاتي الماضية. الناس يزدحمون حول سيارتي. أميل برأسي نحو اليسار. أتطلع لرؤية تلك الفتاة الممسكة بيد والدها من نافذتي.. يبدو عليها الخوف والرهبة. كما لو أنها رأت شيئا لا يروق لها.
صورة الفتاة مع والدها تعيد لي ذكريات الطفولة بصورة سريعة؛ أتذكر والدي الغائب كثيراً في طفولتي لعمله كابتن بحري. حضورهُ المؤقت شكل جزءاً كبيراً مني ربما اكتسبت ملوحة كلامي من مياه البصرة التي تشبع بها ممزوجاً بحلاوة والدتي التي ولدت وعاشت في النجف. عند عودته من العمل يجلس معي على طاولة الطعام ويحدثني عن والده (يعقوب) التاجر الذي بفطنته استطاع ان يجعل اسمه مدوياً. شخصيته القوية الفارضة حضورها في كل مكان تتواجد فيه. قدرته على حل المشاكل وقيادة التابعين له وثقتهم به، خلود اسمه إلى الآن رغم وفاته منذ التسعينات. أرى الفخر يعلو عينا والدي وهو يتحدث عنه -هذهِ الطريقة التي يتم بها تذكر جدي. أردتُ يوماً أن يتحدثوا عني مثلهُ. حزمتُ أمري وقتها، شخصيتي ستكون قريبة من ذاكرة والدي لأبيه. في اللعب كنت القائد بصورة مستمرة، مُؤثرة غير مُتأثرة، أحل مشاكلي دون تدخل أهلي. وضعت حاجزاً بيني وبين الكل وتعاملت معهم على أنني مستقلة وقوية ولا أحتاج أحدا. تميزتُ بطباعي عن باقي إخوتي. ولدتُ الثانية في التسلسل العائلي مع ثلاثة إخوة وأخوات، إلا انني دوماً شعرت أني الأكبر سناً.
شيئاً فشيئاً أصبحت شخصيتي مختلفة عن أقراني وأهلي لدرجة حيرتي في الأمر: هل أنا فعلاً قوية أم تأثري بصورة جدي ترك مفعوله عليَّ؟ بدأت الأمور تختلط عندي حتى بت لا أتذكر هل فعلاً جرى هذا الحديث بيني وبين والدي أم لا.
ما زلتُ في مكاني أنظر من نافذتي إلى الشارع.. شوارع البصرة.. كم أحب شوارع تلك المدينة: البصرة، أو كما أحب أن أطلق عليها سندريلا العراق، الفتاة التي جرى عليها الزمان وظهرت ملامح الفقر في وجهها.
بسبب أولئك الذين طمسوا هويتها الحقيقية الغنية وسلبوا كل مواردها، لكن الناظر الجيد إليها يعلم أنها بنت الخير، وأن بدت سحنتها بائسة.. دائماً ما علمتُ في داخلي أنني أنتمي لها حتى في خرابها، لذا قررتُ توطيد علاقتي بها في عام 2015 من خلال السير فيها ومعرفتها أكثر لكسر الخوف بيننا حتى تحتضني وتحميني لآخر لحظاتي كما احتضنتني في ولادتي عام 1990. حفظتُ

شوارعها وشطها والأماكن القديمة فيها، رأيت البصرة في وجوه بسطاء الناس، علمت أن البعبع الذي حاول الكثير تخويفنا منه ليس موجوداً والناس ما زالت تبتسم وتستغرب لرؤية فتاة تسير وحدها دون أن يتطفلوا عليها. الخوف الذي شكل ركيزة وجودنا كنساء ليس موجوداً، وأعني به: رهبة الوجود منفردين دون الآخر. رأيت الكثيرات مثلي. شعرتُ بقيمة ما أمتلك ومدى جماليته. القوة التي تجذرت بي لم تكن عادية، هي مزيج من الحرية وانعدام الخوف من الآخر، حتى مشاعري تغيرت، يقيناً أدركتُ أن البقاء وحدي ليس مخيفاً ومن يتقبلني فليقبل بي كما أنا دون محاولة زجي في أسوار حياته وتذكيري بالوحوش التي في الشارع. أصبح عملي يحتل قائمة أولوياتي والحاجز الذي لا يمكن تجاوزهُ لغرض كسبي. تجربة التواجد في الشارع علمتني عني أكثر وأخذت عمقاً آخر لم أكن أتخيلهُ. بدأت ملامحي تتغير وكأني أكتسب هيئة المدينة أو ربما لم ألاحظ من قبل كم أشبهها في وجهي المتبسم وطولي المتوسط ولهجتي البصروية أو حتى طريقة السير عندي التي انتبه لها من حولي وأخبروني أنني أسير ضاربة الأرض بقدمي وكأنني أعلن بطريقة ما عن وجودي.
البصرة من المدن التي دائماً ما ترمي بثقلها العاطفي علينا لتذكرنا كم نحن ننتمي لها. ملامحها الشبيهة بالاحتضان الأمومي لأبنائها. رائتحها الممزوجة بالدفء والحنان. الأم التي تقسوا كثيراً حتى تغادرها لكنها تبقى على عتبة الباب حتى يسيطر الحنين عليك وتعود. تلف ذراعيها حولكَ جاعلة منك جزءاً منها مهما غادرته لن يغادرك. إنها لعنة.. لعنة جميلة ومؤذية.. لم أعرف مدى عمق تعلقي بالمدينة إلا عندما شعرت بم أنا مستعدة للتضحية به من أجلها.
ربما يكون أهل مدينتي قد فقدوا معظمهم الأمل بالتغيير بعد محاولات عدة انتهت كلها إلى خيبةِ واقعٍ كل عناصره تؤدي إلى نتيجة "لا شيء يستحق التضحية"، واعتادوا على أن صراخهم لا آذانٌ تسمعه، لذا قرروا الاستمرار كأموات يعيشون دون الشعور بالانتماء أو الحب لها، وهذا ما يُسمّى بمهارة العيش لتجنب الواقع، خدروا كل أحاسيسهم في سبيل التعايش ومُسايرة الرّوتينيّات واقتنعوا أن ليس في أيديهم سوى القناعة والرضا. هذا الشعور نتيجة لسنوات من تغريب ذات تمت ممارسته عليهم للانفصال عن واقعهم حد فقدان الشعور بهِ. لكن ما كان يعز عليّ أن الانفصال المستمر عن المدينة قد جعل هويتها تتلاشى وربما جعلها آيلة للاندثار.. وهذا ما يظهر في كلماتهم الجوفاء الخالية من ملوحة البصرة وعمق الكلمات العاطفية التي ميزتها عن باقي اللهجات. كل ما كان يجعلها متفردة عن غيرها ذات يوم أصبح أحد اسباب دمارها. نعمتها استحالت إلى نقمة جلبت عليها الموت من كل مكان وشكلت معقل للنزاع لكسب أكبر عدد من الغنائم الممكنة. وبين هذا وذاك ضاع الكثير منها ومن مكوناتها وهويتها.

**

النعاس يتداركني. عيناي تريدان الانغلاق ولكنني أحاول تذكر الكثير في هذهِ اللحظة. الصور تزدحم في رأسي أحاول استعادة هويتي التي أعتز بها جداً. اعلم انني بنت البصرة.. بنت عائلة تنتمي لقبيلة الأمارة ولدتُ متى! لكن هويتي انا.. اسمي وعملي ومن أنا تلك التفاصيل مشوشة.. أحاول أن أفتح عينيي وأبدأ بالتذكر!

**

أتذكر أنني نلتُ شهادة البكالوريوس في التربية البدنية وعلوم الرياضة من جامعة البصرة في عام 2013 وحصلت على وظيفة في مجلس محافظة البصرة/ لجنة الشباب والرياضة. وظيفة تشكل حلمَ الكثيرين لتحقيق أمن اقتصادي وشعور بمستقبل مضمون في واقع غير مضمون، لكنني مجازفة إلى حد التهور فتركت الوظيفة لأن تلك الحياة التي يسيطر عليها الملل الوظيفي لم تكن جزءاً من أحلامي. عملتُ بعدها مدربة في نادٍ رياضي ثم حصلت على الماجستير في التدريب الرياضي، والآن في فترة تحضير الدكتوراه أمتلك الكثير من الشهادات الفخرية في مجالات عدة وقدمتُ برنامج إذاعي حول الصحة.

اسمي نعم تذكرتهُ.. رِهام بكسر الراء لا بكتابتها... لا أحب كتابة اسمي بكتابة الياء لأنني اعتبرتُ الياء كنزي الثمين.. هذا الحرف العظيم الذي بإضافته تتغير معادلة الكلام. من كلام عادي إلى تملّك وفخر.. مدينة عندما تنطقها تكون فارغة لكن عند قول مدينتي أنت تضيف ذاتك عليها. حبك لها. شيئاً فيك يتشكل في تلك الياء ويمتلك الكلام. إن حذف الياء من اسمي والاحتفاظ بهِ ثم اختيار كلمات قليلة ولكنها كبيرة عندي لأضيفها عليه كان يجعلني أشعر بأنني أضيف إلى نفسي.. من وجودي ومن يائي المخبئة بداخلي على تلك الكلمة. في كل مرة كنت أقول مدينتي ـ فخري كان هناك شيئاً ما يخرج مني ويظهر في الكلام وهذهِ كانت الياء التي لا أحبذ أن تكتب باسمي، لكنني أحب إضافتها في القليل من الكلمات التي أشعر أنها تنتمي إليّ وأنتمي لها. مثل كلمة (عائلتي) الياء هنا كانت مضافة للتعبير عن الشعور بالدفء والانتماء والفخر، كانت ياء مستحقة لأهلٍ دعموني بكلِّ خطواتي، عائلة تفتخر بنسائها، تمدهن بالقوة والثقة الكافية لتحقيق أحلامهن.

أحب إطلاق كلمة (مملكتي) على النادي الرياضي الذي عملت فيه بالشراكة مع آخر ثم بعد سنوات أنشأت النادي الخاص بي.. وهنا الياء تعبر عن التملك النابع من القدرة على إدارة مملكة كاملة بكل ما تحتاج من قوة للسيطرة على أفرادها وكسب قلوبهم وتأسيس قواعد مستقلة عن أي مكان آخر. هذهِ كانت المرة الرابعة التي استخدم فيها الياء. ياء استغرقت مني تعب سنوات عديدة وصراعات كثيرة تخللها الكثير من الشعور باليأس والقوة ومحاولات عدة لاغتيال الأمل في مخيلتي.. الياء التي استخدمتها ياءً فخرية تعبر عن اعتزاز ما وصلت له بعد رحلتي الطويلة، أما نساء النادي فأُطلق عليهن لقب (جيشي) لأنهن مؤمنات بي كقائد، وأنا أثق بهن كقوة أمتلكها وأعتمد عليها لتمدني بالشجاعة إن فقدتها يوماً.

حبي للمدينة وحبي لنسائها جعلني أحول عادتي في السير إلى طريقة حياة تمارسها النساء، لذا أخذت أعداداً كبيرة منهن لممارسة المشي في شوارع البصرة لأعبر عن روح البصرة المتمثلة فيهن، ولأذكر المدينة بما تملكه من قوّة حاول الكثير إخفاءها في البيوت وحصر دورها فيه، كسرت النمطية المعتادة لما تألفه العيون في الشوارع، أعني وجود أغلبية ذكورية فيه وبالطبع ليس على حساب غضب أهالي البصرة بل من خلال الفوز بثقة أهل النساء اللواتي معي وبطريقة لا تثير حفيظتهم. استطعنا كسب محبة الناس وقبولهم ومارسنا المشي لما يقارب خمس سنوات.

**

أحاول أن أتذكر مشاعري كيف كانت. لا أتذكر شيئا ولا أشعر بشيء الآن. لا سعادة ولا حزن ولا يأس. شعور بالطمأنينة والرغبة في شيء ما.. أجهل ما هو. الأصوات تزداد علواً. صراخ يكسر كل الهدوء الذي أجبر نفسي على الشعور بهِ. هذهِ الأصوات العالية تذكرني بشيء ما. بصراخٍ قد مارسته يوماً وما زالت حنجرتي تؤلمني بسببهُ. صراخ أشعر بحدتهُ إلى الآن. أحاول التذكر ولا شيء يسعفني على تذكرهُ.
**

الصور تتوالى على عقلي بطريقة مشوشة. الأمور تبدو ضبابية. احاول أن التقط صوراً متفرقة من المشهد. أقف بين الحشود وأصرخ هذهِ مدينتي وهؤلاء إخوتي أتذكر أن (جيشي) أو النساء اللواتي كن معي طلبن أن نذهب للتظاهرات التي حدثت بسبب ارتفاع نسبة الملوحة في البصرة ولأنني كنت مؤمنة بما يتكلمن به وكنت أساندهن في التظاهرات وأنقل الأحداث يومياً للأشخاص المتابعين لأخباري، إلا أنني لم أرغب في توريط النساء معي.. ولكن بعد طلبهن قررت أن أقود مسيرة نسوية لمساندة الشباب في البصرة. خرجتُ في التاسع من أيلول / سبتمبر عام 2018 وهو اليوم الذي صادف أن تكون خطوبة أخي الأكبر فيه؛ ولأنني بين واجب عائلي وواجب وطني اخترت واجبي الوطني أمام جيشي وأهل مدينتي وتركتُ المناسبة التي تمثل حلم أي فتاة برؤية أخيها وهو يعقد قرانهُ. ثقل الياء ووعدي لنساء مملكتي كان أكبر من أي عاطفةٍ أخرى.
تعود الرؤيا ضبابية. أحاول تذكر ما حدث يومها ولفشلي المستمر بالتذكر أدعو الله أن يجعلني أتذكر هذا اليوم وأنسى ما سواه. إنني أرهن وجودي على هذهِ الذكرى وكأن شيئاً يخصها ولا يخص سواها.. بعد فترة لا أعلم إن كانت طويلة أو قصيرة، إلا أن كل شيء بدأ يصبح واضحاً.
أرى نفسي وكأنني لستُ رِهام. أخرج نفسي بغير طواعية عن ذاتي وأرى المشهد وكأنني لست منه. أقف في ساحة كبيرة والناس حولي يصرخون. أرى الكل ولكنني غير مرئية. فخورة بنفسي التي أراها بين الجموع. بهيبة قائد وبحدة محارب وبأصوات عالية أقود أكبر مسيرة نسوية في البصرة. أتقرب من مجموعة شباب واسمع همساتهم يتساءلون عن هويتي ومن أنا وكيف استطعت قيادة هكذا عدد من النساء لم يعتقد الكثير أنهن موجودات. نظراتهم ملؤها فخر وأحاديثهم تدور حول شعورهم بالاستغراب الممزوج بالفخر. زرعت هذهِ المسيرة الأمل في نفوس الشباب لشعورهم بأن نساء مدينتهم معهم في هذا المعترك الصعب وكسرت إحساس الوحدة المسيطر عليهم. بدأوا يتشكلون كحلقات يحاوطونهن لمنع أي شخصٍ تسول له نفسه أن يتجاوز على حرمة أصواتهن وأجسادهن.
أراني في لقاء ويطلب مني الحديث عن التظاهرات وعند البدء يصبح صوتي أكثر حدة وقوة. أروي ظلم (مدينتي) مشددة على ياء التملك خلال حديثي. يعلو صوتي تارة ويهبط تارة أخرى. أشعر بشجاعتي كما لم أشعر بها من قبل. الأمر عصيٌ على الفهم لكنهُ أشبه بصخرة تحط على صدرك تشعر بثقلها لسنوات حتى تصبح جزءاً منك تزيدك ثقلاً وهمّاً. تعتقد الخلاص منها مستحيل وقدرك أن تظل تحتها، راضخاً لواقعها. وفي لحظةٍ واحدة تدرك مدى وهميتها ثم ترميها عنك لتصرخ كما لم تفعل من قبل. تشعر بالقوة غير المحدودة.. قوة قادرة على هدم أكثر الأصنام قوة وقدم وتعيش لحظة.. لا تفنى.. لحظة حرية واحدة. في هذهِ اللحظة بالذات لا يعود الموت يملك

ذات الرهبة وليس مهماً أن تثبت للآخرين مدى عبثية الحياة دون شجاعة لأنك تحرق كل القيود التي وضعت حول رقبتكَ لتتحكم بكَ في سبيل التحرر من الخوف الذي طالما الغى معنى الحياة عندكَ حتى أصبح الموت خلاصك الوحيد. تدرك أن لحظة حرية واحدة وأن عبدت الطريق نحو موتكَ إلا أنها تستحق.
لم أكن فخورة فقط بما رأيته عني بل بما يحيطني. هذا الصراخ والشجاعة التي وفق ما أؤمن بهِ هي أكبر دافع للحياة وأن افتقار هذهِ الشجاعة مبرر كافٍ لسلب كل ما يضيف معنى لها؛ لذلك السبب تحديداً كنت فخورة بلحظة الحرية التي عشتها ورأيتها بعيون الشباب. لحظة صراخ صادقة ضد الظلم لا تفنى ولا تلغيها أكثر القوى تسلّحاً.. صراخ صريح غير مجامل وغير قابل للشراء أو حتى المفاوضة على حقوقهِ. ليس صراخ مزعج بل صراخ يعلن عن ولادة جديدة.. صراخ يبشر بالقادم ويحمل معهُ أملاً بالتغيير.. صراخ تجاوز الحدود حتى وتسبب بإزعاج من يخشون الولادات ويرغبون بجعل البلد عقيماً عن إنجاب أي كائن سوى كائنات مفصلة حسب رغباتهم.
هذهِ الأصوات تذكيراً لهم مهما كانت جهودهم دؤوبة لكتم كل أصوات الحق وتكبيل كل الأفراد جسدياً وعقلياً وقتل كل روح راغبة بالتغيير.. شيء غير متوقع سوف يذكرهم بعجزهم ويخبرهم أن لا قيود للأحرار ولا خطط لصراخهم ولا تسييس لعقولهم. وإن القيود الجندرية التي عملوا على وضعها لسنوات تلغى بسهولة عند الأحرار الذين يمتلكون المعاناة نفسها. كان هذا الإلغاء يتناقض ما يريدونه لهذا البلد، بلد مليء بالأموات السائرين الكارهين المختلف عنهم فكرياً وبايلوجياً، يأكلون بعضهم بعضاً بالكلام والنقد ويختلقون الأسباب اختلاقاً لإثارة حرب بينهم ويصرخون بأصوات مرتفعة فرحاً بإنجازات وهمية تحت مسميات قبلية مذهبية خالية من كل معنى، ليشاهد القتلة الحقيقيون هذهِ الحرب من زجاجهم المظلل، وكل من ينتبه على واقعه ويرغب بكسر الواقع يردونه قتيلاً ويعاودوا الجلوس على كراسيهم ويستمتعون بمشاهدة الموت من خلف الزجاج.
على عمق هذهِ الذكرى أستعيد وجودي.. أستجمع شتاتي من فتات الذاكرة.. أستعيد توازني وأنجو بهويتي التي خفت أن يلغيها ما يحدث لي. رغم إصرار من وضعوني في هذا الموقف على أن أفقد نفسي، لكن هذهِ الذكريات هي الجزاء المنطقي لعمق ما أملك من مبادئ. أشعر الآن كما لو أن حياتي شريط يدور أمامي ويعرض ما حصل لي.
ما حدث بعدها هو النتيجة الطبيعية لمن يواجه هؤلاء غير المنتمين بقوة حبه لهذا البلد. إن قدر الذين يعشقون هذهِ الأرض بكل سيئاتها أن يتواروا في ترابها قبل الأوان.. ثم يحيون في كلّ ذاكرة.
كنت على يقين أن للموت موعد معي لذلك أخبرت كل من حولي بعدم خوفي من التهديدات التي تأتيني. عندما لم تؤثر تهديداتهم بالنتائج المرجوة قرروا استعمال السلاح الأكثر ابتذالاً: التشويه، الطعن بالعرض والانتماء، أعدّوا جيشهم وحاكوا المكائد وكتبوا المقالات التي من شأنها أن تسيء لي. نشروا لي صوراً مع السفير الأمريكي في إحدى المناسبات في يوم المرأة العالمي.. مناسبة مدعومة حكومياً لكن مع التظاهرات التي قمت بها تم التشكيك بانتمائي وشرفي. حرب بلا شرف الخصومة. كنت أستطيع الهرب لكنني رفضت لأن في طيات الهروب أعتقد أن هناك اعترافاً بذنب لم ارتكبه. ورغم أنني كنت أخطط للخروج من العراق واتخذت من اسم جدي اسماً ثانياً وعرفتُ نفسي بهِ كما يحدث في دول الخارج، لكن قرار الخروج كنت أريد اتخاذه دون شعور

بالتهديد أو الإجبار، بل قرار نابع من رغبة في التغيير وحب في رؤية العالم بأكثر من طريقة وبأكثر من مكان. لكن مع هذا الهجوم لم أفكر بالهرب بل قررتُ البقاء ومواجهة تبعات الصراخ في هذا البلد. عشتُ في تلك الفترة أصعب اللحظات. ليست لحظات خوف بقدر ما هي لحظة تصادم مع المجتمع. شعرت أن الكثير من أفراد المجتمع سوف يرضخون لما يسمعونه إذ ما خالف معتقداتهم. رغم كثرة المساندين إلا أنني لا أنفي شعوري بالخيبة في الكثير من الأحيان. كانت تلك الفترة الحزينة التي عشتها قد أنضجتني بما يكفي لأتوقف عن سد أذنيّ عن الحقيقة.. حقيقة أن ما نعيشه هو جزء مما نختاره أو ما نفكر بهِ. وما حدث كان نشوة حلم جنوني بعيداً عن المنطق المشرع في هذه المدينة، أوسع من كل مساحات الواقع المؤلم، لقد حلمت بواقع أفضل، واقع قابل للتغيير لكنه لا يقاس بالقدر ولا بالظروف ولا بالحقيقة! حلم قادر على أن يقتلك لأننا في بلد لا يرضخ للأحلام ولا يؤمن بها. كنت أدرك ذلك لكنني لم أكن موقنة تماماً وشتان ما بين إيمانك النابع من رؤيتك الوردية للعالم وبين الواقع الذي تعايشهُ وتصطدم بهِ. لقد كان حلماً.. توقف في المنتصف واستبدل بالواقع الذي يجبرنا على مشاهدة مدى تعاسة الحياة.
نعم لقد تغيرت كما لو أن شيئاً ولِدَ بداخلي لم أكن أعرفهُ. قررت المضي قدماً بحربي الخاصة. حرب بعيدة عن معتقدات وسياسات الآخرين. آمنت وأدركت أن الحرب الحقيقية هي حرب النساء وأن أي تغيير في المجتمع لا يأتي إلا من خلال تقوية الطرف الذي يحاول الجميع إضعافه، لبة المجتمع وعمودهُ. مركزي الرياضي لم يكن مجرد مركزٍ يقوم على تغيير واقعهن الصحي الذي يؤدي بالتأكيد لتصالح مع الذات وحبها أكثر بل تقويتهن أكثر، تذكيرهن بما يمكن للنساء أن تقوم بهِ، مساندتهن للموازنة بين الحياة العملية والعائلية، تساهلت مع أغلب النساء ذوات الدخل المنخفض ولم أطلب منهن شيئاً لأن حربي كانت أكبر من مجرد أمور مادية، واستطعتُ تحقيق الكثير. في عام ٢٠١٩ تم اختياري كأكثر النساء تأثيراً، وبداية عام ٢٠٢٠ بعد أن كنت شريكة في نادي رياضي استطعت بمساعدة أهلي وما أمتلك، أن أفتتح النادي الخاص بي (مملكتي الخاصة)، كانت أيامي تدور حول تقوية النساء في مملكتي وممارسة المشي معهن، عملي هو أكبر دافع لي في الحياة، مملكتي التي زينتها بياء التملك و(جيشي) النسوي هو ما تمحورت حياتي من أجلهِ، وعندما اجتاحت كورونا العالم وأصبح الكل منشغل في كيفية تجاوز هذهِ الأزمة، أغلقت النادي قبل طلب الحكومة لأني أشعر بمسؤولية تجاه العالم من حولي. بعد أن اغلقت النادي بدأت بمشروعي القائم على التدريب عن بعد، ليست كورونا هي دافعي الوحيد في التدريب الأون لاين، بل رغبتي بالوصول إلى جميع النساء وخصوصاً اللواتي يمتنعن بسبب ضغوط مجتمعية أو إمكانية عن الحضور في النادي، وفي الوقت الذي كان العالم يتنافس فيهِ على الكره والموت والتقتيل -وهنا لا أقصد فقط التقتيل بمعناهُ الدموي بل التقتيل من حيث إطلاق أكبر كمية من المشاعر السلبية وبثها في أرجاء العالم لقتل أي جمال- كنت أنافس قبح العالم لجعل الواقع أفضل.
أما على الصعيد الشخصي كنت في فترة التحضير للدكتوراه، أنام في الثامنة ليلاً وأستيقظ في الرابعة صباحاً. أبدأ بالدراسة ثم أذهب للمشي أو للجامعة بعدها للنادي الرياضي وأعود في المغرب، أتناول العشاء مع أهلي وأتناقش مع أخي حول السيارات والتكنولوجيا ومع عائلتي عن الحياة بالمجمل وكل النقاشات كانت بعيدة عن أي شيء يذكرنا بمدى سوء ما نعيش فيه. عملتُ على تحقيق أحلامي البسيطة والكبيرة، كنت أريد شراء مجموعة ملابس ماركة من لندن ففعلت،

خططت لافتتاح نادي رياضي للرجال ولكنه كان مجرد فكرة تختمر في رأسي لم تظهر إلى الواقع. لم أعر اهتماماً لكل التهديدات التي تخللت سنتي ٢٠١٩/٢٠٢٠. لقد كنت أعيش حياتي بوتيرة متسارعة دون أن أنتبه حتى إلى من يحاول تقييدي وجعلي أخفق. أمنياتي تتضخم وتزداد نضجاً يوماً بعد يوم. تأثيري يكبر كلما مر الوقت. تأثير واضح وقوي ليس لحظي فقط. اعدت ترتيب نفسي على الصعيد النفسي، عاودتُ تشذيب الياء الخاصة بي والتي لا أطلقها على ايٍّ كان. الياء التي رفضت أن أعطيها لرجلٍ لا يؤمن بي وبأحلامي، الياء التي رفضت أن أعطيها لصديقات لا يستحققن تلك الكلمة، عاودتُ تغيير حتى الحوارات التي استخدمها كثيراً، بالإضافة إلى كل ذلك كنت استمر بصورة دورية بالتبرع بدمي، لأنها صحياً خالية من أي موادٍ مضرة ولا آكل أي شيءٍ مضر، ولأنني أشعر بأن تبرعي بالدم كان يجعلني أحس بالآخرين أكثر ويحسون بي، أن يستلهموا من خلال العاطفة التي في الدم الكثير من الحب لهذهِ المدينة، يشعرون بالانتماء إليها أكثر. فعلت ذلك لعشرات المرات، حتى بتُ أشعر بحميمية تجاه كل الذين أقابلهم وهم غرباء عني. أشعر بأني في داخل الكثيرين.

**

طوال الدقائق الماضية وأنا أعيد تذكري لحياتي بعيداً عن الواقع أو هرباً منه ومن كل ما قد يلقيني في دوامة التساؤل عن أسباب استقرار الرصاص فيّ.. ولكن هرولة الثواني ورؤيتي للحياة بطريقة وداعية تجعلني أتساءل عن السبب الذي يدفعهم لمنعي من العيش؟ ما هذهِ القدرة على قتل كل شكل للحياة؟

ربما لأن قتلي هو طريقة رمزية لقتل كل ما يرتبط بالثورة والنساء والجمال وربما قتل للغة التي استعملتها؟

قتل كل من يصرخ ضد الظلم أو من يفكر أن يفعل ذلك. قتل لكل من يخرج من غيبوبتهِ ويهدم جدار صمتهِ ويحاول كسر الزجاج المظلل الذي ينظر من خلالهِ قتلة الشباب ويستمتعون بمشاهد الذبح والاقتتال بين أفراد الشعب ليرى الناس من هم خلف الزجاج ويتعرفوا على هويتهِ ويوجهُون غضبهم باتجاه القتلة الحقيقيين. قتل ممنهج ضد الذين يعرفون حقيقة الواقع. واقع أن كل شيءٍ ما زال بأيدينا لكن تم سلب شعورنا بامتلاكه. قتل لكل ما هو نسوي يلغي مفهوم التفريق الجندري ويضع حدوداً للنساء وأقناعهن بمحدودية قدرتهن على تحقيق أحلامهن في مجتمع رافض لوجودهن. هذا القتل هو قتل لكل رغبة تنمو في داخل النساء في تغيير وضعهن ووأد أحلامهن في تراب الواقع الذي يبقيهن مشغولات بكل ما لا يمت للتطور بصلة. قتل لكل مفاهيم الجمال ولكل مظاهر الحياة التي تذكر الناس بقدرتهم على صنع وطن يتمنونه، ويدوسون الضعيف المنزوي، ويسعون -كل السعي- لتشويه كلّ من يُحاول أن يرَى الحياة أجمل؛ وإذا خرج من محاولتهم بتشويه الواقع أردوه قتيلاً لأن في استشعار الجمال أيضاً تهديد للواقع المأساوي الذي يحاولون فيهِ قتل كل رؤية جمالية للواقع. ولأن من يتحسسه سوف يتحسس المساوئ لذا سوف يشير إليهِ ويذكر الناس بهِ وهو ما لن يرضى بهِ القتلة. وأعتقد أنهُ قتلاً للغة التي استعملتها، لغة كانت مليئة بالتفاؤل والقدرة على جعل الواقع يسير وفق ما أرغب. كان القتلة يعرفون قوة اللغة التي استعملتها، لغة بسيطة ذات ملامح بصروية، سريعة الوصول إلى المتلقي دائماً مختومة

بـ(الياء) التي تعبر عن أسمى معاني الانتماء والتملك والفخر. هذهِ اللغة شكلت مصدر قلق وخطر مستقبلي سيقع لا محال لأن للغة قدرتها على تجاوز كل الحدود. كانوا يعلمون مدى قوة (الياء) المضافة لمفرداتي، لذا عندما هددوني لم يكن تهديد لأنني شكلت مصدر قوة للشارع البصري المنتفض فقط، بل مصدر لقوة نسوية حاولوا لسنوات كبحها وخلق مئات الجمل التي من شأنها أن تجرم ـي اختلاط بين الذكور والإناث لأن في اختلاطهم قوة سوف تنشأ، قوة نابعة من الأمان الذي يشكله الرجال في وجودهم مع النساء للمطالبة بحقوقهن، وشعور بانعدام الوحدة في الوقوف ضد السلطة والذي يستمده الرجال من وجود النساء بصورة مستمرة معهم. كان تهديداً لليـاء التي استعملتها، لذا حتى وإن لم أكن ضمن تظاهرات ثورة أكتوبر، إلا أن وجودي كفكرة بقي خطراً عليهم، يهدد سلامهم المبني على التغريب الذاتي لأفراد الشعب.

**

أُغمض عيني اشعر بدفء الدماء التي تغطيني، أنظر إلى العالم نظرة أخيرة، أتلمس معنى النعيم في مغادرتي للحياة، نعيم الخلاص من كل ما يشوه الواقع. أشعر كما لو أنني قلتُ كلمتي التي طالما رغبتُ بإيصالها، رسالة حب لكل ما ننتمي لهُ من مدينة وعائلة والأهم: الأحلام التي تفرض سلطانها علينا. أرغب في قول الكثير لكن صدقاً لا أعرف كيف أصيغ الكلمات لمن لم يجمعني بهم أيُ لقاء، ولم ألتقِ بهم، كيف أصف لهم أن امتلاك رسالة خاصة في الحياة تمكن المرء من تجاوز الزمن وتثبته على جدار الخلود. رسالتي رغم بساطتها إلا أنها عميقة ومؤثرة ومخيفة للكثيرين، ولعمقها قتلوا صاحبتها (قتلوني).

قتلوا (الياء) التي أرددها لأعلن انتمائي المستمر لما يحيطني. هذا الموت كان رسالة لكل من يرغب بإعلان رغبته في التغيير أو إعلان انتمائه أنه سوف يُقتتل أو يفشل في إيصال صوته ومفاد كل المحاولات هي (لا شيء)، وأن مصير كل من يمتلك (ياءه) الخاصة هو الموت، إن ياءً كالتي كنت أرددها تحتاج إلى شجاعة كبيرة.. شجاعة تفوق الواقع الذي يتم التخطيط بهِ لنا ويتم اقناعنا بهِ، لكن الياء التي كنت أرددها تعمقت وضربت بجذورها نحو أعمق أحلامي وظهرت في كل كلماتي وتسربت في كل دمائي. ياء لن تختفي بسهولة لأنها استمرت لسنوات طويلة في النضج، ياء وإن سقطت دمائي فما فات القتلة أن يعرفوه، أن دمائي في أجساد الكثير من أبناء البصرة، وإن قتلوني كفكرة إلا أنني سأبقى شعوراً في أجسادهم، سيفهمونهُ في الوقت المناسب، ياء تسكن الدماء تنتشر في خلايا شباب ونساء المدينة سوف تثور يوماً عليهم، لكن في هذهِ المرة تكون ياء مدوية تقتلع الجميع من جذورهم..

إن النعيم كان إدراكي أن وجودي هو رسالة استطعتُ تأديتها وما تلك الطمأنينة التي كانت تجتاحني منذ إطلاق الرصاص إلا نتاج لحقيقة أن صوتي وكلماتي ستبقى بعد رحيلي، أنهُ اطمئنان على استمراري في الحياة بعد الموت، الخلود الذي يسعى إليه الكل ولن يصل إليه سوى القلة.

**

أغمض عيني... أودع شوارع البصرة وأهلها ونخلها المتبقي. وجوه أهلها المحببة عندي. دفئها القاسي. أودع سندريلا العراق التي سوف تستعيد وجودها ولا تحتاج إلى أمير ينقذها، بل تسترجع مكانتها بقوة ما تملكهُ من المؤمنين بها. أستقبل حياة الخلود بطمأنينة أكبر، أستنشق عبير المدينة

لمرة أخيرة، تحتضني وتمسح جبيني وتعتذر لي عن تسرب رائحة دمائي لشوارعها، أحتضن الموت وأنا أكثر قوة لمعرفة أن من بعدي سوف يواصلون إحياء تلك الياء التي جاهدت طوال حياتي من اجلها ويعرفون أن الدولة لا تبنى بالدم والسلاح بل بالدم والحروف. وهبت كلماتي.. والآن دمائي..
لون أبيض يغطي كل ما حولي. سلام يعتريني ثم.. أهم بالرحيل إلى التاريخ.

- أُنجِزَ هذا النص بالاعتماد على شـــهادات من عائلة ريهام يعقوب، وعدد من أصـــدقائها المقربين. رفض جميع المتحدثين الإشارة إلى أسمائهم.

الاقتصاد كمحرك للاحتجاجات: فساد السلطة ومطالب تشرين

سلام زيدان
كاتب وصحفي مختص في الاقتصاد، ولد في بغداد عام 1989، يحمل شهادة بكالوريوس إدارة أعمال من جامعة بغداد، وكتب لعدد من وسائل الإعلام المحلية والدولية مثل "المونيتور"، و"الجزيرة نت"، و"السفير العربي"، وترأس تحرير وكالة "الاقتصاد نيوز".

لا يُمكن فصل حركات الاحتجاج التي شهدها العراق بعد الغزو في نيسان / أبريل عام ٢٠٠٣، بمعزل عن السياسات الاقتصادية التي اتخذها النظام السياسي الجديد الذي تشكّل على أنقاض دولة البعث بقيادة صدام حسين. ومثّلت لحظة انطلاقة تظاهرات تشرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٩ نقطة فاصلة لتعرية ونقد السياسات الاقتصادية للحكومات المتعاقبة بعد سقوط نظام البعث.
في هذا الفصل، أُحاول تقديم رؤية عن السياسات الاقتصادية للحكومات المتعاقبة على حكم العراق منذ عام ٢٠٠٣، وكيف أن تحوّل الفساد إلى "منظومة إدارة" معتمدة في دوائر ومؤسسات الدولة أدى إلى ضياع فرص النهوض بالاقتصاد، وأدى، بالدرجة الأساس، إلى زيادة غضب المجتمع، وانطلاق التظاهرات الواسعة التي شهدها العراق خريف عام ٢٠١٩.

انطلاق التظاهرات

في الأوّل من تشرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٩ انطلقت تظاهرات كبيرة في العاصمة بغداد سميت من قبل بعض العراقيين والإعلام العربي بثورة تشرين أو ثورة أكتوبر. سبقت التظاهرات حراكات متفرّقة للخريجين المطالبين بإيجاد وظائف في القطاع العام المتضخم والذي وصل لمرحلة التخمة وصار غير قادر على استيعاب أعداد أخرى؛ وبعد ذلك، أدت خطط حكومة رئيس الوزراء السابق عادل عبد المهدي لهدم الدور المتجاوزة على الأراضي الزراعية ورفع البسطات من أرصفة الشوارع والأسواق إلى غليان الغضب في نفوس السكّان، وبطبيعة الحال رافق كل ذلك تراكم سنوات من فشل السلطات في تأمين خدمات واقتصاد ناجع إلى اندلاع أكبر موجة تظاهرات شهدها العراق في تاريخه الحديث. وبدلاً من تركيز المطالب على توفير الوظائف والخدمات، فإن التظاهرات طالبت بـ"استعادة الوطن" وتخليصه من الهيمنة الخارجية، ومحاسبة الفاسدين ودعم الاقتصاد وتفعيل المنتجات المحلية، وغيرها.
وفي الواقع، لطالما لجأ الشارع إلى التظاهر لتحقيق مطالبه، ومنذ نيسان / أبريل عام ٢٠٠٣ وحتى تشرين الأوّل / اكتوبر عام ٢٠١٩، شهدت العراق احتجاجات بلغ عددها أكثر من ١٤٤٤ احتجاجاً وتظاهرة، وكانت غالبيّة هذه التظاهرات تطالب بالخدمات والوظائف ومحاسبة المتورطين بالفساد[35]، إلا أن تظاهرات تشرين الأوّل / أكتوبر اتسمت بالجرأة ووضوح المطالب وتشخيص الأخطاء وطرح الحلول.

[35] جاسم الحلفي، "الحركات الاجتماعية في العراق"، دار سطور – بغداد، ط١ ٢٠١٧، ص 223.

وتعدّ العوامل الاقتصـــادية هي المحرّك الأبرز لاندلاع التظاهرات، ولا يمكن الحديث عن الحرّكات الاحتجاجية ضد الحكومات المتعاقبة من دون تفسير الاقتصاد العراقي والمشكلات التي تواجهه، وعلى هذا الأساس، فإن هذا الفصل سيركّز على الاقتصاد بالدرجة الأساس.

كيف يسير الاقتصاد؟

يعتمد اقتصاد العراق على أموال النفط بنسبة 93 بالمئة، وهو لذلك اقتصاد ريعي تهيمن عليه الدولة بشكل كامل. والبلد الذي يمتلك رابع أكبر احتياطات نفطية مؤكدة في العالم، وثاني أكبر بلد منتج في منظمة "أوبك"، أصبح خاضعاً للتقلبات العالمية. وبعد انهيار أسعار النفط مرتين في عامي 2014 و2020، لم يستفد العراق من موارده الطبيعية والبشرية في تحقيق التنمية الاقتصادية بسبب الفساد المالي والإداري الذي استفحل في دوائر الدولة. علماً أن العراق أكثر بلدان العالم امتلاكاً لمؤسسات تكافح الفساد، مثل المجلس الأعلى لمكافحة الفساد وهيئة النزاهة وديوان الرقابة المالية ولجنة النزاهة في البرلمان ومكاتب المفتشين العموميين في الوزارات[36]، بيد أنه، رغم ذلك، يحتل العراق المراتب الأخيرة في مؤشر مدركات الفساد الذي تصدره منظمة الشفافية الدولية، إذ يحتل المرتبة 162 من أصل 180 بلداً.

ولا يُعدّ الفساد في العراق أمراً طارئاً على الدولة، إذ يُمكن القول إنه منظومة حكم. فالأحزاب السياسية، المشاركة في الحكم، شرعت الفساد من خلال مشاريع قوانين، إذ تمضي مشاريع قوانين مكافحة بطريقة الأواني المستطرقة: تمضي الحكومات في كتابة قانون وترسله إلى البرلمان بشكله الناجع، لكن الأخير يقلب هذا القانون ليحافظ على مصالح الأحزاب والتحالفات السياسية لتستفيد منه بؤر الفساد المنتشرة في الوزارات[37].

ولا يمُكن فهم هذه الظاهرة -تجاوز القوانين أو تكييفها لأغراض سياسية- من دون العودة خطوة إلى الوراء، وبالتحديد إلى أيام الاحتلال الأمريكي الأولى للعراق. لقد فككت الإدارة المدنية بقيادة بول بريمر مفهوم الدولة في عام 2003، وذلك عندما حلت المؤسسات وسمحت بحرق مقارها، واتخذ بريمر، بدوره، قرارات زادت من الاعتماد على الريع وفتحت الباب على تدمير الصناعة، ومن تلك القرارات إلغاء الرسوم الجمركية وفتح الاقتصاد أمام التجارة الدولية، وتعطيل المشاريع الإنتاجية، والسيطرة على أموال النفط، وإخراج أكثر من 30 ألف شخصاً من القطاع العام، بحجة انتمائهم إلى حزب البعث، على الرغم من أن هؤلاء كانوا يقودون مؤسسات الدولة لفترة طويلة وينتمون لحزب البعث اسمياً مثلهم مثل مئات آلاف العراقيين. وبدلاً من هذه الخبرات، أحلّت إدارة بريمر موظفين من عراقيي الخارج بلا خبرات في مواقع تنفيذية فقط لأنّهم يدينون بالولاء لها، أو أنهم أضعف من أن يعارضوا خططها.

وفي عام ٢٠٠٥ عندما اقر الدستور، وضع نظام "اقتصاد السوق" مذهباً اقتصادياً لإدارة البلاد، إلا أن الواقع كان مختلفاً، إذ تخلّق نظاماً اقتصادياً مشوهاً، فكك مفهوم الدولة، وجعل الأحزاب تحصر بيدها جميع السلطات نتيجة لأنها تشارك جميعها في الحكومات الائتلافية،

[36] صوت البرلمان بتاريخ 8 تشرين الأول / أكتوبر 2019 على إلغاء مكاتب المفتشين العموميين باعتبارهم حلقة زائدة في الحرب على الفساد في العراق.
[37] من هذه القوانين على سبيل المثال "قانون الموازنة المالية" وقانون تقاعد موظفي الدولة.

الأمر الذي خنق القطاع الخاص الفاعل وأحل مكانه قطاع خاص طفيلي هيمن على مشـــاريع الدولة عبر شركات تعود غالبيتها لسياسيين، وحصلت هذه الشركات على عقود من الوزارات لكنها لم تنفذها[38].

والســـياســـة من جانبها، ترتبط في العراق باقتصـــاد دول الجوار، فاختيار رئيس الحكومة والوزراء ليس بيد العراقيين، وإنما يجري بالتوافق بين دولتي إيران وأمريكا ومن ثم السعودية وتركيا، ومن يحظَ بالمنصب فعليه تنفيذ اجندات تخدم مصالح البلدان المجاورة، فتركيا وإيران أكثر البلدان استفادة من انهيار العراق اقتصادياً، لأنهما لاعبان أساسيان في السياسة العراقية؛ فأموال النفط التي تدخل إلى البلد وتتراوح بين 40 مليار دولار ـــ 120 مليار دولار سنوياً - حســب أســعار الســوق العالمية- تخرج معظمها إلى تركيا وإيران والصــين وبعض البلدان الأخرى، لشـراء احتياجات العراق من السـلع والأغذية الأسـاسـية والكمالية. أصـبح العراق، والحال هذه، بلد مستورد لكل شيء.

الهيئات الاقتصادية

في الواقع، لا يُمكن فهم كيفية ســير الاقتصـــاد في العراق من دون فهم ســياســـة الأحزاب الاقتصادية، والأخيرة تتلخّص على النحو التالي: إنها تحاول نهب البلاد بكل الطرق المشروعة وغيرها، مقابل الحفاظ على خيط مالي يربطها بالمجتمع لتديم النظام السـياسـي الذي يؤمن لها الثراء الفاحش. ويبدو النظام الاقتصادي العراقي، ظاهرياً، فوضوي وغير محكوم بقوانين، إلا أنه على العكس تماماً. ومثال على ذلك البنية التنظيمية للنهب الذي تُديره، بشـــكل أســـاس، الهيئات الاقتصادية للأحزاب.

لقد أسست الأحزاب السياسية ما يُسمّى بـــ"الهيئات اقتصادية"[39] وهي شبكة أشخاص واسعة يُشرف عليها ويديرها أعضاء أو أقارب قيادات الأحزاب السياسية المُشاركة في الحكم. وتقوم هذه الشـبكة بالاتفاق فيما بينها على توزيع المناصـب الوزارية والإدارية في مؤسـسـات الدولة وذلك بالاعتماد على نظام "المحاصصة الطائفية" الذي يقسّم الدولة على أساس أحجام الطوائف والقوميات في البلاد. ولدى هذه الشـبكة تصـنيفات للوزارات الرابحة والتي تسـمّيها "سـيادية" مثل وزارات النفط، والداخلية، والدفاع، والمالية، والخارجية.

ومن يحصـل على وزارة النفط، على سـبيل المثال، فإن له حصـة كبيرة في عقود الشـركات المتعاقدة مع الوزارة، وينطبق الأمر كذلك على جميع الوزارات. ويصبح الوزير، والحال هذه، موظفاً عند رئيس الحزب الذي رشحه وبالتالي مرؤوساً من قبل الهيئات الاقتصادية.

ولدى الهيئات الاقتصـــادية نظاماً للتربّح من مشـــاريع الإعمار والاســـتثمار، وتقوم الهيئة الاقتصـادية، أحياناً، ببيع مشروع إلى أحد أقرباء الوزير أو أحد المستثمرين بمبلغ 100 مليون دولار، فيبيعه الأخير إلى شـخصـية أخرى بمبلغ 75 مليون دولار، ومن ثم يباع المشـروع إلى

[38] حسب إحصائية وزارة التخطيط فان عدد المشاريع المتوقفة تبلغ 1497 مشروعاً ممولة من الموازنة العامة، وهي ليست مشاريع استثمارية، راجع بيان صادر عن وزارة التخطيط في آذار / مارس ٢٠١٩.

[39] "مكاتب تمويل الأحزاب تنشط في 6 وزارات وتستحوذ على 10 % من عمولاتها"، صحيفة المدى، نشر بتاريخ 17 اذار / مارس 2016.

أحد الشخصيات بمبلغ 50 مليون دولار، وبعدها يُباع بمبلغ 25 مليون دولار، وفي آخر الأمر ينفذ المشروع بمبلغ 10 مليون دولار.
بطبيعة الحال، يُدرج المشروع الذي تم المتاجرة به ضمن المشاريع المتلكئة أو المنفذة بشكل سيء، وتَسْلَم الهيئات الاقتصادية والرؤوس الكبيرة من أي محاسبة على تربّحها من واستغلالها للمال العام، لكن أحياناً ونتيجة لضغط الشارع، يتم محاسبة المستثمرين الصغار الذين نفذوا المشروع.
ولدى الهيئات الاقتصادية باباً آخر للتربّح من خلال فرض سيطرتها على المنافذ الحدودية والمطارات والموانئ، ما يدر عليها أموالاً طائلة عبر تسهيل دخولها المواد الممنوع دخولها، أو أنها تقوم بتزوير فواتير البضائع وهو ما يعني تخفيف الضرائب على التجار مقابل حصولها على رشا من قبلهم.
وتبدو الطريق سالكة أمام الهيئات بالتهرب من أي محاسبة من خلال هيمنتها أيضاً على مناصب المدراء العامين في الدولة، إذ يقوم هؤلاء بغلق وإخفاء الملفات التي تتعلّق بفسادها أو الإشارة إليها، وفي حال اعترض مدير في أي مؤسسة على سياساتها قد يجد نفسه، في آخر الأمر، معزولاً عن المنصب بتهمة فساد[40]!
وعلى الرغم من أن حتّى الأموال المستولى عليها من الدولة قد تكون محرّكاً للقطاع الخاص، لكنها في الحالة العراقيّة ليست كذلك على الإطلاق، إذ تقوم الهيئات الاقتصادية بعمليات غسيل الأموال من خلال تهريبها وتحويلها إلى دول الجوار، وهو ما يعني عدم دخولها في الاقتصاد المحلي لتشغيل المواطنين. وتقدر الأموال المهربة خارج العراق منذ عام 2003 وحتى عام 2020 بحوالي 150 مليار دولار[41].
تُسهم عمليات الفساد هذه بتدمير اقتصاد الدولة، وتُمعن في امحاق قطاعات واسعة يمكنها أن تكون رافعة لقطاعات من المجتمع، فضلاً عن أنّها يمكن تؤدي إلى الاستقرار الاقتصادي والسياسي للبلاد، بيد أن السياسات الاقتصادية للأحزاب والحكومات التي تتشكّل منها تمعن أكثر، عاماً بعد عام، بزيادة عدم الاستقرار، وذلك من خلال تغوّلها في نهب الأموال العامة، وتدمير القطاعات الاقتصادية.

تعطيل الصناعة

صحيح أن العراق لم يكن يوماً بلداً صناعياً بارزاً، إلا أنه استطاع خلال فترات من التاريخ تأسيس مصانع أمّنت وظائف ومواداً يستخدمها المجتمع، لكن حتّى القليل من الصناعة التي كانت حاضرة قبل تأسيس النظام الجديد عام ٢٠٠٣ تعرّض فيما بعد إلى تدمير مهول.
لقد فتح العراق باب الاستيراد على مصراعيه، وأخذ يشتري بضائع صناعية من الخارج تتراوح أقيامها بين 8.7 مليار دولار و10.8 مليار دولار من إجمالي الاستيرادات التي تتراوح

[40] صدرت خلال السنوات الماضية عدة مذكرات القاء قبض بتهم تتعلق بهدر المال العام على عدة شخصيات مثل مظهر محمد صالح، وسنان الشبيبي، ورحيم العكيلي، وغيرها من اجل ازاحتهم من مناصبهم.
[41] كلمة لرئيس الجمهورية العراقي برهم صالح، أكد فيها تهريب أكثر من 150 مليار دولار خارج العراق، وجاءت هذه الكلمة خلال إطلاقه مشروع قانون استرداد الأموال المهربة بتاريخ 23 أيار 2021.

بين 35 مليار دولار – 55 مليار دولار سنوياً، وهو مبلغ كبير جداً مُقارنة بعدد السكّان والناتج المحلي؛ وبالمقابل، مورست أساليب متعددة من قبل الأحزاب أدّت إلى إهمال أكثر من 500 الف عامل يعملون في القطاع الصناعي في 73 شركة صناعية حكومية. وحاولت الحكومات المتعاقبة التخلص، بكل السبل، من هؤلاء العمّال أوّلاً بتحويلهم إلى بطالة مقنعّة غير منتجة، وثانياً عبر استقطاع رواتبهم لأكثر من 3 سنوات. لكن ضغط العمّال عبر التظاهرات والاعتصامات وقطع الطرق الرابطة بين المحافظات، خوّف الحكومات من اتساع ردود أفعالهم الأمر الذي حدا بها أن تخصص لهم رواتب تقدّر سنوياً بنحو 1.58 مليار دولار دون أن تشغّل مصانعهم[42]. وغالباً، تخصص هذه الرواتب عبر الاقتراض من المصارف الحكومية أو البنك المركزي العراقي[43].

على الرغم من ذلك، فإن وزارة الصناعة تعد أيضاً بوابة للنهب، إذ تقوم الوزارة، سنوياً، بشراء مكائن ومعدات بملايين الدولارات، لكنها تبقى معطلة. ومن أغرب الحالات في تاريخ القطاع العام، تقوم بعض الشركات الصناعية الحكومية باستيراد بضائع أجنبية، وإبدال غلافها وجعلها من صنع الشركة حكومية، وتقوم بعدها ببيع المنتج إلى الوزارات[44]!

ينسحب التردي إلى معامل القطاع الخاص أيضاً، إذ توقفت 80 بالمئة من المصانع الخاصة البالغة عددها حوالي 35 ألف مصنع[45]، وجاء هذا لعدم قدرة الصناعات المحلية على منافسة البضائع المستوردة لأسباب عديدة من بينها عدم تطبيق قوانين حماية المنتج المحلي والمستهلك والتعرفة الجمركية بالرغم من إقرارها في قانون عام 2010، بالإضافة إلى عدم تحديث المعامل الصناعية لخطوط إنتاجها، وضعف القروض الصناعية المقدمة إلى الصناعيين العراقيين، على الرغم من إطلاق البنك المركزي العراقي مبادرة لدعم الصناعة من خلال تخصيص مبلغ 1.2 مليار دولار في العام 2015 من الاحتياطي الأجنبي إلى المصرف الصناعي، لم يقم المصرف، بالمقابل، بإنفاق أي مبلغ منها على الرغم من أنها قروض مدعومة وميسرة، ولكن وضع عراقيل عديدة لمنع تنفيذها، مما حدا بالبنك المركزي بسحب وتخصيصها لدعم قطاع الإسكان.

يؤثر النفوذ الخارجي كذلك على تردي الصناعة، إذ تستخدم دول مجاورة نفوذها لتعطيل معامل عراقية، مما جعل العراق بلد يستهلك أبسط الصناعات، مثل الملاعق والشوك التي يمكن تصنيعها داخل البلاد؛ كما لعب تطبيق قانون الاستثمار العراقي سلباً، إذ أعفي الاستيرادات من جميع الضرائب، وهو ما جعل المستثمر يستسهل استيراد بضائع بملايين الدولارات وبيعها في الأسواق، بدلاً من صنعها داخل العراق.

---

[42] راجع قانون الموازنة لعام 2021.

[43] تقرير الدين الحكومي الصادر عن وزارة المالية المنشور في موقعها على الانترنت من دون تاريخ، الذي تضمن قيام الحكومة باقتراض مبالغ من المصارف الحكومية خارج الموازنة لتسديد رواتب الموظفين.

[44] حديث لوزير الصناعة منهل الخباز في برنامج لعبة الكراسي – قناة الشرقية بتاريخ 7 شباط / فبراير 2021 تحدث فيه عن قيام الشركات الحكومية بتسويق البضائع الأجنبية كأنها صناعة عراقية.

[45] حديث لباسم جميل أنطوان، عضو مجلس إدارة اتحاد الصناعات العراقي السابق، لصحيفة المدى بعددها الصادر يوم 8 اذار / مارس 2014.

من جانبه، فإن إقليم كردستان يلعب دوراً سلبياً يتمثل بقيامه بفتح الحدود أمام البضائع الأجنبية التي يدخل أكثر من 60 بالمئة من البضـــائع إلى العراق عن طريقه، بالإضـــافة إلى قيامه بممارسة أدوار في تعطيل بعض المعامل، مثل معمل الحديد والصلب في البصرة، الذي توقف بإرادة سـياسـية حتى الآن على الرغم من إنجازه يصـل إلى 97 بالمئة، مقابل السـماح لمعامل خاصة أو في دولة مجاورة لإنتاج الحديد والصلب [46].

هذا كله إلى جانب فساد المنافذ الحدودية، إذ وبالإضافة إلى الفساد داخل المنافذ الرسميّة، فإن وجود منافذ حدودية غير رسمية خارج سيطرة الدولة، وتحت سيطرة العشائر والمليشيات تدخل من خلالها منتجات أجنبية، فاقم من تدمير الصناعة وحتّى الزراعة[47].

الحال، إن تدمير الصـناعة لا يؤدي إلى ضـعضـعة الاقتصـاد وتحويل المجتمع إلى اسـتهلاك البضائع المستوردة فحسب، إذ إنه يُسهم أيضاً في تدمير أجيال جديدة لا تكتسب أي تدريب أو خبرات في مجالات متعدّدة من التصـنيع، ويحوّلها إلى أيادٍ غير ماهرة مأسـورة بنمط التجارة السريعة التي تعتمد على الاستيراد والبيع والتربّح السريع.

قطاع الطاقة

وإذا كانت الصـــناعة تواجه انحداراً كبيراً، فإن قطاع الطاقة -رغم أنه يبدو ظاهراً معافى- إلا أنه يعاني أزمات عميقة على صـــعيد الإدارة والإنتاج والاســـتغلال الأمثل للطاقّة. وكان من المفترض أن يصل إنتاج العراق عام ٢٠٢٠ إلى أكثر من 12 مليون برميل نفط يومياً[48]، ولكن الإنتاج وصـــل فقط إلى 4.5 مليون برميل يومياً، وهذا على الرغم من إنفاق العراق مليارات الدولارات للتعاقد مع شـــركات عالمية لهذا الغرض. وتخلّت الحكومات المتعاقبة عن إدارة حقول النفط وسلّمتها لشـركات عالميّة، وخاصّـة الأمريكية منها، عبر ما يُسـمّى بـــ"جولات التراخيص"[49]. وشـاب عقود جولات التراخيص فسـاد كثير، الأمر الذي دفع دولاً مثل اسـتراليا إلى محاسـبة مسـتثمريها في العراق لتقديمهم رشـا لنظرائهم العراقيين، إلا أن العراق لم يفتح ملفات الفســاد هذه، وبقيت الشــركات المتورّطة تعمل في العراق، وترتكب مخالفات لشــروط تشغيل العمالة العراقيّة، علاوة على تهربها من دفع المنافع الاجتماعية للسكان الذين يتعرضون إلى أنواع مختلفة من الانبعاثات الســـامة من الحقول النفطية التي أدت إلى ارتفاع إصـــابات السـرطان[50]. ومن الغرائب في جوالات التراخيص، أنها لم تعر أهميّة للغاز المصـاحب لإنتاج

---

[46] "لهذه الأسباب تأخر تشغيل معمل الحديد والصلب في البصرة 18 سنة"، موقع "ارفع صوتك"، نشر بتاريخ 10 نيسان / ابريل 2021.

[47] حوار لرئيس اللجنة المالية النيابية في البرلمان هيثم الجبوري في برنامج "اقصر الطرق" – قناة الشرقية، بتاريخ 1 أيار / مايو 2020

[48] تصريح لوزير النفط الأسبق حسين الشهرستاني بعد توقيع جوالات التراخيص الأولى، موقع صحيفة الانباء الكويتية، نشر بتاريخ 13 كانون الأول / ديسمبر 2009.

[49] أبرم العراق 5 جوالات تراخيص نفطية منذ العام 2009 وحتى عام ٢٠٢٠، وبدأ العمل بأربع جوالات تراخيص فقط، وتعمل الشركات الأجنبية في أكثر من 75 حقلا نفطياً منتشرة في عموم العراق.

[50] لم تفِ معظم الشركات النفطية بوعودها في توفير احتياجات الساكنين إلى جانب الحقول النفطية، اذ أصيب العشرات من المواطنين بأمراض سرطانية بسبب التلوث البيئي الكبير، بينما تتضمن عقود الخدمة بأن كل شركة تدفع مبلغ 5 ملايين دولار سنويا كمنافع اجتماعية مثل إنشاء مدراس او مستشفيات وغيرها. راجع التقارير السنوية الصادرة عن مبادرة الشفافية في الصناعات الاستخراجية في العراق للسنوات من 2009 – 2018 المنشورة على موقع المبادرة على الانترنت.

النفط، ولم تقم هذه الشركات باستثماره وانما جعلته يحرق في الهواء[51]، على الرغم من احتياج العراق إليه لتشغيل محطات الكهرباء. علماً أن العراق أنفق مبلغ 81 مليار دولار على تطوير قطاع الكهرباء، ولكن نسبة تجهيز الطاقة للمواطنين، في أفضل حالاتها، لم تصل أكثر 12 ساعة تجهيز، بشكل متقطع في اليوم.

والأزمات متشابكة ببعضها بعضاً، فأزمة الكهرباء مرتبطة أيضاً بأزمة السكن. لقد نمت داخل وعلى حواف المحافظات مجمعات سكنيّة شاسعة خارج التخطيط الأساسي للمُدن[52]، وهذا نتيجة لارتفاع للمضاربات التي أدت إلى ارتفاع سعر المتوسط للمتر المربع إلى نحو ألف دولار. وبُنيت هذه المجمعات على أراضٍ زراعيّة، وساهم عدد كبير من الفصائل المسلّحة والأحزاب في التجارة بها والترويج لها كخيار معقول لامتلاك سكن. شكّلت هذه المساكن ضغطاً على شبكات الكهرباء والمياه والمجاري والمؤسسات التعليمية المتهرئة بالأساس، الأمر الذي جعل المناطق داخل التخطيط الإداري وخارجها تعاني من الأزمات الخدمية الأساسية نفسها.

ويمكن القول إن الأحزاب الحاكمة تقاسمت المال العام والطبقات الاجتماعية، إذ في الوقت الذي اتجهت فيه الفصائل المسلحة إلى التربّح من الفئات الفقيرة مقابل بيعها الأراضي الزراعية، فإن أحزاباً أخرى اتجهت إلى إعمار مجمعات سكنية للطبقة الغنية، إذ يتجاوز كلفة الوحدة السكنية الواحدة أكثر من 175 الف دولار، واستطراداً، فإن بعض الشركات الأجنبية تواطأت مع بعض المسؤولين وأخذت أراض في مواقع استراتيجية لبنائها كمشاريع استثمارية، ولكنها باعتها على المواطنين بوصفها أراضي سكنية وحققت من خلال هذه اللعبة أرباحاً طائلة من دون أن تنشأ أي وحدة سكنية أو تبني مشروعاً استثمارياً!

تراجع التعليم والجامعات الأهلية

على كل حال، التربّح السريع هو نمط وثقافة أشاعتها الأحزاب السياسية التي حكمت العراق بعد نيسان / أبريل عام ٢٠٠٣؛ وهذا النمط أخذ يستثمر في قطاعات تشكّل رأسمالاً رمزياً للمجتمعات مثل قطاع التعليم الذي يعدّ رافعة للأجيال الشابة للمنافسة في الأسواق المحلية والإقليمية والدولية.

[51] يحتاج العراق يومياً لتشغيل محطات الكهرباء نحو 7 مليارات قدم مكعب قياسي لإنتاج 20 غيغاواط من اصل الطاقة التصميمية 34 غيغاواط، بينما يستورد العراق من ايران يوميا 1.8 مليار قدم مكعب قياسي، في حين يحرق العراق 1283 مقمق يومياً، علما أن العراق إذا وصل إلى مرحلة إنتاج الذروة من النفط وهو 9 ملايين برميل، سيبقى يحتاج إلى استيراد الغاز لتشغيل محطات الكهرباء، لان 70٪ من الغاز هو مصاحب لإنتاج النفط، راجع كتاب حسين الشهرستاني تجربة حياة صفحة 246 الصادر عن دار معنى للتوزيع والنشر، وكذلك حوار لوزير النفط إحسان عبد الجبار قناة الشرقية المنشورة على اليوتيوب بتاريخ 15 كانون الثاني 2021 ضمن برنامج لعبة الكراسي، والاحصائيات المنشورة على موقع وزارة النفط حول انتاج الغاز والنفط والتي يجري تحديثها شهرياً.

[52] توجد في العراق 4 آلاف منطقة عشوائية، يسكنها 3.4 مليون شخص، الأمر الذي شكل ضغط على محطات الكهرباء، إذ تقوم العشوائيات بالتجاوز على حصص المناطق غير العشوائية، فإذا كان مخصصا لمنطقة ما 200 ميغاواط' فإن طلب هذه المنطقة سيرتفع إلى أكثر من 300 ميغاواط بسبب العشوائيات التي تجانبها. راجع حوار وزير الكهرباء ماجد حنتوش المنشور على قناة دجلة بتاريخ 10 أيار/ مايو 2021.

وقد استثمرت الهيئات الاقتصادية التابعة للأحزاب السياسية في الجامعات الأهلية، بعد أن وجدتها تلقى رواجاً اجتماعياً. فداخل المجتمع العراقي تحوّلت الشهادة الجامعية إلى حاجّة لـ"الرفّعة الاجتماعية" كما أنها بوابة للحصول على وظيفة في المؤسسات الحكومية.
وعلى هذا الأساس، أخذت الجامعات تنمو كالفطر في المُدن العراقيّة، وذلك من دون أن تُراعي المواصفات الدوليّة لمعنى الجامعة. وتمنح وزارة التعليم العالي تراخيص للجامعات تحت ضغوط سياسية بعيداً عن امتلاك هذه الجامعات الكفاءة والمتطلبات الرسمية، إذ تعاني هذه الجامعات من نقص في الكوادر التدريسية، وعدم امتلاك أغلبها أبنية مثالية، ونقص المختبرات، وغياب خطط علمية لاستقطاب الطلبة. إن العشوائية وحدها تسيّر عملها. لكن أعداد هذه الجامعات، رغم ذلك، بلغت نحو 72 جامعة وكلية[53]، ووظيفتها لا تتعدى بيع الشهادات للطلبة غير القادرين على الحصول على مقعد في جامعات التعليم الحكومي.
وفي أغلب هذه الجامعات، فإن نجاح الطلبة مضمون، إذ ليس على الطالب سوى تأدية الامتحانات النهائية.. فهدف الجامعات الاهلية تحقيق الأرباح على حساب العلم والكفاءة، بمقابل ذلك، فان التعليم الحكومي يعاني أيضاً من مشاكل تشتبك مع التعليم الأهلي، وهو الأمر الذي أدى إلى عدم مواكبة مخرجات التعليم الجامعي لمتطلبات سوق العمل. يتخرّج معظم الطلبة وهم لا يمتلكون من تخصصاتهم معرفة أكثر من 40 بالمئة[54]، و من ثم فهم يفتقدون للمهارات لعدم توفر تدريسيين ومناهج على مستوى عال التطوّر، بالإضافة إلى عدم وجود بيئة جامعية محفزة وسياسات تنموية للتعليم.
ويرى بعض الأساتذة أن شغف التدريس قتلته سياسات الدولة غير المهتمة بتنمية الاقتصاد، فما قدمته الجامعات من حلول لمشاكل التي يعانيها العراق وضعت على الرفوف ولم ينظر فيها، بينما استعانت الحكومات المتعاقبة بشركات استشارية دفع لها ملايين الدولارات، لتقديم استشارة بمشكلة معينة في الاقتصاد. إن الجامعات العراقيّة تقدم الحلول للحكومات مجاناً، ولكن لا يتم الأخذ بها، بالإضافة إلى أن معظم الطلبة تفشت بينهم قناعة أنهم إذا تخرجوا من الجامعة فانهم سينضمون إلى العاطلين عن العمل.
هو إذاً جو محكوم بنمط "التربّح السريع" من قبل السلطة، وباليأس من جانب المجتمع، وهذا الجو ذاته سيؤثر على جميع القطاعات الأخرى الأساسية -إن كانت مادية على صعيد يومي، أو نفسية على مستوى الطموح والنظر إلى المستقبل-. لكن، ورغم ذلك، فإن السلطة، من جانبها، صنعت ما يشبه توازناً مع جزء من المجتمع لوضعهم كحائط صدّ أمام الحركات الغاضبة المطالبة بالإصلاح أو الساعية إلى إسقاط النظام.

الزبائنية كاستراتيجية

[53] قاسم إسماعيل جاسم، "نظرة إحصائية في توزيع الجامعات والكليات الحكومية والأهلية في العراق"، موقع مجلس النواب العراقي، نشر بتاريخ ٢٢ كانون الثاني / يناير ٢٠١٩.
[54] محاضرة لعالم الاجتماع العراقي فالح عبد الجبار تحت عنوان "بناء أو تفكك العراق في اطار نظريات سوسيولوجيا القوميات والأمم"، قناة اتحاد الأدباء على موقع "يوتيوب"، نشرت بتاريخ 13 تشرين الثاني / نوفمبر 2017.

يمكن القول إن النظام العراقي بعد عام نيسان / أبريل عام 2003، مارس سياسة الاستحواذ على إيرادات الدولة لتسيير أعمال حكمه وأحزابه، ومنحَ، بمقابل ذلك، فئات من السكان وظائف وخدمات سيئة. وكلما ارتفعت أسعار النفط وسّعت الأحزاب المشاركة بالحكم الشبكة الزبائنية لإدامة النظام السياسي، فمثلاً كان عدد الموظفين عام ٢٠٠٤ نحو مليون موظف يتقاضون رواتب تقدّر بنحو 2 مليار دولار سنوياً، وضاعفت سلطة الاحتلال الأمريكي الرواتب للحصول على رضا السكان الرافضين لوجودها، وبعد استلام العراقيين للسلطة عام 2005، استُعملت الاستراتيجية نفسها لشبك علاقة أوسع مع المجتمع. وعلى سبيل المثال، فخلال الفترة التي سبقت الانتخابات المحلية عام 2009 والانتخابات البرلمانيّة عام 2010 جرى توظيف 600 ألف شخص على الملاك الدائم في القطاع العام، وأكثر من 400 ألف شخص بصفة متعاقدين وأجور يومية، وارتفع إجمالي الرواتب من 2 مليار دولار عام 2004 إلى 43.7 مليار دولار في عام 2020. وتحوّلت الانتخابات، وفقاً لهذا الواقع، موسماً لرشوة السكّان مقابل الحصول على أصواتهم.

والحال هذه، فإن رواتب موظفي القطاع العام تشكّل أكثر من 18.6٪ من الناتج المحلي الإجمالي، وهو رقم كبير، إذ نمت رواتب الموظفين نحو 22 مرة.

وقد ارتفعت الرواتب التقاعدية من 772.2 مليون دولار إلى 12.48 مليار دولار وهي مرشحة بالزيادة سنوياً، وهذا يعود في أغلبه إلى قيام الأحزاب بتأسيس هيئة السجناء السياسيين ومؤسسة الشهداء وتشريع قوانين تقضي بمنح أنصارهم داخل وخارج العراق رواتب تقاعدية من دون أي يشاركوا في دفع التوقيفات التقاعدية لصندوق التقاعد، وهذا بالإضافة إلى رواتب محتجزي رفحاء، والرواتب التقاعدية لكبار المسؤولين، إذ تقاضى رئيس الجمهورية الأسبق غازي عجيل الياور، الذي شغل منصبه لمدة 9 شهور فقط، راتباً تقاعدياً يقدّر بنحو 61.68 مليون دينار[55]. يُضاف إلى ذلك وجود 250 ألف شخص، حسب تقديرات وزير المالية علي عبد الأمير علاوي، بين موظف ومتقاعد وهمي بالإضافة إلى مزدوجي الرواتب[56].

إن هذه السياسّة الماليّة الزبائنية تُقامر بمستقبل المتقاعدين. فصندوق التقاعد قد يواجه الإفلاس في عام 2025[57]، وذلك ليس نتيجة فقط لمنح الرواتب، وإنما كذلك نتيجة للفساد داخله. لقد استثمر صندوق التقاعد إيراداته السنوية التي تقدر بمليار دولار تضاف إلى صندوق التقاعد سنوياً، في شركات مساهمة، وجزء منها يتعرض إلى الخسارة، علاوة على ذلك قام صندوق التقاعد بشراء الدين الحكومي عبر السندات، ومنح مبلغ 780 مليون دولار إلى شركة البطاقة الذكية المعروفة باسم "كي كارد" لتقديم قروض للمتقاعدين، وتلكأ عدد كبير من تسديد القروض. وتبلغ إجمالي القروض المتلكئة في العراق 3.4 مليار دولار، منها نحو 2 مليار

[55] وثيقة صادرة من مجلس القضاء الأعلى/ محكمة التمييز تحمل العدد 2097 بتاريخ 31 اذار 2019، تتضمن قرار عدم أحقية الياور باستلام راتبه التقاعدي بعد قرار حكومة حيدر العبادي بإلغاء الرواتب التقاعدية للمسؤولين السابقين.

[56] "20٪ من الرواتب بالعراق تذهب للفاسدين"، موقع الجزيرة نت، نشر بتاريخ 19 تموز / يوليو 2020.

[57] حسب ورقة الإصلاح الحكومية التي تسمى "الورقة البيضاء"، التي أطلقتها حكومة رئيس الوزراء مصطفى الكاظمي، وتتضمن خطة الحكومة الاقتصادية لتحقيق الإصلاح في مختلف قطاعات الاقتصاد، وبدأت خلال العام 2021 بتنفيذ المرحلة الأولى التي تمتد إلى 3 سنوات، وهي عبارة عن مجموعة من المراحل.

دولار تعود للمصـــارف الحكومية ومن ضـــمنها صـــندوق التقاعد الذي يمنح قروضـــه عبر مصرفي الرافدين والرشيد[58].
وقد تمادت الأحزاب السياسية في سياستها الزبائنية إلى الحد الذي دفعها إلى خفض سن التقاعد لسببين، الأوّل إرضاء الموظفين، وثانياً إيجاد وظائف للشباب العاطلين عن العمل في مؤسسات الدولة المتخمة. وقد أدّت هذه السـياسـية إلى خسـارة لصـندوق التقاعد تتمثل بتقليل التوقيفات التقاعدية، إذ أدّى تعديل على قانون التقاعد لعام 2019 بخروج 250 ألف موظف إلى التقاعد، مما كلّف خسارة الصندوق أموال كبيرة[59].
هو إذاً ضـــغط هائل على بلد يعتمد على الريع. لقد أصـــبح الإنفاق على ملف رواتب الموظفين والمتقاعدين والرعاية الاجتماعية يبلغ نحو 60 مليار دولار سـنويّاً، وشـكّل أكثر من 56٪ من إجمالي موازنة العام 2020 [60]، وصـــارت أموال النفط المباع، في الكثير من الأحيان، غير كافية لدفع رواتب الموظفين. وبما أن هذه الأموال هي الرابط الوحيد بين النظام الســـياســـي والســـكّان، فإن الحكومات لجأت إلى الاقتراض الداخلي والخارجي لســـدّ الرواتب وعدم المسّ بها، خشـية من انضـمام هذه الفئة إلى الفئة الغاضـبة والحانقة على النظام السـياسـي. وعلى ما يقول أحد الوزراء فإن "البلاد مقبلة على إفلاس وانهيار اقتصـــادي عاجلاً أم آجلاً"[61]، لأن سياسة الدولة تميل إلى الاقتراض وليس إلى ضبط الانفاق والبحث عن موارد اقتصادية أخرى، كما أن القروض تسـلك طريقها إلى الرواتب وليس لخلق تنمية اقتصـادية عبر تفعيل المشـاريع المتوقفة، أو إنشاء مشاريع جديدة.

قناعة بنظام فساد

لا تبدو هذه الأرقام ولا الوقائع خافيّة على المجتمع، وصـارت -بشـكل دائم- محرّكاته للغضـب على النظام السياسي. إن العراق أمة شابة، وينمو مجتمعه بشكل مضطرد، إذ ازداد السكان من 25.6 مليون شـخص عام 2003 إلى أكثر من 40.1 مليون في عام 2020[62]، ونما الاقتصـاد العراقي من 36.3 مليار دولار عام 2004 إلى 234 مليار دولار في عام 2019[63]، إلا أن نسبة النمو الأكبر ارتبط بتصدير بالنفط الذي زاد انتاجه العراق من 1.5 مليون برميل في العام 2003 إلى 4.5 مليون برميل يوميا خلال عام 2020، وتراجعت، بمقابل ذلك، قطاعات أساسيّة مثل الزراعة والصناعة والخدمات، ولذلك حافظ العراق على نسبة بطالة مرتفعة بلغت 20٪ من قوى العمل، حسب تقارير وزارة التخطيط[64] .

[58]راجع البيانات المالية لعام 2020 الصادرة عن البنك المركزي العراقي والتي تضمنت القروض المتعثرة.
[59] راجع بيان اللجنة المالية النيابية حول قانون التقاعد الجديد المنشور بتاريخ 11 تشرين الثاني 2019، وكذلك تقرير صحفي تحت عنوان "متقاعدون على قيد الانتظار والانصاف" المنشور 21 تشرين الأول 2020 في صحيفة الصباح الحكومية.
[60] تقرير الإنفاق لموازنة 2020 المنشور في موقع وزارة المالية.
[61]حديث للكاتب مع وزير في حكومة رئيس الوزراء مصطفى الكاظمي.
[62] بيان صحفي صادر عن وزارة التخطيط نشر بتاريخ 12 كانون الأول / يناير 2020.
[63] بيانات العراق في الموقع الاحصائي للبنك الدولي حول الناتج المحلي الإجمالي، بلا تاريخ.
[64] حوار صحفي لوزير التخطيط السابق نوري الدليمي حول نسبة البطالة في العراق في صحيفة الصباح بتاريخ 4 أيار 2020.

لقد دخل العراق أكثر من تريليون و87 مليار دولار من عام 2003 وحتى عام 2020[65]، لكن هذه الموارد لم ينتفع منها الاقتصاد، اذ سمح النظام السياسي الحالي بتبديد هذه الثروة وسرقتها من خلال تشكيل لجان اقتصادية للأحزاب، هدفها السيطرة على المشاريع الاستثمارية لوزارات الدولة، وإحالتها إلى شركات مقاولة تابعة لها أو مقرّبة منها، والمشاريع، في غالبها، إما كانت وهميّة أو أنها نفذت بمواصفات سيئة.

إن المواطنين، الذين تظاهروا في نحو ١١ محافظة عراقية في وسط وجنوب البلاد، طالبوا بمحاسبة المتورطين بالفساد، وتطوير الاقتصاد وتنويع ايراداته، والاهتمام بالقطاع الخاص، وتشريع قوانين تدعمه، وحماية العاملين، وتفعيل دور النقابات والاتحادات، وتحديد أجور وساعات العمل، ومنح المستثمرين دوراً في الإعمار، والاهتمام بالصناعة والزراعة. في الواقع، لم يشهد العراق حملة تدعم الاقتصاد الوطني بالشكل الذي شهده خلال تظاهرات تشرين الأول / أكتوبر عام ٢٠١٩، وهو ما أكدّته أكثر من شركة محليّة، واتحادات صناعية، وغرف تجارية. ولم يكتفِ المتظاهرون بالحملات على مواقع التواصل الاجتماعي، إذ إنهم أقاموا معرضاً للصناعات المحليّة في ساحة التحرير وسط بغداد. وحث المتظاهرون، من خلال المعرض، العراقيين على شراء المنتجات المصنعّة في العراق. وتنوّعت البضائع في المعرض بين المواد الغذائية والأدوات المنزلية مثل أجهزة التكييف والبرادات وغسالات الألبسة والمشروبات الغازية ومواد التنظيف، وأكدت مصانع ألبان وتمور وأطعمة في العاصمة بغداد وعدد من محافظات الجنوب ارتفاع مبيعاتها خلال فترة التظاهرات نتيجة لحملات دعم المتظاهرين لها. وأدت الزيادة الطلب على المنتج المحلي إلى توسيع المعامل الصغيرة والمتوسطة لأعمالها[66]. وأشّر علي الساعدي، رئيس اتحاد الصناعات العراقية السابق، ارتفاعاً في مستوى الإنتاج لدى المصانع العراقية في أثناء فترة الاحتجاجات. فيما قال إن "الحملة الكبيرة لدعم المنتج المحلي من قبل المتظاهرين الشباب بعثت الأمل للصناعة العراقية وقتلت اليأس الذي دخل نفوس المنتجين المحليين".

لكن الأمل لم يدم طويلاً أمام قوّة اليأس. إذ ليس لدى الأحزاب الحاكمة بديلاً تقدّمه للمجتمع، وكل ما أخذت تمارسه بعد استقالة حكومة عادل عبد المهدي بعد شهرين من التظاهرات هو تقديم "الزبائنية" بجرعات مكثّفة، إلا أنها، هذه المرّة، محكومة بديون هائلة وسياسات تؤدي إلى إفقار الفقراء وتكبيل المستقبل. فالعدالة الاجتماعية التي كانت شعاراً للمتظاهرين تقلّصت إلى أبعد، فحتّى الوظائف التي تربط السكّان بالعمليّة السياسيّة لا توزّع بشكل عادل، فبينما يمكن أن يجد المرء عائلة جميع افرادها يعملون في القطاع العام لأنهم يمتلكون علاقات بجهة سياسية أو أنّهم قادرين على دفع الرشا لشراء وظيفة، فإن هناك آلاف العائلات لا يمتلك فرداً منها وظيفة.

---

[65] إيرادات النفط التي تعلنها وزارة النفط شهريا وسنويا على موقع شركة سومو.

[66] وقال محمد رضا، صاحب معمل تمور "الإخلاص" في محافظة كربلاء، إن "المعمل الذي كان يعمل فيه 6 عمال في الفترة الماضية وصل عدد عماله الآن إلى 50 عاملاً يجتهدون لإنتاج عشرات الأطنان من التمور بصنوفها المختلفة"، وذلك نتيجة لحملة دعم المنتج الوطني، وكالة "بغداد اليوم"، نشر بتاريخ ٢٥ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٩.

وإزاء التضخّم البيروقراطي في مؤسسات الدولة، فان إيرادات النفط أصبحت لا تكفي لتغطية رواتب الموظفين، لذا فإن السلطات لا تجد سبيلاً لإرضاء هذه الفئة الواسعة من السكّان الموظفين سوى بالاقتراض حلاً. وخلال عام ٢٠٢٠ لوحده، اقترضت الحكومة أكثر من 27 تريليون دينار لدفع رواتب الموظفين[67]، ويرجّح أن تلجأ للأسلوب نفسه في الأعوام القادمة، وهذا سيؤدي، بطبيعة الحال، إلى تكبيل الاقتصاد العراقي وإلزام الأجيال المقبلة بدفع رواتب فئة أصبحت تؤثر على الاقتصاد، وتساهم في ضعف التنمية الاقتصادية.

بالمقابل، فإن التضخّم والقدرة الشرائية في انحدار مستمر، وبحسب تقرير البنك الدولي، فإن الناتج المحلي العراقي في عام ٢٠٢٠ انخفض بنسبة 10 بالمئة بسبب الإجراءات الحكومية المتمثّلة بتخفيض سعر العملة المحليّة أمام الدولار[68]، وفرض الضرائب على الفئات الأشد فقراً.

ونتيجة لأن السياسية الزبائنية لا يمكنها، بأي حال من الأحوال، أن تنتج قطاعاً خاصاً، فإن العاطلين عن العمل من المتعلّمين وغيرهم ينظرون إلى الوظائف العامة كحلم يسعون إلى تحقيقه. وبناء على ذلك، فان قطاعات واسعة من المتظاهرين يرغبون بالحصول على فرصة عمل في القطاع العام، والأخير وصل إلى الحد التخمة، وهو على حاله هذه قد يؤدي إلى انهيار مؤسسات مثل مصرفي الرشيد والرافدين وصندوق التقاعد لاستثمار هذه المؤسسات بالدين الحكومي. وسيبدو التعويل على الإنقاذ الخارجي محض وهم، فحتّى معظم الحكومات والمؤسسات المالية الدولية ترفض تقديم قروض للعراق من دون وضع شروط إنفاق الأموال على دعم المشاريع الاقتصادية لكي تستطيع، مستقبلاً، تسديدها.

إن هذه المعطيّات ليست أرقاماً اقتصادية هائمة، ولا هي معادلات رياضيّة يصعب فهمها، بل على العكس من ذلك، إنها حياة ومستقبل نحو ٤٠ مليون بشر يعيشون على أرض العراق؛ و هذه المعطيّات محرّكهم للغضب على السلطة وابتعادهم عنها، وأخيراً هي دافعهم إلى الاحتجاج في الشوارع والساحات في مسعى لإسقاط النظام وإحلال آخر محلّه يؤمن العدالة الاجتماعية لهم.

[67] شرّع البرلمان العراقي قانونين في العام 2020 يسمحان للحكومة بالاقتراض مبلغ 27 تريليون دينار لدفع رواتب الموظفين وهما "قانون الاقتراض المحلي والخارجي لتمويل العجز المالي لعام 2020"، و"قانون تمويل العجز المالي".

[68] "المرصد الاقتصادي للعراق.. التقاط الفرصة للإصلاح وإدارة التقلبات"، البنك الدولي، نشر بتاريخ 28 أيار / مايو 2021.

حراك تشرين والإعلام: صراع السرديات

بلسم مصطفى
محاضرة زائرة في قسم العلوم السياسية والدراسات الدولية في جامعة برمنجهام في المملكة المتحدة. تركز أبحاثها على دراسة التداخل بين الإعلام الرقمي الحديث واللغة والسياسة والمجتمع في الشرق الأوسط عموماً، وفي العراق خصوصاً. سيصدر لها كتاب بعنوان "الدولة الإسلامية" في الترجمة: أربعة جرائم، سرديات متعددة، عن دار بلومزبري للنشر.

يقدم هذا الفصل تحليلاً لسرديات ثورة تشرين الأول / أكتوبر عام 2019 والوسائل الإعلامية التي استخدمها المتظاهرون لمواجهة الخطاب المضاد الذي روج له إعلام الأحزاب الحاكمة في العراق وسردياته المعادية لتشرين باستخدام وسائل الإعلام التقليدية أو غير التقليدية، لا سيما مواقع التواصل الاجتماعي. أجادل في هذا الفصل بأن حركة تشرين ساهمت بخلق سرديةٍ جمعيةٍ مغايرة لسرديات حكومات وأحزاب ما بعد 2003، بعيداً عن الطائفية والإقصائية. هذه السردية دفعت الأحزاب الحاكمة وميليشياتها الى اتخاذ سياسات تصعيدية في الفضاء الإعلامي التقليدي والرقمي لشيطنة التظاهرات وتشويهها. الأمر الذي دفع بالمتظاهرين، بالمقابل، الى الاعتماد على وسائل إعلامية مقروءة وسمعية لمواجهة التضليل الإعلامي وللمحافظة على صورة الاحتجاجات في أذهان المجتمع. ولأن الاحتجاجات شهدت، وللمرة الأولى، حضوراً لافتاً للنساء، تم إصدار مجلة تعنى بالمرأة وحقوقها. بالمقابل، لم تصمد معظم هذه الوسائل بوجه الماكنة الإعلامية للأحزاب والقمع المتصاعد ضد المحتجين في ساحات الاحتجاج، بيد أنني أزعم أن سرديات الحراك ستظل عصيةً على الاستئصال، إذ أنها مثّلت لحظةً فاصلةً في تاريخ العراق الحديث، وشاهدة على نقطة تحول مهمة في الوعي الجمعي لفئة الشباب تحديداً.

المقدمة

لم تكن الاحتجاجات التي انطلقت في تشرين الأول / أكتوبر عام 2019 ظاهرة فريدة من نوعها في السياق السياسي والاجتماعي للعراق في مرحلة ما بعد 2003. إذ مثّلت التظاهرات سيناريو متكرر منذ عام 2011، وتقريباً للأسباب ذاتها: الفساد، وضعف المؤسسات، والبطالة، وقلة أو حتى انعدام الخدمات الضرورية كالماء والكهرباء. إلا أن ما ميز احتجاجات تشرين الأول / أكتوبر – رغم "تشعب مطالبها وغياب الوحدة فيها"–[69] كان مقدرتها على خلق سرديات جمعيةٍ ترتكز على الهوية الوطنية بالضد من السرديات الحكومية والحزبية التي تغذت على الطائفية والفرقة كوسيلة ناجعة للمحافظة على وجودها. فبذلك تمكنت الحركة – خاصّة في الأشهر الأولى لها– من أن تعيش في وجدان العراقيين في الداخل والخارج على حدٍ سواء. من الواضح أن هذه السرديات الجديدة كانت قد شكلت هزةً وصدمةً للأحزاب

[69] حارث حسن، "الإحتجاجات التشرينية وبنية السلطة في العراق: مقاربة سياسية". في *الاحتجاجات التشرينية في العراق احتضارُ القديم واستعصاءُ الجديد*. فارس كمال نظمي وحارث حسن (محرر)، دار المدى، ٢٠٢٠. ص 21-35.

وميليشـــياتها فســـارعت الى اســـتهداف الاحتجاجات عن طريق ماكنتها الإعلامية والترويج لسرديات مشيطنة تتهم المحتجين بالعمالة لدول الغرب.
ولمقاومة وتفكيك تلك السرديات التي استفادت من التعتيم الإعلامي وقطع– ومن ثم إضعاف– شبكة الإنترنت، لجأ المحتجون بالتعاون مع صحفيين ونشطاء الى الوسائل الإعلامية التقليدية.
فما هي تلك الوسائل وما مدى تأثيرها على الحراك وكيف كانت ردة فعل الأحزاب؟ يجيب هذا الفصل على هذه الأسئلة من خلال مقاربةٍ اجتماعيةٍ لمفهوم السردية والتنافس بين السرديات في الوسط الإعلامي. أجادل من خلال هذه المقاربة على أن الماكنة القمعية والإعلامية الحزبية ساهمتا، بشكلٍ متساوٍ، في إضعاف حراك تشرين الأول / أكتوبر وقدرته على التصدي والمطاولة، إلا أنها لم تتمكن من محو السرديات الجمعية التي انتجها الحراك كونها كانت انعكاساً للحظة سياسية واجتماعية مفصلية في العراق تحدت فيها فئات مجتمعية شبابية الهيمنة الحزبية وسردياتها محاولةً استرداد هويتها الوطنية وذاتها العراقية الخالصة.

البداية: سردية الوطن والثورة وإعلام التواصل الاجتماعي

يعرف الباحث الاجتماعي سومرز السردية في إطار علم الاجتماع على أنها "تصنع واقعاً جديداً ولا تمثله".[70] فوفق هذا المفهوم، لا يمكننا كأفراد التعبير عن هوياتنا أو أن نفسر العالم من حولنا بمعزل عن السرديات الاجتماعية التي تحيطنا. بحسب سومرز وجبسون، تكتسب السردية خاصية جمعية حين يقوم مجموعة من الأفراد أو المؤسسات بطرحها ونشرها على مدار فترة من الزمن.[71] فتتمتع السرديات بقيمٍ ولغةٍ مشتركة يجتمع حولها أفراد من خلفياتٍ مختلفة للتحشيد لقضايا سياسية أو اجتماعية أو إنسانية مشتركة.[72] وهذا ما حصل مع سرديات حراك تشرين الأول / أكتوبر فقد التفت حولها فئات متنوعة من المجتمع تجمعهم قضية واحدة، ألا وهي الوطن. يلعب "التأطير" من خلال استخدام أدوات متعددة منها على سبيل المثال، كلمات معينة أو صور أو الوان إلخ.. دوراً كبيراً في تأسيس السرديات وتوجيهها[73].
تحتاج السردية إلى وسيط للانتشار، وهذا الوسيط قد يشمل الإعلام التقليدي أو الرقمي.
تميزت ثورة تشرين الأول / أكتوبر باعتماد شبابها على وسائل التواصل الاجتماعي للتحشيد للاحتجاجات وتوثيق ونقل أحداثها. وهذا يذكرنا بالترابط الوثيق بين مواقع التواصل الاجتماعي وثورات الربيع العربي.[74] خلافاً للحركات الاحتجاجية للأعوام السابقة وامتداداً لاحتجاجات

[70] Somers, M.R., 1992. Narrativity, narrative identity, and social action: Rethinking English working-class formation. *Social science history*, 16(4), pp.591-630.

[71] Somers, M., R. and Gloria D. Gibson (1994)'Reclaiming the epistemological "other": narrative and the social construction of identity'. *Social Theory and the Politics of Identity*, Cambridge MA and Oxford: Blackwell.

[72] Baker, M., 2006. Translation and activism: Emerging patterns of narrative community. *The Massachusetts Review*, 47(3), pp.462-484.

[73] Baker, M., 2006. *Translation and conflict: A narrative account*. Routledge.

[74] See Khondker, H.H., 2011. Role of the new media in the Arab Spring. *Globalizations*, 8(5), pp.675-679.

البصـرة عام 2018، اتسـم حراك تشـرين بعفوية ولا مركزية الاحتجاجات وعدم انتمائها لأيِّ جهة أو تبنيها لأي أيدلوجية.
وفي الأيام القليلة السابقة لاندلاع تظاهرات تشرين الأول / أكتوبر، لجأ الشباب المشارك فيها إلى "فيسبوك" وغيره من وسائل التواصل الاجتماعي للدعوة والتحشيد لها. فعلى سبيل المثال، كان محمد حبيب، طالب العلوم السياسية من مدينة الصدر، من أوائل من كتب على صفحته على الفيس بوك داعياً الآخرين المشاركة فيها: "ستكون ثورة شعبية كبيرة غاضبة في بغداد. إرادة الشـعب لا تقهر. لبيك يا عراق. موعدنا 1\10\ 2019".[75] فمنذ البداية، أسـس الحراك لسـردية عابرة للطائفية، تتحدث باسـم الوطن من دون أي انتماءاتٍ ثانوية أو فرعيةٍ أخرى، شكلت تهديداً حقيقياً لأحزاب السلطة تُرجم الى عنفٍ غير مبرر ضد المتظاهرين منذ اللحظة الأولى لانطلاق التظاهرات. فلم تكن لدى محمد أدنى فكرة عن أن دعواته وكلماته التي تحمل بين طياتها آماله وأحلامه ستقابل بالرصاص وسيسقط ليكون شهيدها الأول.
استمر الاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي ليس فقط كأدواتٍ توثيقية، بل كمنابر لمشاركة أهداف ولغة و شعارات ثورة تشرين الأول / أكتوبر. كان من أبرز تلك الشعرات شعار "نازل أخذ حقي" الذي تحول لاحقاً إلى وسـمٍ رائج في مواقع التواصـل الاجتماعي ملخصـاً للواقع المرير للشباب العراقي وحجم المظالم التي طالما تعرض لها والتي طالما سلبت حقه في العيش الكريم. أما شـعار "نريد وطناً" فهو ترجمة لخطاب التظاهرات الوطني الخالص البعيد عن الأحزاب والانتماءات الثانوية الأخرى. فهو تجسيد لإحساس الشباب العراقي بضياع الوطن وتوقهم إلى استعادته من براثن الأحزاب وفصائلها وانتماءاتها الخارجية. أثبت هذا الشعار أنه لم يعد بالإمكان خداع الشـباب الثائر بسـرديات المظلومية للأحزاب الحاكمة التي تلعب على الوتر الطائفي وتغذيه. قلبت هذه الشعارات سردية "الأنا ضد الآخر" التي استثمرتها السلطة الحاكمة وأحزابها لتقسيم الشعب إلى فئاتٍ اثنية وطائفية لتصبح "الأنا" معبرة عن الشعب بكل طوائفه وخلفياته، وليصـبح "الآخر" معبراً عن الأحزاب والطبقة السـياسـية بأكملها. حسـب النظرية الاجتماعية للسـردية، ليس من السـهل تحدي أو قلب السـرديات الكبرى التي تقسـم المجتمعات إلى معسـكراتٍ مختلفة إذ إنها تُمثل أيدلوجياتٍ عصـيةٍ على التفكيك؛ ولكن حراك تشرين تمكّن من إيجاد البديل لها ومقاومتها.
ومن الشعارات الأخرى التي رُفعت خصوصاً بعد إطلاق النار على المتظاهرين كانت شعار "إرحل" و"الشعب يريد إسقاط النظام"، وهي الشعارات التي ارتبطت بثورات الربيع العربي المعروف.[76] ولكن في حالة العراق، لم يكن المقصود رئيس الوزراء السابق وحكومته فحسب بل النظام الهجين المتكون من عدة أحزاب وأذرع مسلحة والمعتمد على المحاصصة الطائفية التي ميزت تقاسـم السـلطة بعد عام 2003. يبدو أن الشـعار الأخير على نحوٍ خاص لم يرق للأحزاب الحاكمة ولماكنتها الإعلامية، كما لم يسـتسـغه إعلام "محور المقاومة" في الدول

---

75. Muhamad Habib تاريخ النشر 30 أيلول 2019
Also see Violent crackdown against Iraq protests exposes fallacy of the country's democracy. The Conversation. Publication dat 10 October 2019.

[76] "مظاهرات العراق..أبرز الشعارات"، سكاي نيوز، تاريخ النشر 2 تشرين الأول 2019.

المجاورة، فاتخذته ذريعةً لتسقيط حركة تشرين الأول / أكتوبر الاحتجاجية، كما سنرى لاحقاً في هذا الفصل. والأمر نفسه حصل مع شعار "إيران برة برة، بغداد تبقى حرة"، الذي ردده المحتجون، تعبيراً عن سخطهم من التدخل الإيراني في العراق.[77]

سياسات التصعيد وسرديات الخطاب الرسمي

طالما كان العنف ولغة التخوين المتمثلة بتأطير المتظاهرين بأوصافٍ لها مدلولاتٍ سلبيةٍ بل وتسقيطيةٍ في أحيانٍ كثيرة سمةً مرادفةً لتظاهرات الأعوام السابقة. إلا أن سياسات التصعيد التي انتهجتها الأحزاب الحاكمة وميليشياتها سواءً على أرض الواقع أو في العالم الافتراضي كانت سياسات غير مسبوقة هذه المرة. رافقت ماكنة العنف والقمع ضد المتظاهرين العزل المتمثلة بـ"القناصة" في أثناء الموجة الأولى من الاحتجاجات، وبعدها القنابل الدخانية والاعتقالات والاغتيالات والملاحقات، ماكنةً إعلامية تحاكي الخطاب الرسمي بل وتفوقه وضوحاً وحدةً في شيطنة المتظاهرين ووصمهم بألفاظٍ مسيئةٍ مختلفة، منها على سبيل المثال: "مندسين"، "بعثية"، "جوكرية"، "عملاء" و"أبناء سفارات"، وغيرها الكثير.[78]

ولم تكن مثل تلك المفردات سوى صدى للغة الإقصائية التي تبنتها السلطات القمعية والدكتاتورية في البلدان التي شهدت ثورات الربيع العربي. بل أنها أيضا كانت صدى لسياسات البعث القمعية خصوصاً خلال انتفاضة عام 1991.[79] ولكن المفارقة هنا أن سياسات التصعيد هذه صدرت عن سلطةٍ تصف نفسها ويصفها العالم الغربي كذلك بأنها سلطة ديمقراطية. فهل يا ترى قتل المتظاهرين في وضح النهار أمام الكاميرات وشيطنتهم من الديمقراطية في شيء؟ تقدم لنا الأمثلة التالية إجابةً تكاد تكون بديهيةً على هذا السؤال.

أُطلِقَت أول رصاصة منذ اليوم من انطلاق التظاهرات. ولكن الخطاب الرسمي لرئيس مجلس الوزراء، حينها، عادل عبد المهدي ولوزير الدفاع نجاح الشمري، آنذاك، طالما أنكر ضلوع أي من القوات الأمنية أو المجموعات المسلحة بقمع المتظاهرين. ففي خطابه الأول بعد اندلاع التظاهرات، حاول عبد المهدي التشكيك بالتظاهرات وتقويضها من خلال اتهامها بزعزعة الأمن وتهديد "الدولة": "نحن اليوم بين خيارَي الدولة واللا دولة... البعض نجح في إخراج المظاهرات من مسارها السلمي، وبعض الشعارات المرفوعة كشف عن محاولات لركوب المظاهرات".[80] يذكر الباحث حارث حسن على مدونة كتبها على الفيس بوك رداً على الخطاب أن لغة عادل عبد المهدي جاءت مشابهة لعبارات أطلقتها الأنظمة العربية في مواجهة انتفاضات الربيع العربي. إذ يمثل التهديد بين الاستقرار والفوضى سياسة تصعيدية للمحافظة

---

77 "إيران برا.. بغداد حرة".. هتافات تهز المدن العراقية". العين الإخبارية. تاريخ النشر 2 تشرين الأول 2019 .

78 "مندسين" إشارةً لعناصر محسوبة على المتظاهرين ساهمت في أعمال تخريب وعنف. "جوكرية" نسبةً الى شخصية الجوكر المقتبسة من فيلم جوكر لعام 2019 ، والتي وظفها بعض المحتجين كرمز للتمرد على الظلم وجذب أنظار المجتمع الدولي لحراكهم والقمع المستمر الذي تعرضوا له. اكتسبت هذه المفردة دلالات سلبية بعد أن استخدمتها الأحزاب للطعن بشرعية التظاهرات. "أبناء السفارات" أي عملاء سفارات الدول الغربية، تحديداً الولايات المتحدة ، بالإضافة لإسرائيل والسعودية.

79 اندلعت انتفاضة 1991 أو الانتفاضة الشعبانية ، نسبة لقيامها في شهر شعبان ، في مناطق من جنوب وشمال العراق ضد نظام صدام حسين البعثي بعد وقت قصير من انتهاء حرب الخليج الثانية. أطلق عليها صدام حسين لقب "صفحة الغدر والخيانة" وتعرضت لقمع مفرط.

80 "عادل عبد المهدي في أول خطاب بعد الاحتجاجات: المطالب وصلتنا". تي أرتي عربي. تاريخ النشر 4 تشرين الأول 2019.

على النظام القائم من خلال تخويف الشـعوب من الجماهير المنتفضـة وتذكيرها بما قد يترتب عليها من عواقب.

إصـرار عبد المهدي على تبني الخطاب ذاته رغم فشـله في سـياقاتٍ دل على عمق الفجوة بينه وبين المتظاهرين، كما دلّ على قراءاتٍ خاطئة للوضـع العراقي. وبهذا الصـدد، يعلق حسـن قائلا "المشـكلة في الحالة العراقية أن الدولة هي اليوم في خدمة اللا دولة، إذ تقف معظم القوى السـياسـية والميليشـياوية فوق القانون، وتحدد من يقود الدولة ومسـارها، وتتجاوز على الدولة وسـلطتها عند الحاجة. اللا دولة هي في كل مكان داخل الدولة، وعبد المهدي لم يفعل ما يكفي لحل الإشكالية".[81]

أما بالنسـبة للخطبة الأولى للمرجعية الدينية العليا في النجف بتاريخ الرابع من تشـرين الأول / أكتوبر عام 2019، فرغم إدانتها للاعتداءات، إلا أن خطابها جاء ضعيفاً وفضفاضاً ملقياً باللوم على القوات الأمنية والمتظاهرين على حدّ سـواء، وذلك من خلال اسـتخدام عباراتٍ تدين الطرفين، ومنها على سبيل المثال: "العنف والعنف المضاد". وخلافاً لشعارات الحراك الأولى، شـدد الخطاب على ضـرورة "الإصـلاح"– لا التغيير الجذري، حيث تكررت هذه المفردة أكثر من مرة. يُعد تكرار المفردات في تحليل الخطاب النقدي وسـيلةً بلاغيةً للإقناع وللتأكيد على موقف سياسي معين.[82] كما ساعد الاستخدام المتكرر لتلك المفردة في خطابات المرجعية التالية على الترويج لسـردية "الإصـلاح" والتي أثرت فعلاً على الحراك وشـعاراته– كما سـيتناول الفصـل لاحقاً. بالإضـافة لذلك، تكررت سـردية التخريب في خطب المرجعية بدءاً من بيانها الأول، فقد استهلت المرجعية خطابها بعبارة "الكثير من الأضـرار على المؤسسـات الحكومية وغيرها"[83]، مما سـمح للأحزاب اللعب على وتر هذه السـردية لاحقاً للتشـكيك بحسـن نوايا المتظاهرين وسلمية الحراك والتأثير على موقف المواطنين منه.[84]

وتعقيباً على خطاب المرجعية الأول بعد التظاهرات، شدد الباحث حارث حسن على الإشكالية التي تواجه المرجعية فهي متورطة في ضلوعها في المنظومة السياسية لمرحلة ما بعد 2003 من جهة، كما أن لديها رأس مال اجتماعي مرتبط بمكانتها الدينية المهمة لدى شريحة كبيرة من المجتمع الشـيعي، من جهةٍ أخرى. هذه الإشـكالية تحتم على المرجعية الموازنة بين الاثنين في الوقت الذي لا يمكنها فيه إحداث تغييراتٍ ملموسـة في النظام السـياسـي، فجاء سـقف التوقعات عما ستتناوله في خطابها عالياً بهذا الخصوص، حسب حسن.[85]

أما الرواية الرسـمية الصـادرة عن وزارة الداخلية فلم تختلف كثيراً عن مضـمون كلمة رئيس الوزراء السـابق، أو عن بيان المرجعية، بل أنها وجّهت اتهاماتٍ مباشـرة للمتظاهرين بالتسـبب بحرق الممتلكات العامة والخاصة. وفي الوقت الذي لم تنكر فيه إطلاق النار على المتظاهرين،

---

[81] Harith Hasan. تاريخ النشر 4 تشرين الأول 2019

[82] See Lahlali, M., 2012. Repetition and ideology in Nasrallah's political speeches. Arab Media & Society, 15, pp.1-13. Tannen, D., 2007. Talking voices: Repetition, dialogue, and imagery in conversational discourse (Vol. 26). Cambridge: Cambridge University Press.

[83] "بيان المرجعية الدينية العليا في العراق حول المظاهرات". قناة العالم. تاريخ النشر 4 تشرين الأول 2019

[84] "عصابات الجوكر تشوه سلمية التظاهرات وتحرق المدن". المسلة. تاريخ النشر 27 تشرين الثاني 2019.

[85] المصدر السابق.

ادعت أن أرقام الضحايا شملت عناصر من القوات الأمنية أيضاً.[86] ولكنها لم توجه أصابع الاتهام لجهةٍ محددة، بل استخدمت عبارة "طرف ثالث" لم تسمه.[87] فدخلت هذه العبارة قاموس العراقيين منذ ذلك الوقت وظل يرددها الآنف ذكرهم بالإضافة إلى مسؤولين آخرين منهم الناطق العسكري لعادل عبد المهدي عبد الكريم خلف، الذي جوبهت تصريحاته المضللة والبعيدة عن الواقع بموجة لاذعة من السخرية.[88] فاستمرت هذه الرواية الرسمية للأشهر التالية. ساهمت هذه العبارة المطاطة والمبهمة في إفلات المتسببين بقتل المتظاهرين من المحاسبة والعقاب، وبتضييع حقوق الضحايا و من ثم عدم إحقاق العدالة.

لم يكن الخطاب الرسمي من دون عواقب، فقد كان له تأثيرٌ كبيرٌ في توجيه الإعلام المعادي للتظاهرات. إذ أعطى مسوغاً للإعلام الحزبي الولائي – أي الموالي لنظام طهران، تحديداً للحرس الثوري الإيراني وكذلك الإيراني، لتخوين الاحتجاجات وتأطيرها ضمن سردية "المؤامرة الكبرى"، وهي سردية طالما رافقت كل الحركات الاحتجاجية في العالم العربي. فهي أسهل وسيلة لضرب شرعية التظاهرات وأحقية الأسباب التي يخرج المتظاهرون من أجلها. فعلى سبيل المثال، منذ اليوم الأول لخروج المتظاهرين إلى ساحة التحرير، استخدمت قناة العهد التابعة لحركة عصائب أهل الحق مفردة "مندسين" في إشارةٍ منها إلى المتسببين بسقوط ضحايا في صفوف المتظاهرين والقوات الأمنية، وفقاً لموقعها على الإنترنت، متهمة المتظاهرين بتخريب الممتلكات.[89]

أما فيما يخص الجانب الإيراني، فقد غرد المرشد الإيراني علي خامنئي في أول ردٍ له على احتجاجات تشرين واصفاً إياها بـ"المؤامرة التي صنعها الأعداء".[90] وعلى نحوٍ متصل، تحدثت وكالة فارس الإيرانية في مقالٍ مطولٍ بعنوان "ماذا وراء إثارة الفوضى في العراق؟"– يبدو أنها رفعته لاحقاً من موقعها– عما وصفته بحراك "مريب" ممول إعلامياً من السعودية وإسرائيل وبريطانيا.[91]

ولم تقتصر سرديات نظريات المؤامرة على الإعلام الإيراني حسب، بل سيطرت أيضاً على وكالات إعلامية عربية أخرى معروفة بأجنداتها الولائية– أي التابعة لنظام طهران. فنشر موقع قناة الميادين التلفزيونية، الممولة من إيران، هو الآخر مقالاً مطولاً عن تظاهرات العراق واتهامه لها بإثارة الفوضى والكراهية بين الشعبين العراقي والإيراني على حد تعبيره. ورغم اعتراف الموقع بمشروعية المطالب التي رفعها المحتجون، إلا أنه لم يكن مرتاحاً لمشاعر الغضب التي اعترت المحتجين تجاه الدور الإيراني الواضح في العراق. فتلاعب، بشكلٍ فج، في الشعارات التي رفعها المتظاهرون ضد النظام الإيراني، من خلال تفسيره لها بأنها شعاراتٍ معاديةٍ للشعب الإيراني. كما أن الميادين لم يرق له على ما يبدو شعار "الشعب يريد

---

[86] "الداخلية تنفي استهداف المتظاهرين"، بي بي سي، تاريخ النشر 6 تشرين الأول 2019.
[87] "طرف ثالث يعرفه الجميع قتل 107 متظاهرين"، عربي بوست، تاريخ النشر 8 تشرين الأول 2019.
[88] "#غرد_مثل_خلف": عراقيون يسخرون من الناطق باسم عبد المهدي"، العربي الجديد، تاريخ النشر 13 تشرين الثاني 2019.
[89] "القوات الأمنية تخلي ساحة التحرير من المتظاهرين بعد إصابة ضابط وجنديين"، العهد، تاريخ النشر 1 تشرين الأول 2019.
[90] "خامنئي: احتجاجات العراق مؤامرة من الأعداء"، الوطن، تاريخ النشر 7 تشرين الأول 2019.
[91] "المظاهرات العراقية في عيون الإعلام الإيراني"، نون بوست، تاريخ النشر 7 تشرين الأول 2019.

إسقاط النظام" متخذاً إياه كشماعةٍ لتخوين التظاهرات ومتناسياً أن النظام القائم كان قد أسس على يد الأمريكان بالأساس:
وراحت الصيحات تتعالى، إن (الشعب يُريد إسقاط النظام)، فشعار (الشعب يُريد إصلاح النظام)، في الحال العراقية يُعدّ مطلباً مُلحّاً لتجاوز المشاكل الخدمية والأمنية، لكن الشعار الأخطر (إسقاط النظام)، هذا دليل على مشروعٍ مدعومٍ من الخارج والداخل، ويتّخذ من مطالب المواطنين غطاء لتحقيق أهداف أخرى تتمثّل بإسقاط النظام في بغداد واستبداله بآخر، ربما يكون ودوداً مع أطرافٍ في المنطقة مثل "إسرائيل" وظلاً لدول من أميركا والسعودية.[92]

الموجة الثانية من الاحتجاجات: سرديات "الجوكر"

من أدوات التأطير التي استخدمها أحد النشطاء والفنانين الداعمين للحراك كانت صورة الجوكر– وهو شخصية سينمائية من فيلم جوكر[93] الذي تزامن عرضه مع اندلاع الاحتجاجات ومثلت الإنسان المتمرد على كل ما تعرض له من عنفٍ وتهميشٍ اقتصادي واجتماعي خلال طفولته ومراهقته– وقام المصمم بتركيبها على صورٍ من الاحتجاجات تظهر المتظاهرين وهم يجابهون العنف المسلح كرمزية تلفت النظر إلى نتائج الإهمال والإقصاء الحكومي. فبحسب مصمم الصور، أحمد شوقي، ذكّرته مشاهد ساحات الاحتجاج بمدينة "جوثام" المتخيلة في الفيلم والتحول الذي يحصل فيها حيث تسود فيها الجريمة والسوداوية، مبيناً أن الهدف من هذه الاستعارة هو التحذير من احتمالية حصول تحول مشابه في بغداد والمدن الاخرى، ولم يكن دفاعاً عنه.[94]

مع التحشيد للموجة الثانية من الاحتجاجات– بعد أن قرر المتظاهرون تعليق الاحتجاجات مؤقتاً لتزامنها مع أربعينية وفاة الإمام الحسين، وهي مناسبة دينية لها أهميّة خاصة عند الشيعة، وإعلان يوم الخامس والعشرين من شهرين تشرين الأول / أكتوبر موعداً لانطلاقها مرة ثانية– [95] ، تم تداول تلك الصور بشكلٍ واسع على مواقع السوشيل ميديا في العراق، ولاقت تفاعلاً كبيراً. إلا أنها أثارت الجدل أيضاً إذ لم يرحب الجميع باستخدام استعارة من خارج الثقافة العراقية لتمثيل التظاهرات.

ظهر هذا الجدل جلياً بعد أن قام عدد من النشطاء بتغيير صور حساباتهم الشخصية على فيسبوك وتوتر إلى صورة الجوكر بهدف جذب الرأي العام العالمي إلى ما يحصل في العراق. وتسبب الجدال حول تمثيل الصورة للتظاهرات إلى قيام الذشطاء برفعها سريعاً. إلا أن ذلك لم يمنع الأحزاب من أن تنتهز الفرصة لتستخدم لفظ "الجوكر" كوسيلة لشيطنة المتظاهرين، من خلال استخدامها المتكرر للمفردة مع وصف "عملاء"، بهدف تسقيط التظاهرات وتشويه صورتها، والتأثير على زخمها. فارتبطت بتلك المفردة مدلولاتٍ سلبية حرفت المعنى الأصلي لها، مستحضرةً سردية معادية للحراك، متهمةً المتظاهرين والداعمين لهم بالخيانة والتواطؤ

---

[92] "تظاهُرات العراق.. من المستفيد من الفَوضى؟"، الميادين، تاريخ النشر 7 تشرين الأول 2019.

[93] فيلم جوكر الأمريكي لعام 2019 من إخراج تود فيليبس، وبطولة خواكين فينيكس، الذي لعب دور الجوكر.

[94] "Meet Ahmed Shwqy, the man behind Baghdad's viral Joker battle images". The National. Publication date 01 Dec.2019.

[95] "العراق.. تعليق المظاهرات الى ما بعد أربعينية الحسين"، أرم نيوز، تاريخ النشر 8 تشرين الأول 2019.

مع الغرب.[96] في هذا الإطار، تصف منى بيكر التنافس بين السرديات على أنه ديناميكي وغير جامد، وكلما كانت المؤسسة الحزبية أو الإعلامية وراء تفعيل وتحريك سردياتٍ معينة، كلما أصبح من الصعوبة إلغاؤها واستبدالها بسردياتٍ بديلة.

وفي هذا السياق، ظلت مفردة "الجوكر" مستخدمة، وتزامنت مع أوصافٍ مسيئةٍ أخرى، مثل "بعثية"، "مندسين"، أو "عملاء السفارات". وعلى وجه الخصوص، لم تكن كلمة "بعثية" غير مألوفة، بل على العكس من ذلك، فلطالما دأبت الأحزاب على اللجوء إليها كلما أحست بالخطر كأداةٍ لإقصاء من يعارضها وتخويف الآخرين منهم، وكسب ودهم ودعمهم.[97]

أما عبارة "عملاء الجوكر" فلقد تصدرت عناوين الفقرات الإخبارية أو الفيديوهات التي تنشرها قنواتٍ حزبيةٍ كقناة النجباء التابعة لحركة النجباء: "عملاء الجوكر الأمريكي السعودي يهاجمون المتظاهرين السلميين بالمولتوف" بحسب القناة.[98] وهذا مثال صارخ على محاولة تلك القنوات تلطيخ سمعة المتظاهرين وتصنيفهم إلى معسكرين: عملاء الجوكر التابعين للولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، والمتظاهرين السلميين، في تلفيقٍ وليٍ للحقائق. ولا يرمي تبني مثل هذا الخطاب إلى شيطنة المتظاهرين فحسب، بل إنه يتعدى ذلك لخلق الفرقة وزرع البغضاء بين أبناء الشعب الواحد، و من ثم تمكين الأحزاب وتعزيز سيطرتهم. كما واستخدم الزعيم الديني المثير للجدل مقتدى الصدر تصنيفاً مماثلاً للمتظاهرين في تغريداته على حسابه في "تويتر" بين سلمي ومخرب، معطياً المسوغ للجماعات المسلحة في قمع المتظاهرين والتنكيل بهم.[99]

تكمن خطورة مثل هذا الخطاب بتزامنه مع التعتيم الإعلامي والخطاب الرسمي المناهض للتظاهرات، بالإضافة لضعف شبكة الإنترنت. بمعنى آخر، كانت البروبغاندا الإعلامية للأحزاب الولائية تحاول جاهدةً السيطرة على سردية واحدة لوصف الأحداث من خلال إضعاف والتشكيك بأي سردياتٍ أخرى يحاول المتظاهرون الترويج لها باستخدام مواقع السوشيل ميديا. فكان لسردية الاستقطابات والثنائيات أثرها البالغ في شيوع تصنيفاتٍ معاكسة اكتسحت مواقع التواصل الاجتماعي؛ كان من أبرزها مفردة "ذيول" التي تُستخدم للإشارة إلى المنتمين أو الداعمين للأحزاب والسلطة باعتبارهم يدينون بالولاء لإيران.

بالإضافة إلى ذلك، لجأ بعض المتظاهرين والداعمين لهم إلى الاستعارة من القاموس اللغوي للأحزاب وميليشياتها كأسلوبٍ تكتيكي للرد على اتهامات الأحزاب للمتظاهرين وصناعة سرديات جديدة. فعلى سبيل المثال، استخدم الكثير من الداعمين للحراك كلمة "مندسين" لوصف العناصر المندسة بين صفوف القوات الأمنية، وضلوعها في قتل المتظاهرين. كما ردد آخرون عبارة "أبناء أو عملاء السفارات" في إشارةٍ للداعمين للثورة عن بعد والنشطاء الذي

راجع حاوي ، صلاح.2021. "صراع الايديوغرافات: إنتاج التحيز البلاغي في الخطاب التشريني". في *الخطاب الثائر لسانيا ونقديا: دراسات في شعارات انتفاضة تشرين العراقية*. خالد حويلر شمس. محرر. بغداد: دار دجلة الأكاديمية. ص: 27-55. [96]

[97] "من البعث الى "الجوكر"..7 "أكاذيب" روجها الإعلام "الولائي"عن الإحتجاجات". ألترا عراق. تاريخ النشر18 كانون الأول 2019.

[98] "حميد الحسيني..عملاء الجوكر الأمريكي السعودي يهاجمون المتظاهرين السلميين بقنابل المولتوف". قناة النجباء الفضائية. تاريخ النشر 8 كانون الأول 2019.

[99] "مقتدى الصدر في مواجهة تشرين مجددا". إندبندنت عربية. تاريخ النشر 8 تشرين الأول 2019.

ســـاهموا في التغطية الإعلامية اليومية للاحتجاجات على حســـاباتهم الشـــخصـــية في مواقع التواصل الاجتماعي.[100]

تذكر بيكر أن الكلمة نفسـها ممكن أن تسـتدعي سـردية مختلفة حسـب الجهة التي تسـتعين بها والسياق الذي تذكر فيه، وقد تكون أسلوباً لمقاومة وتحدي السرديات المؤسساتية المسيئة. ولكن في هذه الحالة، أجادل بأن تلك العبارات كان لها مردوداً سلبياً، فقد ساهم إعادة تدويرها– دون قصـد – في تغذية لغة الشـيطنة وسـردياتها. فيبقى التصـنيف والتفرقة الاسـتراتيجية المفضـلة للأحزاب السـياسـية الحاكمة في العراق للمحافظة على وجودها. وتُذكر هذه الثنائيات الجديدة التي سوق لها الإعلام الحزبي والميليشياوي بقوة بالاستعانة بجيوشه الإلكترونية باللغة الطائفية التي مكنت الأحزاب من فرض سيطرتها وسطوتها ما بعد 2003.

دفع التضـليل الإعلامي المشـحون بلغة الكراهية وسـرديات الانقسـام والتفرقة المتظاهرين إلى المحاولة في أخذ زمام المبادرة من جديد من خلال اللجوء إلى الإعلام التقليدي كما يناقش القسم التالي.

إعلام الانتفاضة: صحيفة محلية وإذاعة من دون أثير

دفعت ســـياســـات الأحزاب التصـــعيدية ومحاولاتهم للســـيطرة على ســـرديات الاحتجاج في الإعلامين التقليدي والافتراضي المحتجين إلى الجمع بين المنصات الرقمية الحديثة والمنصات الإعلامية التقليدية لتمكينهم من اســـترداد التحكم في ســـردياتهم وفي نقل المعلومات الخاصـــة بالاحتجاجات بشكلٍ دقيق وشفاف. تشير الدراسات إلى أنه على الرغم من التطور في وسائل التواصـــل وتقنيات المعلومة، إلا أن الحركات الاجتماعية غالباً ما تعتمد على الإعلام التقليدي والرقمي معاً لتحقيق تأثيرٍ مضـــاعف.[101] يســـاعد الإعلام التقليدي في قلب علاقات القوة من خلال التحكم في سرديات القوى المهيمنة، وخلق "وسائط مُجسدة" تسمح التواصل بين الأفراد في فضاءات الاحتجاج.[102] فصدرت صحيفة "تكتك"[103] مطلع تشرين الثاني الأول / أكتوبر عام 2019 لتصبح الجريدة الرسمية للحراك الاحتجاجي أعقبها مباشرة انطلاق إذاعة "نريد وطن" المحلية والتي كانت عبارة عن "منصـــة إعلامية عراقية من دون أثير أو بث فضـــائي" باستخدام معداتٍ بسيطة كمكبرات الصوت والميكسرات[104] إلا أنها كانت ذات رمزية مهمة فقد

[100] "شيطنة الأخر" والمفردات متعددة المعاني في الثورة العراقية"، إرفع صوتك، تاريخ النشر 12 كانون الأول 2019.

[101] See Van de Donk, W., Loader, B.D., Nixon, P.G. and Rucht, D. eds., 2004. Cyberprotest: New media, citizens and social movements. Routledge.

[102] See Juris, Jeffrey S. (2012). Reflections on #occupy everywhere: Social media, public space, and emerging logics of aggregation. American Ethnologist, 39(2), 259–279. Lin, Z., 2016. Traditional Media, Social Media, and Alternative Media in Hong Kong's Umbrella Movement. Asian Politics & Policy, 8(2), pp.365-372.

[103] تكتك هي التسـمية المسـتخدمة في العراق لوصـف المركبة الصـغيرة المتكونة من ثلاث عجلات والتي تُسـتخدم وسـيلةَ نقلٍ عن طريق الأجرة في العراق وبلدانٍ أسيوية أخرى حيث تُعرف بتسمياتٍ مختلفة.

[104] "هنا إذاعة "نريد وطن" من ساحة التحرير"، العين الإخبارية، تاريخ النشر 21 كانون الأول 2019.

انطلقت من قلب ساحة التحرير بالقرب من المطعم التركي الذي كان يُعتقد بأنه معقل القناصين مستعيدةً بذلك السيطرة على الفضاء الحضري للاحتجاج- ولو على نحوٍ مؤقت.
كانت الصحيفة والإذاعة نتاجاً طوعياً مشتركاً بين المتظاهرين وبعض الصحفيين والنشطاء العراقيين لنقل أخبار الانتفاضة بلسان المشاركين فيها بعيداً عن التشويه الحزبي من جهة، ولتفكيك السرديات المشيطنة للحراك الاحتجاجي وتحديها عن طريق تسليط الضوء على سرديات الحراك الوطنية، من جهةٍ أخرى. وأتى عنوان الصحيفة تثميناً للدور البطولي الذي لعبه سواق التكتك- وهي تسمية شائعة في العراق تصف مركبة نارية صغيرة ذات ثلاث عجلات تستخدم وسيلةً للانتقال بالأجرة في العراق ودول أسيوية أخرى - في نقل المصابين من المحتجين وإسعافهم وسط إطلاق الرصاص والدخانيات.[105] صدرت عشرة أعداد من الجريدة للفترة من شهر تشرين الثاني الأول ولغاية كانون الأول / ديسمبر لتتوقف بعدها لأسباب سأذكرها لاحقاً.[106]
أما عنوان الإذاعة فعكس شعار التظاهرات الأول وهوية الحراك الوطنية وإصرارها على السلمية مقابل العنف المسلح، كما جسد ذلك البيان الأول للإذاعة: "بصوت الوطن.. بروح الوطن.. بمعنى الوطن.. بسلمية الوطن، نعلن انطلاق إذاعة المتظاهرين، إذاعة الوطن".[107]
لم يُكتب لهذه المنصة الاستمرار إذ إنها بقيت في نطاق ساحة التحرير ولم تسمح ماكنة القتل اليومية وماكنة التضليل الإعلامية للأحزاب من أن يتوفر لها تردد لتبث في أنحاء العراق كافة، كما كان يطمح المتظاهرون. بيد أنها ألهمت شباب ساحة الحبوبي في محافظة الناصرية لإطلاق مشروعٍ مشابه وظف "فيسبوك" لتحقيق استمرارية الحراك.[108]
أركز في ختام هذا الفصل على السرديات التي أنتجتها صحيفة تكتك وأهميتها في إصدار صحف أخرى والأسباب التي حالت دون استمرارها.

تكتك وأخواتها

تميزت صحيفة تكتك منذ عددها الأول بلغةٍ وسرديةٍ عابرةٍ للطائفية والحزبية، وبطرحها لمطالب المتظاهرين ووجهات نظرهم من دون التصريح بأسمائهم، وإنما الاكتفاء بعبارة "أبو التكتك" للتعريف بكاتب المقال. كشفت الصحيفة النقاب عن جرائم القتل بحق المتظاهرين العزل بإشارتها إلى "حكومة القناصين" في أكثر من عدد، ومن خلال ترجمتها لتقارير منظمات حقوقية توثق هذه الانتهاكات، مقابل تأكيدها على سلمية الاحتجاجات. ففي مقال للكاتبة أفياء أمين الأسدي بعنوان "إن قتلتمونا جميعا، فمن ستحكمون؟" ، طغت سردية سلمية الحراك على النص الذي اختتمته الكاتبة بقولها "هذه الثورة سلاحها الماء والقطن مقابل رصاص معدني بسرعة الضوء، وكمامة بسيطة تجعلنا نشعر بالأمان رغم أنها لا تعمل في أغلب الأحيان، وصوت لا يعرف غير الغناء والبكاء".[109] كما أنها حرصت على استذكار

---

[105] "تكتك..صحيفة الحراك العراقي"، الشرق الأوسط، تاريخ النشر 5 تشرين الثاني 2019.
[106] جميع أعداد جريدة تكتك متوفرة على قناة عامة على التيلغرام بالاسم نفسه: جريدة التكتك
[107] "إطلاق إذاعة نريد وطن داخل ساحة التحرير وقراءة البيان الأول"، ناس، تاريخ النشر 4 تشرين الثاني 2019.
[108] إذاعة صوت الحبوبي.
[109] أفياء أمين الأسدي، "إن قتلتمونا جميعا، فمن ستحكمون؟"، تكتك العدد الخامس. 17 تشرين الثاني 2019.

شهداء الحراك، خصوصا صفاء السراي بوصفه أيقونة وطنية تمثل حراك تشرين. ففي العدد العاشر، احتفت تكتك بالشهيد واصفة إياه بـ"قِبلة" الحراك لما تمثله رمزيته من "أحلام الشباب... اسم هذا الثائر صار معنى يؤدي مباشرة للكشف عن تطلعات الشباب بالوطن الذي عبروا عنه بشعار "نريد وطناً".[110]

أما عنوان الصفحة الرئيسية في عددها الأول فلقد كان معبراً عن الحالة العراقية وحراك تشرين الأول / أكتوبر بقيادة الشباب العراقي: "الشباب يعلنون قيامة العراق". كما تضمن العدد الأول "خارطة طريق لإنقاذ العراق" تألفت من عدة نقاط عبرت عن معظم مطالب المتظاهرين آنذاك: منها استقالة الحكومة وتعديل قانون الانتخابات والدستور وتفعيل قانون الأحزاب. أما الافتتاحية التي كتبت بقلم "أبو التكتك" فجاءت بعنوان "المستحيل ليس عراقيا: العراق كله الآن في ساحة التحرير". كانت المقالة الافتتاحية بمثابة صرخة مدوية ضد النظام القائم ولخصت مطالب الحراك الاحتجاجي بمطلبٍ واحد لا لبس فيه: "إسقاط النظام عنوان هذه الانتفاضة وسقفها الوحيد.. وتحت هذا السقف تتحقق كل المطالب الأخرى". كانت المقالة انعكاساً للشعارات الأولى التي رفعها المحتجون في سوح الاحتجاج.[111]

ولكن المطلب بإسقاط النظام تغير بعد فترة للمطالبة بإقالة الحكومة على وجه الخصوص. ففي عدد الجريدة السابع تصدر هذا المطلب الصفحة الأولى: "إقالة الحكومة هو المطلب.[112] أعتقد أن من أسباب التحول في هذه السردية كان الواقع السياسي وقمع حكومة عبد المهدي المتواصل للمتظاهرين. وبهذا الخصوص، برر الكاتب سجاد حسين في مقالٍ له نُشر في العدد العاشر من الجريدة هذا التحول في المطالب بالعنف المفرط الذي تعرض له المحتجون، إذ يذكر: "لم تكن استقالة رئيس الوزراء عادل عبد المهدي المطلب الأول للمتظاهرين عند خروجهم مطلع تشرين الأول...، إذ كان هتاف "الشعب يريد إسقاط النظام" هو السائد في بغداد وجميع المحافظات المتظاهرة، لكن ما إن سقطت أول قطرة دم في ساحات الاحتجاج بالتزامن مع تمسك الأحزاب السياسية ببقاء عبد المهدي على رأس السلطة التنفيذية، تحول رئيس الوزراء إلى "أيقونة سلبية" يستهدفها المتظاهرون بهتافاتهم ومطالبهم، كما أن الاستقالة صارت الثمن الأول لدماء المئات الذين سقطوا في التظاهرات".[113]

بالإضافة لذلك، أجادل بأن توجيهات مرجعية النجف في خطبها السياسية وتأكيدها ضرورة "الإصلاح"، من جهة، والموقف الداعم للأمم المتحدة عن طريق ممثلتها جينين هينيس-بلاسخارت من جهة أخرى، لعبت دوراً في تغيير مطالب وسرديات الحراك. وبالفعل، سلطت الجريدة الضوء في أكثر من مناسبة على رؤية المرجعية مرحبةً بوقوفها مع المتظاهرين، نكاية بالأحزاب التي كانت تستغل خطب المرجعية وتفسرها بشكلٍ مغايرٍ مؤيدٍ لها. ففي افتتاحية عددها الثالث وقبل يوم من خطبة المرجعية الأسبوعية، حثت الصحيفة المرجعية على

---

[110] أحمد الشيخ ماجد، "صفاء السراي.. قبلتنا"، تكتك، العدد العاشر. 5 كانون الأول 2019.

[111] "تكتك.. جريدة شبابية جديدة من ساحة التحرير". ألترا عراق. تاريخ النشر 4 تشرين الثاني 2019.

[112] هيئة تحرير تكتك، "إقالة الحكومة هو المطلب"، تكتك، العدد السابع، 21 تشرين الثاني 2019.

[113] سجاد حسين، "استقالة عبد المهدي.. خطوة أولى نحو الإصلاح أم خطة بديلة للكتل السياسية؟"، تكتك، العدد العاشر، 5 كانون الأول 2019.

أن تقف في صـــف المتظاهرين مشـــددةً على أهمية دعمها لهم، فكان عنوانها: "المرجعية في خندق الشعب".[114]
وعلى الرغم من مقالاتها الناقدة لبلاســخارت، غير أن موقف الجريدة عموماً كان مع أن تؤدي الأمم المتحدة دوراً في حل الأزمة في العراق عن طريق تنفيذ عددٍ من "الاصـــلاحات". فمثلاً في عددها الرابع، نقلت الصـــحيفة موقف المرجعية من التظاهرات حســـب تصـــريحات بلاســخارات إثر لقائها بالمرجع الســيستاني: "أضــافت بلاســخارت في مؤتمر صــحفي، أن المرجعية قلقة من عدم جدية القوى السياسية في إجراء الإصلاحات".[115]
بالإضافة إلى سردية إسقاط النظام، سادت سردية رافضة لإيران ولتدخلها في العراق: "وجدت الســلطة حلاً لمعضــلات الشــباب العراقي في إغراق العراق بالمخدرات الإيرانية ضــاربة عصـــفورين بحجر: إلهاء الشـــباب من جهة ودعم اقتصـــاد الجمهورية الإســـلامية من جهة أخرى".[116] تكررت هذه السردية في مقالة أخرى بقلم الصـحفي أحمد الشـيخ ماجد إذ سلطت الضـوء على ردود فعل النظام الإيراني من حراك الاحتجاجي ومحاولاته لتشـويه صـورتها في إعلامه الرسمي، وفسرته على أنه "عداء لشيعة العراق".[117]
لم تغب هذه السردية من أعداد الجريدة اللاحقة، فمثلاً في عددها الرابع وفي مقالة مترجمة عن تقرير لمنظمة العفو الدولية تصـــدر الصـــفحة الثانية من العدد عنواناً يتهم النظام الإيراني بضـــلوعه بشـــكلٍ مباشـــر في قمع المتظاهرين: "قنابل إيرانية في رؤوس المتظاهرين العراقيين!".[118] أما العدد الخامس فقد احتوى على مقال بعنوان: "شـباب العراق.. ثورة الوعي ضد أطماع إيران".[119]
يبدو أن الأحزاب استغلت هذه السردية لتسقيط لصحيفة عن طريق اتهامها بانحيازها للغرب[120] رغم أنها ومنذ عددها الأول تبنت موقفاً واضـحاً ضـد الدور الأمريكي في العراق. ففي المقال نفســه للشــيخ ماجد أعلاه، وصــف الكاتب الدور الإيراني في العراق بعد عام 2003 على أنه "تخادم مع ما صـنعه الغزو الأمريكي من نظام يتوافق مع التضـاريس الطائفية والمكوناتية في العراق... لم تدعم إيران الدولة في العراق خلال عقد ونصـف". في النظرية الاجتماعية لتحليل السـرديات، تؤطر المفردات أو الأوصـاف سـرديات سياسـية أو مجتمعية سـائدة في المجتمع. فورود كلمة "غزو" في النص هنا يعكس سـردية رافضـة للتدخل الأمريكي في العراق، تحمله المسؤولية – ولو بشكل جزئي– عن الفوضى التي حلت بالعراق.
وربما في محاولة للرد على اتهامات الأحزاب، أصـــبحت نبرة الجريدة أكثر حدة من التدخل الخارجي أياً كان مصـدره. فعلى سـبيل المثال، حملت افتتاحية العدد الثاني عنواناً واضـحاً من هـذا الموقف: " لا أمريكـا.. لا إيران"، وجـاء في ختـامهـا، "الثورة العراقيـة تهزأ بهـذه

---

[114] أبو التكتك، "المرجعية في خندق الشعب"، تكتك، العدد الثالث، 7 تشرين الثاني 2019.
[115] هيئة تحرير تكتك، "السيستاني: المتظاهرون لن يعودوا إلى منازلهم"، تكتك، العدد الرابع، 12 تشرين الثاني 2019.
[116] أبو التكتك، "المستحيل ليس عراقياً"، تكتك، العدد الأول، 3 تشرين الثاني 2019.
[117] أحمد الشيخ ماجد، "نظرة إيران إلى احتجاجات تشرين.. عداء لشيعة العراق"، تكتك، العدد الأول، 3 تشرين الثاني 2019
[118] "قنابل إيرانية في رؤوس المتظاهرين العراقيين!"، تكتك، العدد الرابع، 12 تشرين الثاني 2019.
[119] محمد طيفوري، "شباب العراق.. ثورة ضد أطماع إيران"، تكتك، العدد الخامس، 17 تشرين الثاني 2019.
[120] "جريدة "تكتك" والنقد التربصي ذو الأحكام المسبقة للانتفاضة وما يصدر عنها". البديل العراقي. تاريخ النشر تشرين الثاني 2019.

الاصـطفافات وتعلن بأنها فتحت الباب مشـرعا لهوية عراقية جديدة ووعي وطني لن يرتضـي بعد اليوم أن يكون تابعا لإيران وأمريكا معا".[121]
وفي العدد السادس للصحيفة، ظهر في صفحتها الأخيرة– كما هو معتاد في كل عدد– صورة من إحدى سـاحات الاحتجاج تلخص مطالب ومواقف الحراك. وبهذا الصـدد، كانت الصـورة مؤطرة للسردية المناهضة للتدخل الخارجي في شؤون العراق، وأكد العنوان المرافق للصورة تلك السردية: "منتفضو تشرين يرسمون موقفهم.. لا أمريكا لا إسرائيل.. لا سعودية لا إيران".
وفي افتتاحية العدد الثامن، حمل الكاتب كلاً من أمريكا وإيران المسؤولية عن "خراب العراق" واصفاً إياه بـ"مشروع تناوب عليه الأمريكان والإيرانيون بدأب واجتهاد".[122]
منذ صـــدور عددها الأول، لاقت الجريدة ترحيباً من المتظاهرين والداعمين للثورة حتى إنها ألهمت المتظاهرين في ساحات الاحتجاج المختلفة في المدن العراقيّة الأخرى لإصدار صحفٍ مماثلة. وبالفعل، صـــدر عدد من المنشـــورات المطبوعة في النجف وكربلاء، على رأســـها صحيفتي "صوت الطلبة" و"اعتصامات من النجف"، وصحيفة "25 تشرين" في كربلاء.[123] لم يكن تأثير جريدة تكتك محلياً فقط، بل كان عابراً للعراق فبعد فترةٍ قصـيرةٍ من إصـدارها، صدرت صحيفة "17 تشرين" الناطقة باسم الحراك الاحتجاجي في لبنان.[124]
كما أنها مهدت لإصدار أول نشرة نسوية بعنوان "نساء الانتفاضة" ذات التوجه الاشتراكي لتغطية مشاركة المرأة العراقية في الاحتجاجات ونقل صوتها ومطالبها بالإضافة إلى تسليطها الضوء وللمرة الأولى على قضايا نسوية تخص المرأة وحقوقها ومساواتها مع الرجل، فكان شعارها "الحرية والمساواة التامة بين المرأة والرجل". ويعكس هذا الشعار سردية الصحيفة الرئيسية وهي سردية مغايرة لسردية الأحزاب الإسلامية التي اضطهدت المرأة العراقية على مدار السنوات السابقة وحاولت اسكاتها ومنعها عن التعبير عن حقوقها بشتى الطرق.[125]
فبحسب مقالات نساء الانتفاضة، لهذا السبب تحديداً، شكل حضور المرأة البارز في الحراك الاحتجاجي "تهديداً للقوى السائدة من أحزاب إسلامية وقوى وعشائر رجعية ومحافظة. وشكل تهديداً للتوازن الأيديلوجي الذي يقوم عليه النظام السـائد". وبالفعل، ترجمت الأحزاب الحاكمة هذا التهديد إلى لغة تسقيطية شديدة اللهجة بحق المتظاهرات في وسائل إعلامها المختلفة وفي خطابات قادتها، خصـوصـاً رجل الدين مقتدى الصـدر الذي هاجم النسـاء أكثر من مرة في تغريداته.[126] فكانت السردية السائدة تربط مشاركة النساء بـــ"الانحلال والفساد الأخلاقي".[127]
وبجانب التصعيد الإعلامي ضد النساء، تعرضت الكثير من الناشطات إلى حملات تصفية واغتيالات واختطاف.[128]

---

[121] أبو التكتك، "لا أمريكا.. لا إيران"، تكتك، العدد الثاني، 6 تشرين الثاني 2019.
[122] أبو التكتك، "مخلوقات واشنطن التي أرضعتها طهران"، تكتك، العدد الثامن، 24 تشرين الثاني 2019.
[123] "صوت الطلبة... صحيفة لإيصال صوت متظاهري النجف العراقية"، العربي الجديد، 20 كانون الثاني 2019.
"على أثر "تكتك" بغداد.. النجف تصدر العدد الأول من جريدة اعتصامات". يس عراق. تاريخ النشر 24 تشرين الثاني 2019.
[124] "تكتك" و"17 تشرين": للحراك صحف ورقية". بي بي سي. تاريخ النشر 29 تشرين الثاني 2019.
[125] نساء الانتفاضة، صفحة على موقع فيسبوك.
[126] "العراق: نساء ساحة التحرير يوجهن رسالة إلى التيار الصدري"، درج، تاريخ النشر 14 شباط 2020.
[127] "عاهرات وسماسرة تشرين ألعنهم الله"، حركة ربع الله، تاريخ النشر 12 كانون الأول 2019.
[128] "استهداف "نساء الثورة"...حالة اختطاف جديدة تثير غضب المتظاهرين في العراق"، إندبندنت عربية، تاريخ النشر 13 تشرين الثاني 2019.

رغم أهميتها، كان عمر تكتك قصـــيراً، فيبدو أن الجريدة لم تســـتطع الاســـتمرار بعد عددها العاشـر، الذي صـدر بداية شـهر كانون الأول / ديسـمبر ٢٠١٩، بعد أن أخذ الحراك بالتشـظي والتراجع تدريجياً لعدة أسـباب يصـعب حصـرها، في مقدمتها تصـاعد العنف ضـد المتظاهرين وتزايد حملات الاغتيـالات والملاحقات والتهديدات ومـا رافقهـا من تكثيف للحملـة الإعلاميـة المنظمة والشـرسـة لشـيطنة وتخوين الحراك، وأخيراً انتشـار وباء كوفيد -19 الذي أثر على زخم الاحتجاجات وأضعفها تدريجياً.

الخاتمة

طرح حراك تشـرين الأوّل / أكتوبر مجموعةً من السـرديات المغايرة لكل السـرديات الرسـمية للأحزاب الحاكمة ما بعد 2003، والتي كانت تتغذى على التخندق الطائفي والمظلومية ومعاداة "الآخر" المختلف. فخلقت ســـرديات تشـــرين واقعاً جديداً يتمحور حول الوطن والحقوق ونبذ التدخل الخارجي بمفرداتٍ لم تعد مألوفة فقد غربتها أحزاب السلطة لسنين. اعتمد المتظاهرون قبل اندلاع الاحتجاجات وفي أثناء الفترة الأولى منها على وسائل التواصل الاجتماعي للتحشيد للتظاهرات وتوثيقها على نحوٍ مشابه لثورات الربيع العربي.

كانت السـرديات الجديدة صـادمة للسـلطة وللأحزاب الحاكمة وميليشـياتها. فلم تكتف بالتصـعيد ضـــد المتظاهرين على الأرض من خلال القمع التعســـفي، بل نقلت حربها ضـــد الحراك إلى الإعلام بشـقيه التقليدي والرقمي. أعطى الخطاب الرسـمي للحكومة المسـوغ للأحزاب لشـن حملتها الإعلامية التسـقيطية ضـد التظاهرات. فسـوقت لسـرديات معاديةٍ ومشـيطنةٍ للتظاهرات والمشـــاركين فيها أو الداعمين لها. ولم يقتصـــر الأمر على الإعلام المحلي بل كانت تلك السرديات عابرة لحدود العراق حيث ساهم الإعلام الولائي، خصوصاً في بلدانٍ أخرى كإيران ولبنان، في إدامة زخمها وتعزيزها.

ازدادت حدة لغة التخوين وســـردياته بعد الموجة الثانية من التظاهرات واســـتخدام صـــورة "الجوكر" بشـكلٍ رمزي للتعبير عن الحراك، إذ اتخذت الأحزاب من الصـورة ذريعةً إضـافية لتشـويه التظاهرات واتهام المتظاهرين بالعمالة للدول الغربية وللملكة العربية السـعودية؛ وبذلك اكتســبت المفردة معانٍ ودلالاتٍ مختلفة ارتبطت بالأذهان بســـرديات "التخوين والمؤامرات". تكمن خطورة مثل تلك الســـرديات في تعزيزها للغة الاســـتقطابات ولثنائياتٍ تُذكر بخطاب الانقسام الطائفي، فتحولت مواقع السوشل ميديا إلى جبهات تتخندق فيها معسكرات عدة تتراشق فيما بينها عبارات الكراهية وتكيل الاتهامات أحدها للآخر. ولكن الأمر لا يقتصـــر عند هذا الحد، بل يتعداه إلى أرض الواقع، حيث تُترجم هذه الســـرديات إلى أفعال عنف وقتل بحق الأبرياء. فهناك تناســـب طردي بين تصـــاعد الإعلام الحزبي ضـــد المتظاهرين وبين أعمال الاغتيالات والقتل والاختطافات بحق الأبرياء.[129]

وفقا لأحدث تقرير صـدرعن منظمة العفو الدولية عن الانتهاكات ضـد حقوق الإنسـان في العراق ، فقد بلغت حصـيلة ضـحايا الإحتجاجات أكثر من 600 متظاهر سـقطوا برصـاص القوات الأمنية ، فيما أشـار التقرير الى عشـرات من ضـحايا جرائم الاغتيالات والاختطافات والتغييب القسـري التي نفذتها الميليشيات. ووفقا للتقرير ، فلا يزال ستة أشخاص على الأقل مغيبين. [129]

ولمواجهة سياسات التصعيد وما رافقها من تضليلٍ إعلامي، لجأ المتظاهرون بالتعاون مع عددٍ من الصحفيين والنشطاء إلى الاعتماد على وسائل الإعلام التقليدية والتي كان من أبرزها صحيفة "تكتك" وإذاعة "نريد وطناً". تحدت سرديات الصحيفة والإذاعة المحلية التشويش الإعلامي الذي مارسته الأحزاب وسهلت التواصل بين المحتجين. وفي الوقت الذي تغيرت فيه سردية "إسقاط النظام" إلى سردية "إسقاط الحكومة" في صحيفة "تكتك" لأسبابٍ مختلفة أبرزها العنف المتزايد ضد المتظاهرين، ظلت السردية الرافضة للدور الإيراني في العراق ثابتة في أعداد الجريدة العشرة. إلا أنها الوقت ذاته، ترادفت مع سردية رافضة للدور الأمريكي منذ عام 2003 ولأي تدخل خارجي عموماً.

كان لكلٍّ من "تكتك" و"نريد وطناً" تأثيراً ملموساً على الحراك إذ إنهما ألهمتا المحتجين في محافظاتٍ أخرى إلى إصدار صحف مماثلة وإطلاق إذاعة محلية أخرى في ساحة الحبوبي في الناصرية. كما ألهمت تكتك المتظاهرين في لبنان إلى إصدار صحيفة تُمثل حراكهم. كما كان اللجوء إلى الصحف الورقية دافعاً لنساء الثورة لتأسيس صحيفة خاصة بهن وبحقوق المرأة بوجه التشويه الذي تعرضن له. أراد المتظاهرون لهذه المنصات أن تزرع بذرةً لمشروعٍ مستقبلي مستقل، ولكن ذلك الهدف لم يتحقق لعدة أسباب، أبرزها التصعيد ضد المتظاهرين وتكثيف البروباغندا الحزبية وشيطنتها للحراك. يضاف إلى ذلك افتقار صحيفة تكتك وإذاعة "نريد وطناً" لمنصة رقمية تمكنها من الاستمرارية– خلافاً لـ"نساء الانتفاضة" و"صوت الحبوبي".

ربما ساهم إعلام الأحزاب وبروباغندته الإعلامية بزعزعة سرديات تشرين العابرة للطائفية والمستعيدة للهوية الوطنية بشكلٍ مؤقت، إلا أنه لم يتمكن من استئصالها من الذاكرة الجمعية للعراقيين. فأسس حراك تشرين الأوّل / أكتوبر لسردياتٍ شكلت فاصلة في التاريخ العراقي الحديث. في النظرية الاجتماعية للسردية، لا يمكن أن تسيطر سردية واحدة طوال الوقت، فالتنافس بين السرديات أمرٌ بديهي ومتوقع، ولكن يمكن مقاومة السرديات المؤسساتية بطرح سردياتٍ بديلة تخاطب الوجدان، وبالتالي يصعب محوها من الذاكرة الجمعية للشعوب. وهذا ما حققه الحراك الاحتجاجي في العراق في تشرين الأوّل / أكتوبر 2019.

النزاع الطويل على الفضاء والحيز العامين في العراق

عمر الجفّال

شاعر وصحفي عراقي، عمل باحثاً بين عاميّ ٢٠١٩ و٢٠٢١ في مشاريع بحثية عن العراق ضمن برنامج دراسات النزاع التابع لمركز الشرق الأوسط في جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية LSE في لندن. كما يعمل صحافياً لعدد من المواقع العربيّة والأجنبيّة. حصل على جائزة مصطفى الحسيني عام ٢٠١٧ ووصل إلى القائمة القصيرة لجائزة الصحافة العربيّة عن فئة الشباب في العام ذاته.

أظهرت التظاهرات الحاشدة التي شهدها العراق في تشرين الأول / أكتوبر عام ٢٠١٩ (سيتم الإحالة إليها بالنصّ بـ"تظاهرات تشرين") اندفاعاً كبيراً لسكّان مدن وسط وجنوب العراق لاستعادة السيطرة على الفضاء والحيز العامين[130] وتحريرهما من السلطات السياسيّة والأمنية عبر إعادة استخدامهما وتشكيلهما بما يتوافق مع متطلباتهم وحاجتهم. وعلى الرغم من أن المجتمع العراقي يشهد انقساماً كبيراً في الاتجاهات الفكرية والعقائدية، إلا أن التظاهرات أكدت قدرة العراقيين في تلك المدن -في فترات مُحدّدة وبدون مؤثرات- على التعايش واقتسام الفضاء والحيز العامين من دون أن تحدّ مجموعة من حريّة المجموعة الأخرى التي تقاسمها الشارع والساحات العامة.

وتُعد استعادة سيطرة المجتمع على الحيز العام واستخدامه في تظاهرات تشرين تطوّراً لقدرة السكّان على التمكن من معرفة جغرافيا مُدنهم، ومن ثم تطور قدراتهم على تأمين الحماية لأنفسهم عبر تشكيل مجموعات يصعب فضّها أمنيّاً. ومكنهم تطوير هذه المعرفة بالمحصلة من تحويل الحيّز العام إلى مكان للاجتماع والنقاش السياسي والاجتماعي.

يستعرض هذا الفصل صراع السلطة والمجتمع على الفضاء العام، وكيف أن المجتمع لطالما تراجع عن السيطرة على الحيز العام بينما تقدّمت السلطة عليه باستخدام القمع. بيد أن احتجاجات تشرين تمكنت من السيطرة -ولو بشكل ولفترة محدودين- على الحيز العام واستخدامه وتقاسمه. كما يُناقش هذا الفصل أهميّة الفضاء والحيّز العامين وكذلك الحق في المدينة في بلد مثل العراق، يُحاول سكّانه اقتراح عقد اجتماعي ونظام سياسي جديدين يضمنا لهم استقراراً سياسياً واجتماعياً وعدالة في توزيع المال العام.

[130] يميز هذا الفصل بين مصطلحي الحيز العام والفضاء العام، كما سيتم شرحهما لاحقاً وفقاً لاستخدامهما في الأدبيات الأكاديمية ذات الصلة. لكن تجدر الإشارة، إلى أنه على الرغم من أن المصطلحيّن لم يردا في أيّ من بيانات المتظاهرين أو منشوراتهم أو خطاباتهم وأحاديثهم لوسائل الإعلام، إلا أن استعادة هؤلاء لهما واستخدامهما والسيطرة عليهما، إلى جانب خطابهم بشأن المكان وما عناه لهم، يُعتبر فعلاً سابقاً للتنظير.

الفضاء العام في العراق

ترتب على سيطرة نظام صدّام حسين الشمولي على الحكم في العراق لمدة عقود، والذي أعقبه انهيار الوضع الأمني والدولة جراء تأسيس النظام الجديد بعد غزو العراق في نيسان / أبريل عام ٢٠٠٣، تهميشاً للكتابة والحديث عن مفهوم الفضاء والحيز العامين في السياق العراقي إذ بدا ذلك محض ترف. ففي أثناء حكم نظام البعث للعراق (١٩٦٨-٢٠٠٣)، كانت حتى أبسط الحريّات الشخصيّة مستلبة، إذ هندست الدولة حتّى المساحات الشخصيّة للمواطنين وضبطت أحاديثهم مع أقرب مقربيهم بما يتلاءم مع أهدافها. وإذا كان هذا حال الحيّز الشخصي، فإن الفضاء والحيز العامين كانا خاضعين تماماً لسيطرة السلطات وتأثيرها. ومع تأسيس النظام الجديد عام ٢٠٠٣، أدت الأزمات الأمنية المتلاحقة والصراعات المتفاقمة، إلى جانب ظهور المجموعات الجهادية (السنيّة) والفصائل المسلحّة (الشيعية) على الساحة العراقية، إلى تأجيل الحديث والكتابة ومناقشة الفضاء والحيز العامين. ونتيجة لذلك، لم يظهر المفهومين، على أهميّتهما، إلا بشكل عابر في أسطر قليلة في بعض الكتب والبحوث التي لم تجعل من الفضاء والحيز العامين مركزاً لكتابتها، وإنما هامشاً على تحليل المعضلات الحضريّة والأمنية والسياسية والاجتماعية التي يعيشها العراق.

ويرتبط تشكّل الفضاء العام بظهور المجتمع المدني والأنظمة الديمقراطية، وبحسب تعريف يورغن هابرماس، فإن الفضاء العام ينشأ من أفراد يجتمعون معاً ليتناولوا احتياجات المجتمع من الدولة، والمشاركة في نقاشات حول القواعد العامة بالعمل الاجتماعي والسياسي[131]. ولقد بدأ الفضاء العام، أوّل ما بدأ، عندما أخذت الطبقة البرجوازية بتأسيس صالونات أدبية في منازلها ومن ثمّ انتقالها إلى المقاهي وبعدها إلى الساحات، كأمكنة، وأخذت تناقش وتنتقد السياسة. وتوسّع الفضاء العام مع تأسيس أدوات الاتصال الحديثة مثل الصحف والإذاعات؛ ويقوم مفهوم الفضاء العام على إمكانيّة التواصل بين أفراد المجتمع، وبحسب حنة ارندت، فإن الآراء التمثيلية لا يمكن أن تنشأ إلا عندما يواجه المواطنون بعضهم بعضا بشكل فعلي من أجل دراسة المشكلة من عدة أوجه مختلفة، وتعديل وجهات نظرهم[132]. بهذه الحال، فإن الآراء السياسية لا يمكن أن تتشكل على انفراد، وإنما تتشكل وتختبر وتتوسع فقط في سياق عام من الجدال والنقاش.

ويتطلّب تشكّل الفضاء العام وجود حيّز عام، والذي تعرّفه منظمة اليونسكو، بأنه كل ما يشير إلى منطقة أو مكان مفتوح ومتاح لجميع البشر بغض نظر عن جنسهم، أو عرقهم، أو سنّهم، أو

[131] Jurgen Habermas)1989(, structural transformation of the public sphere: an inquiry in to a category of bourgeois society, translated by: Thomas Burger, with assistance of Frederick Lawrence, USA, p5.

[132] Hannah Arendt. First published Thu Jul 27, 2006; substantive revision Fri Jan 11, 2019 https://plato.stanford.edu/entries/arendt/

مستواهم الاجتماعي، أو الاقتصادي، ويمكن أن يكون الحيّز العام الساحات، والحدائق العامة، والمساحات المتصلة مثل الأرصفة والشوارع، وحتّى وسائل النقل العام، ويمكن إضافة المساحات الافتراضية، الموجودة على الانترنيت مثل وسائل التواصل الاجتماعي، كحيز عام[133].

ويربط إريك دافيس (Eric Davis) حاجة المجتمع إلى الفضاء العام بما يسميّه بظهور "سوابق منطقية" تفضي إلى عدة مقدمات، أهمها الالتزام بالقومية وظهور مفهوم المواطنة من قبل شرائح اجتماعية مهتمة بإحداث التغيير السياسي؛ ما يعني أن فكرة الفضاء العام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتغيرات الهوية السياسية[134]. بالمقابل، يربط هنري لوفيفر (Henri Lefebvre) مفهوميّ الفضاء والحيز العامين وتحديث الحواضر بمفهوم "الحق في المدينة" الذي يعتبره مرجع الحقوق كافة وأساسها الذي تتفرع عنه الحقوق الأخرى[135].

تظهر بعض الأبحاث التاريخية أن المجتمع العراقي ونخبته الثقافية لطالما سعوا إلى تحرير الفضاء العام أو على الأقل مشاركته مع السلطات الحاكمة، وذلك حتّى قبل أن تتأسس الدولة العراقيّة الحديثة عام ١٩٢١. ويقدّم إريك دافيس، في بحث نادر عن الفضاء العام في العراق، قراءة تاريخية لنحو ستة عقود من نضال المجتمع العراقي لتطوير الفضاء العام بين عاميّ ١٩٠٠ و١٩٦٣. وشخّص دافيس ظهور الفضاء العام في العراق على ثلاثة مراحل، أوّلاً في تحوّل الشعر من مديح الولاة العثمانيين إلى نقدهم، وثانياً في تأسيس صحافة مستقلة في العراق عام ١٩٠٨ على يد نخبة من المثقفين العراقيين، وثالثاً ظهور المساحات المادية كالمقاهي وصالونات الأدب والنوادي الاجتماعية المرتبطة بالنقابات المهنية. يُضاف إلى هذه المراحل، تشكُّل الفضاء العام في هذه السنوات على أساس الهويّة الوطنية العابرة للطائفية، وسادت روح التضامن بين العراقيين في هذا المجال، ما أدّى إلى إجبار السلطات على تنفيذ مطالب أساسية مثل تحديد معدلات تجهيز الطاقة الكهربائية للسكّان وفق أسعار محدّدة، وضمان حقوق عمّال السكك الحديد والموانئ والنفط[136].

ورغم أن السرد التاريخي المهيمن لمرحلة ما بين مطلع القرن الماضي وإسقاط النظام يُظهرها وكأنّها واحة ديمقراطية، إلا أن الواقع كما نقلته مصادر تاريخية نقدية كان مغايراً. إذ سعت سلطة الاحتلال البريطاني والسلطة المَلكيّة وحكوماتها بشكل حثيث إلى السيطرة على الفضاء

---

[133] https://unhabitat.org/sites/default/files/2020/07/indicator_11.7.1_training_module_public_space.pdf

[134] "The Historical Genesis of the Public Sphere in Iraq, 1900-1963: Implications for Building Democracy in the Post Ba'thist Era," Publics, Politics, and Participation: Locating the Public Sphere in the Middle East and North Africa, edited by Seteney Shami. New York: Social Science Research Council, 2009.

[135] مستور عبد الحق، "تأصيل مفهوم الحق في المدينة"، المنارة للدراسات القانونية والإدارية، المجلد 2017، العدد 21 31 كانون الأول 2017، ص ص. 23-27.

[136] مصدر سابق، "The Historical Genesis of the Public Sphere in Iraq, 1900-1963: Implications for Building Democracy in the Post Ba'thist Era," Publics, Politics, and Participation: Locating the Public Sphere in the Middle East and North Africa, edited by Seteney Shami. New York: Social Science Research Council, 2009.

العام، وذلك عبر سلسلة قرارات وقوانين قمعية أدّت في النهاية إلى إحداث ضرر جسيم في جسد المجتمع المدني وحريّة التعبير عن الرأي و ومن ثم "النقد"، وهي أعمدة أساسية لوجود فضاء عام فاعل ومؤثر.

ومع تأسيس النظام الجمهوري في العراق، بعد الانقلاب الذي قاده عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨، عاود المجتمع ونخبته الرغبة والمساعي لتأسيس مجتمع مدني واستعادة الفضاء العام من خلال تأسيس نقابات واتحادات مهنيّة، والخروج إلى الشارع بأعداد كبيرة بمسيرات تذكّر بوجودهم وقدرتهم على إرساء عقد اجتماعي جديد. بيد أن نظام قاسم الذي قاد الانقلاب ضد الملكية كان بجوهره عسكرياً، والذي على الرغم من إصلاحاته المدنية المهمة كانت الديمقراطيّة فيه شبه معدومة، ما حال في النهاية دون تأسيس فضاء عام فاعل. ومع انقلاب ١٩٦٣ الذي قاده الجنرال عبد الرحمن عارف على رفيقه عبد الكريم قاسم، انعدمت تماماً أي قدرة على تشكّل مجتمع مدني و من ثم فضاء عام يهيمن عليه المجتمع ويناقش فيه آرائه ويعبر عن نقده على السلطات ويفرض مطالبه عليها لتنفيذها.

وفي هذا السياق، تُمثّل حقبة حكم البعث (١٩٦٣-٢٠٠٣) استثناءً في تاريخ سعي العراقيين لاستعادة السيطرة على الحيز العام في العراق، إذ لم تشهد هذه العقود محاولات جادّة في المُدن ذات الأغلبية العربيّة من العراق لتحرير الفضاء العام من سيطرة السلطات، إلا في محاولات نادرة وخاطفة مثل انتفاضة عام ١٩٩١. إذ إنه ومنذ مطلع ثمانينات القرن الماضي وحتّى سقوط نظام البعث بقيادة صدّام حسين في نيسان / أبريل عام ٢٠٠٣، تقلص الحيز العام في المُدن العراقية بفعل تحولها إلى أماكن مُغلقة ومهندسة ضد التجمّعات، مثل الحدائق وحتى المرائب العامة التي صارت مسوّرة بالجدران. وإلى جانب هذه الأسوار المادية، تقلص الحيز العام إلى أبعد حدّ بسبب الرقابة، إذ باتت الشرطة تراقب السكّان وتحاسبهم لا على فعلهم السياسي فحسب، وإنما حتّى على الأفعال الفرديّة الخاصة مثل لقاء شاب وفتاة تربطهما علاقة حب في مكان عام، أو حتّى في الأماكن الخاصّة مثل البيوت أو الشقق السكنيّة أو المكاتب والمحال التجارية.

هاجس الأمن في تخطيط بغداد

لا يُمكن فهم هذه السيطرة والنفوذ من السلطات على الحيز العام من دون فهم تخطيط المناطق الحضريّة في بغداد وكيفيّة إنشائها. يعتبر المؤرخون أن الحداثة العمرانيّة الأولى التي شهدتها بغداد كانت بين عاميّ ١٨٦٩ و١٩٢٠، أي حقبتي الاحتلال العثماني والبريطاني. عليه، فإن التخطيط العمراني لبغداد خضع لنهج علوي[137]، بمعنى لحاجة السلطة الحاكمة، أياً كانت، ولم تراعِ الحداثة العمرانيّة حاجات المجتمع المحلي إلا بشكل محدود. وقد سيطر الهاجس الأمني

[137] Lessons from Baghdad City Conformation and Essence By Haider J.E. Al-Saaidy. Submitted: May 5th 2019Reviewed: July 15th 2019Published: January 24th 2020. DOI: 10.5772/intechopen.88599

على السلطات في تحديث بغداد وتخطيطها، قبل أن تضع في حسبانها حاجّة السكّان للاجتماع، فضلاً عن الجدوى الاقتصادية من فرض الحداثة على المدينة.
ويُمكن القول إن الحداثة انتزعت بغداد من سـكّانها ومنحتها للسـلطة، إذ في الوقت الذي كان السكّان فيه يحاولون الحفاظ على ملامح وبُنية المدينة التي عاشوا فيها لقرون طويلة ويعرفون جغرافيتها ومسالكها وتآلفوا معها، كانت السلطة، بالمقابل، تمحو هذه المدينة لتحلّ محلّها أخرى جديدة تتوافق مع متطلّباتها. ولا يتعلّق الأمر هنا فقط بالآثار التاريخية لبغداد التي تعرّضـت للهدم على يد السلطات المتعاقبة -إن كانت سلطات احتلال أو وطنية- مثل بواباتها التاريخية أو جوامعها[138]، بل أيضـاً بمناطق سـكنيّة كاملة هُدمت على الرغم من معارضـة السـكان، لتُبنى مكانها شوارع أعرض.
ويُعد شـارع الرشـيد أحّد أبرز الأمثلة على هذا النمط في فرض السلطات خططها على المدينة من دون مراعاة حاجة السكّان، أو مراعاتها لرفض السكّان لخطط التحديث التي تضرّ بحياتهم ومجتمعهم[139]. وقد سـيطر هاجسـين على السـلاطين العثمانيين في بناء شـارع الرشـيد على حسـاب هدم بغداد التاريخية، الأوّل هو "بصـمة" تحمل اسـم السـلاطين على مدينة عريقة مثل بغداد، والثاني هاجس أمني لفتح طرق للعسكر تمكّنها من إيقاف تقدّم الغزوات الأجنبيّة[140]، إلى جانب الهاجس الأمني للسـيطرة داخل المدينة. إذ كانت أزقّة بغداد التاريخية ضـيّقة ومتعرّجة ومتداخلة، ما يعني صعوبة السيطرة عليها أمنيّاً في حال حصول تمرّد من قبل السكّان ضد أي سلطة حاكمة[141]. بيد أن شارع الرشيد نفسه يقدّم أيضاً قصّة عن قدرة المجتمع على إعادة قلب خطط السلطة ضد نفسها. فالشـارع في الأعوام الأولى من تأسيسـه لم يتضـمّن محالاً تجارية، وأُريد له أن يقتصـر على البورجوازية الصـاعدة في بغداد. إلا أنه بعد أعوام وعقود من ذلك سيصبح مسرحاً لأهم الأحداث السياسيّة[142]، ومحتضناً لأكبر النقاشات السياسيّة والاجتماعية[143] التي شهدها النصف الأوّل من القرن العشرين.

ما فتئ الهدم المسـتمر لمركز بغداد من قبل السـلطات المتعاقبة من الملكية الى الجمهورية وارسـاء مشـاريع إعمار مكانها بحجة تحديث المدينة على أسـاس الطرازات الغربيّة، وإن تضـمنت انشـاء سـاحات وحدائق عامة[144]. بيد أن تلك المسـاحات لم يكن هدفها تمكين المجتمع

---

[138] سالم الآلوسي، "أبواب بغداد القديمة.. تاريخ وذكريات"، صحيفة "المدى"، ٣ تشرين الثاني ٢٠١٦.
[139] رفعة عبد الرزاق محمد، "ناظم باشا ام خليل باشا.. من هو المؤسس الحقيقي لشارع الرشيد؟"، صحيفة "المدى"، ٣ أيار ٢٠٢١.
[140] حيدر كامل عاجل وكريم مراد عاتي، "شارع الرشيد (9191-9191) دراسة تاريخية"، مجلـة دراسات في التاريخ والآثار، العدد (٥٧)، حزيران ٢٠٢٠، ص(٦٢١).
[141] شهدت بغداد عدد من التمردات على السلطة العثمانية، منها تمرد كبير ضد التجنيد الإلزامي، انظر على سبيل المثال: ماريا حسن التميمي، "الجندية في العراق قبل تأسيس الدولة العراقية"، صحيفة "المدى"، ٣ كانون الثاني ٢٠١٦.
[142] إثر احتلال القوات البريطانية لبغداد، نظم العراقيون احتجاجات وتجمعات في شـارع الرشـيد تحولت في نهاية المطاف إلى تمرد مسـلح في جميع أنحاء البلاد، وشـهد الشـارع التظاهرات المؤيّدة لحركة رشـيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، وتظاهرات وثبة كانون عام ١٩٤٨، ووثبة تشـرين ١٩٥٨، وسحلت جثة الوصي عبد الإله في الشارع عام ١٩٥٩ لتنتهي بذلك الحقبة الملكية.
[143] شكّلت المقاهي والحانات في شارع الرشيد ذاكرة مهمة بالنسبة للمثقفين العراقيين بدءاً من معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، وصولاً إلى جيل الثمانينات والتسعينيات. انظر على سبيل المثال: هاشم شفيق، "بغداد السبعينات: الشعر والمقاهي والحانات"، دار المدى، ٢٠١٤. وانظر أيضـاً، محمد مظلوم، "حطب إبراهيم أو الجيل البدوي - شعر الثمانينات وأجيال الدولة العراقية"، دار التكوين – سوريا، ٢٠٠٧.
[144] خالد السلطاني، "عمارة الثلاثينات في بغداد"، مجلة ميزوبوتاميا، بلا عدد أو تاريخ.

من الاجتماع وفتح باب النقاش بشأن أحواله، فقد طغت على هذه المشاريع رغبة السلطات بعدم التقاء المجتمع وإضـــعاف إمكانيته على التجمع. فمثلاً، ادعى النظام الملكي أن قيامه بتحديث بغداد كان يرمي إلى ربط المدينة ببعضـها، وإحلال الحداثة العمرانيّة بوصـفها أسـاسـاً للتطوّر الاقتصادي والتقاء السكّان. إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً، فبحسب ما يؤكد تغلب تقي عبد الهادي الوائلي، فإن مشـــاريع التطوير أضـــرّت كثيراً بالعلاقات الاجتماعية، وقطعت طرقاً ودمّرت أسواقاً بناها السكّان على مدار أعوام لتلبّي حاجتهم وتربط المناطق ببعضها بعضاً[145].

وتتناقض هذه المشـاريع والتفتت الذي تحدثه في الحيز العام مع خطابات السلطة الرسمية التي دعت لبناء "الأمة العراقية" مثل العهد الملكي، أو تلك التي أُطلقت زمن سـلطة العسـكر بقيادة عبد الكريم قاسـم ولاحقاً عبد الرحمن وعبد السـلام عارف، داعية العراقيين لاسـتعادة بلادهم وحريتهم بالتصـرف بها بعد أن كانت مستعمرة بريطانية، وتتناقض بالطبع مع خطابات سلطة البعث التي وضـعت الحرية والاشـتراكية شـعاراً ليس للحزب فحسـب وإنما عمّمته في مراحل لاحقة على الدولة بعد استيلائها على الحكم.

وتعكس مشاريع الساحات العامة التي أُنشأت على يد السلطات المتعاقبة ذلك التناقض وتجاهل السـلطة للشـعب. فقد بنيت أغلب السـاحات العامة إما خارج مراكز المُدن أو خارج التجمعات السكانية الكثيفة، وكانت مواقعها مناقضـة لفكرة العمومية التي تذهب إلى تسـهيل الوصـول إلى المســاحات العامة وســهول الاجتماع فيها. وحتى تلك الســاحات التي بُنيت داخل المُدن فإن إمكانية الاجتماع والنقاش فيها شــبه معدومة، مثل ســاحة الوثبة أثناء العهد الملكي التي كانت تحتوي على أزهار تُزرع حســب المواســم، إلا أنها لم تتوفّر على مقاعد للجلوس[146]، بمعنى تتحيفها (تحويلها إلى تحفة للنظر) وجعلها واجهة جمالية للحداثة عوضــاً عن جعلها قابلة للاسـتعمال. وذلك أيضـاً الحال مع سـاحة التحرير، الأكبر حجماً، والتي بنيت في فترة الملكية على مقربة من المناطق الجديدة آنذاك، وكذلك سـاحة الاحتفالات ونصـب الجندي المجهول في فترة البعث. أما الحدائق العامة مثل الجزيرة الســياحية وحديقة الزوراء، فتقدمان نموذجاً عن سـعي السـلطة إلى بناء نموذج لمكان عام مُسـيطر عليه، فالدخول إلى الحديقتين يتم من بوابات محددة فقط وأسـوارهما عالية، وهو ما يجعل حركة الدخول والخروج منهما مقيدة، علاوة على تسهيل وضع من هم في داخلهما تحت المُراقبة.

يمتد الأمر إلى بناء الجامعات، فقد كان لتوجس السـلطات الأمنية من اندلاع تظاهرات الطلاب وزناً في اختيار المنطقة التي ســتقام فيها جامعة بغداد في أثناء الحكم الملكي المضــطربة سياسياً[147]. ويذسحب الأمر كذلك إلى المشاريع الأساسية مثل مناطق الإسكان، لا سيما مدينة

[145] تقي تغلب عبد الهادي الوائلي، "بغداد القرن الحادي والعشرين - المدينة التاريخية"، دار الأديب، عمّان ٢٠١٧، ص١٠٧-١٠٨.
[146] كمال يلدو، "ساحة الوثبة.. قصة حياة ساحة من ساحات بغداد"، صحيفة "المدى"، ٣٠ آب / أغسطس ٢٠١٥.
[147] سعدي ابراهيم الدراجي، "جامعة بغداد.. وكيف شيدت بنايتها في الجادرية؟"، صحيفة "المدى" ٢٥ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٢٠.

الثورة[148] التي أحلّ بها النازحون. وبحسب أليسا والتر، فإن الأحياء الجديدة التي خّططت في فورة النفط مطلع خمسينيات القرن الماضي، جمعت جيوباً من المؤيدين السياسيين المحتملين والمتخصصين في القطاع العام في وسط المدينة، بينما تم تهميش السكان الذين تعتبرهم السلطات مزعجين سياسياً ودفعهم إلى ضواحي المدينة[149]. كما أن مشروعاً مائياً مثل قناة الجيش شرقي بغداد، كان الهاجس الأمني ماثلاً خلال تأسيسه وقد تحوّل لاحقاً إلى عازل يُسهّل للسلطة سيطرتها على سكّان المناطق الشرقية الأكثر كثافة في بغداد[150].

السيطرة على الفضاء العام

ويبدو سعي السلطات إلى السيطرة على الحيّز العام متساوقاً مع خطواتها في إضعاف المجتمع المدني وبالتالي تفريغ الفضاء العام من محتواه السياسي. وكما يلخّص حنا بطاطو سياسة الفترة الملكيّة التي أدّت إلى التعاطف مع الشيوعية، فإن الطبقة الحاكمة كانت تنزع إلى "احتكار النشاطات السياسية"، وأنها "تخشى التفكير"، وهي لذلك، نزعت المحتويات السياسية من المناهج الدراسيّة، واعتمدت نهجاً تلقينياً في التدريس في الجامعات[151]. ومع ذلك، فإن المجتمع المدني لم يكفّ عن الظهور ومحاول فرض رؤاه وشروطه على السلطة، وذلك من خلال تشكّل النقابات والاتحادات وتأسيس الصحف والمجلات المستقلة، والقيام بتظاهرات طلابيّة، وإنشاء أحزاب بأفكار جديدة، فضلاً عن اتخاذ المقاهي والحانات مكاناً لإجراء النقاشات العامة بشأن الواقعين الاجتماعي السياسي.

إلا أنه لطالما واجهت الحكومات الملكيّة هذه المحاولات بالقمع والترهيب والمنع، فمثلاً مُنعت النقابات لأعوام طويلة من العمل ونفي مؤسسوها خارج المُدن[152]، فيما شهد عدداً كبيراً من

---

148 أحمد سعداوي، "مدينة الثورة – تراث المكان.. في المهب"، مجلة مسارات العدد الأول السنة الثانية، ربيع ٢٠٠٦، ص٥٤-٥٩. انظر أيضاً، زاهر موسى، "مدينة الثورة في بغداد: خزان الدم"، موقع "السفير العربي"، ٢٤ آذار ٢٠١٦.

149 Alissa Walter, M.A.

THE BA'TH PARTY IN BAGHDAD: STATE-SOCIETY RELATIONS THROUGH WARS, SANCTIONS, AND AUTHORITARIAN RULE, 1950-2003

A Dissertation

submitted to the Faculty of the Graduate School of Arts and Sciences

of Georgetown University

in partial fulfillment of the requirements for the degree of

Doctor of Philosophy

in History

Washington, DC March 27, 2018

ص٢٦

150 المهندس هشام المدفعي، " من ذكريات العهد الجمهوري الأول.. مشروع قناة الجيش و إنشاء مدينة الثورة"، صحيفة المدى، ١١ تموز ٢٠٢١.

151 حنا بطاطو، "العراق – الكتاب الثاني- الحزب الشيوعي"، ترجمة عفيف الرزاز، منشورات فرصاد ٢٠٠٦، ص١٣٥.

152 راجع فصل عمر الجفال وصفاء خلف في هذا الكتاب بشأن النقابات.

الصـــحف إغلاقاً أو تضـــييقاً[153]، ولوحقت الأحزاب الناشـــئة ولم يمنح الكثير منها شـــهادات تأسيس[154]، علاوة على استخدام العنف المفرط ضد التظاهرات الطلابيّة[155].
وعلى الرغم من كل هذا التضييق، فإن فترة الحكم الملكي مثّلت بالنسبة لقطاع واسع من النخبة العراقيّة واحة للتطوّر الســـياســـي وبوابة العراق إلى الحداثة، وقد يعزا ذلك إلى العنف الأقلّ قسوة للنظام الملكي تجاه معارضيه و من ثم المجتمع المدني، مقارنة بالأنظمة التي ستطيح به بعد ذلك وتنتزع الحكم منه، ولا ســيما حكم حزب البعث، أو حكم صـــدّام حســـين على وجه التحديد، فلقد تصـرّف الأخير مع العراق بشـعور "الامتلاك"، وألغى بالتدريج الحيز والفضـاء العامين اللذين لا يتوافقان مع منهجه في إدارة الحكم، وأســـس بالمقابل حيّز عام يلبّي رغباته، فيما زحف رويداً رويداً من خلال حزب البعث إلى الهيمنة على الحيز الخاص للسـكّان، وحتى ومحاولة امتلاك أجسادهم.

هيمنة صدام حسين

إن سـيطرة وهيمنة صـدّام حسـين بمعيّة حزب البعث على الحكم والدولة في العراق قد حوّل الفضاء والحيّز العامين، إلى ما يشبه حيّز خاص للرئيس، يديرهما على هواه ويخضع الأجساد والأفكار أو "الإنسـان العراقي الجديد"[156] داخلهما لمزاجه. وذهب صـدام حسـين إلى أبعد من ذلك عندما بدأ بخلق بغداد جديدة تحتوي على حيز عام يتلاءم مع الســـلطة التي يُديرها. فبعد نحو ثلاثة أعوام من وصـــوله إلى الســـلطة رئيســـاً، أظهر علامات بارزة على أن النظام الذي سيديره سيكون عسكرياً لا مكان له للأفكار النقدية والمجتمع المدني، ولا مكان أيضاً للمظاهر الســـياســـيّة التي عرفتها بغداد قبله، وذلك إما عن طريق هدم رموزها مثل نصـــب الجندي المجهول لرفعة الجادرجي من ســاحة الفردوس، أو نزع الأهميّة عنها مثلما حصـل مع شـارع الرشـــيد وســـاحة التحرير، إذ أخذ يبني مســـاحات بدلاً عنها، ورموزاً ترمي إلى إبراز قوّته وسيطرته وزعامته.

وبدلاً من ســـاحة التحرير التي توســـطتها جدارية جواد ســـليم، التي على الرغم من أبعادها السياسية التي تمجّد ثورة تموز عام ١٩٥٨ التي قام بها عبد الكريم قاسم إلا أنّها ظلّت تعبر عن فئة واسـعة من المجتمع، فقد أسـس نظام البعث سـاحة الاحتفالات الكبرى التي يُسـمح للمجتمع الاجتماع فيها، فقط للتهليل للرئيس وانتصاراته أو الاحتفال بعيد ميلاده أو ميلاد حزبه. وضمت السـاحة التي تقع في جانب الكرخ من بغداد، أوّلاً، نصـب الجندي المجهول الجديد الذي صـمّمه

---

[153] سعد سلمان المشهداني، الرقابة على الصحف الحزبية في العراق الملكي (1922 – 1954)، مجلة أداب الفراهيدي/ كلية الآداب ـــ جامعة تكريت العدد ١١، ص ٥٩٠ ـ ٦٢٣.

[154] قيس جواد علي الغريري، "موقف البلاط الملكي العراقي من نشاط الأحزاب ١٩٢١-١٩٣٩"، مجلة السياسات الدولية العدد الأول، بلا تاريخ. انظر أيضاً، إيهاب حسين علي حسين،" تطور الحركة الوطنية في العراق قبل اجازة الاحزاب المعارضة العلنية عام ١٩٤٦"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد ١٠ / العدد ٣، ٢٠٢٠.

[155] جاسم الحلفي، "الحركات الاجتماعية في العراق"، دار سطور ٢٠١٧، ص١٢٨-١٥٠.

[156] لقد تردد على نطاق واسـع ترديد المجتمع الجديد في عراق الثمانينات بين كوادر حزب البعث، ووردت الإشـارة إلى هذا الموضـوع في افتتاحية نصـب الشـهيد التي أعدها المهندس هشـام المدفعي لافتتاح نصـب الشـهيد عام ١٩٨٣، راجع، سـمير الخليل، "النصـب التذكارية – الفن والابتذال والمسؤولية في العراق"، ترجمة نديم الزعبي، دار الساقي، الطبعة الأولى ١٩٩٢، ص ٣٧.

خالد الرحال، ولحقها بعد ذلك بـــ"أقواس النصر" التي بُنيت على أساس نموذج قبضتي صدام حسين نفسه[157].

إلى جانب ذلك، حاول نظام صـــدّام الحدّ حتى من حريّة التفكير والنقد باعتبار كونه "أباً قائداً" يفكّر عن الجميع ويدير حياتهم. وقد أرسـى ذلك عبر التغلغل بأشـكال شـتى في الحيز الخاص، مثل مشروع تنمية الأطفال في المدارس كمخبرين على أهلهم في حال تداولوا طروحات تعادي "الثورة"[158]. وفي الحيز العام صـار صـدام حسين معادلاً للرعب والمراقبة، فإذا لم يكن رجاله في كل شارع ودسكرة، فإن صوره وتماثيله التي انتشرت بمئات الآلاف من النسخ داخل المدن والشـــوارع[159]، تقوم بمهمة تذكير المجتمع بوجوده بينهم وإمكانية عقابهم إذا ما انتقدوه. لكن حتّى السـيطرة على أفعال وكلام وتفكير المجتمع وحيزه العام لم تعد كافيّة لصـدّام حسـين، إذ قامت فرق حزب البعث بالترويج لتعليق صـــور "الرئيس" داخل المنازل والمحال التجارية، فضلاً عن توزيع ساعات يد تحمل صورته لتهبط على معاصم العراقيين، رجالاً كانوا أم نساء. والحال هذه، فإن الشعور بالحرية، في ظلّ نظام كهذا، صار "حالة مأساوية" وليس حالة تدعو للاحتفال والتهليل، بحسب تعبير سهيل سامي نادر[160].

عراق ما بعد صدام

الحالة المأساوية بالشعور بالحرية في ظلّ حكم صدام حسين، ستتحوّل إلى حالة احتفالية تأخذ وجوه عدّة فور غزو العراق وإســقاط نظام البعث في نيســان / أبريل عام ٢٠٠٣. ففي الأيام الأولى التي أعقبت سقوط صدّام حسين، برزت أساليب مختلفة لاستعادة السيطرة على الحيّز العام لدى العراقيين، كان من أبرزها وأكثرها فوضـوية هو احتلال مؤسـسـات الدولة. صـدّام حسـيّن امتلك العراق الدولة بمفهومها كمؤسـسـة، وبغداد المدينة -وسـائر مدن العراق- كمكان للعيش والاجتماع، ولم ينفك يذكّر العراقيين طوال حكمه بهذا الامتلاك. وعليه فقد كان تحرير كلاهما، أي الدولة والمدينة، بالنسـبة لمن اجتاحوا المؤسـسـات الرسـميّة، هو احتلالها ونهبها وحتّى اســتخدامها كحيّز خاص من خلال تحويل البنايات إلى مســاكن لهم ولعوائلهم. كانت عمليّات النهب أكثر المشـاهد التي نقلتها شـاشـات التلفزة ووكالات الأنباء في الأسـابيع اللاحقة لاحتلال العراق، وهو الذي جرّ على العراقيين سمعة حتّى لدى محتليهم -التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية- بوصفهم مجموعة سُرّاق[161]؛ علماً بأن أغلب عمليات النهب حدثت

---

157 أقيم هذا النصب أثناء الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)، وهو يتكوّن من سيفين ضخمين يرسمان قوساً شاسعاً في الفضاء، ومن الأسفل تمسكهما يدان قويتان. وبحسب ما يتردّد فإن اليدين هما نموذجاً ليدي صدام حسين، وبجانب اليدين تقبع خمسة آلاف خوذة حقيقية لجنود إيرانيين جمعت من ساحات المعارك.

158 سمير الخليل، "النصب التذكارية – الفن والابتذال والمسؤولية في العراق"، ترجمة نديم الزعبي، دار الساقي، الطبعة الأولى ١٩٩٢، ص ٤٩.

159 تعبيراً عن وفاء العراقيين لـــ "قائدهم المجاهد"، بحسب صحيفة الثورة، بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد صدام حسين عام ٢٠٠١، جرى نصب 20 تمثالاً للرئيس صدام حسين ونصب 100 جدارية جديدة في بغداد والمحافظات. انظر: "عيد ميلاد صدام: 25 مليون دولار.. 830 شخصية مدعوة.. 350 جدارية.. و20 تمثالا.. والآلاف ضحايا الحصار"، موقع "البوابة"، ٢٣ نيسان ٢٠٠١.

160 سهيل سامي نادر، "نقد الدولة العراقية: نظرة وداع أخيرة ومرثية موت معلن!"، موقع "منبر الكاتب العراقي"، ٨ نيسان ٢٠١٢.

161 وُظفت المخيلة الاستعمارية إلى حدّ كبير في تصوير عمليات السرقة هذه عبر تأطيرها كقصص ألف ليلة وليلة واطلاق تسمية "علي بابا" على هؤلاء السراق، والتي استمر الجنود الأمريكيون يطلقونها على العراقيين لأعوام طوال.

على مرأى ومسمع وبعلم قوات الاحتلال والتي قامت هي نفسها بالتعدي على الحيز العام العراقي منذ بداية الاحتلال، ولم تؤدي حتّى واجبها كسلطة احتلال بتوفير الحماية للمؤسسات الرسميّة.

ولم تقتصر مظاهر استعادة الحيز العام على مؤسسات الدولة فحسب، بل أن شعوراً فوضوياً عاماً باستعادة المدينة انبث في المجتمع، وذلك من خلال تحويل ساحات وكراجات عامة إلى مقاهٍ وأماكن تجاريّة يباع فيها كل ما يمكن الاتجار به، من الأطعمة إلى الأسلحة[162]. أما الكلام والنقد اللذان كانا محرّمان في زمن البعث، فقد كثرا في الأشهر الأولى بعد سقوط النظام. وعلى هذا الأساس، تحوّلت الجدران إلى لوح لإدانة البعث والطموح إلى المستقبل[163]، وأخذت الصحف والإذاعات ومنظمات المجتمع المدني تتأسس، بدعم المؤسسات الدوليّة والمحليّة، وهو ما شكّل فضاء عاماً يتم فيه نقاش السياسة وانتقاد القائمين عليها. إلا أن هذا لم يستمر طويلاً، ومردّ ذلك إلى الانهيار الأمني وتنافس الفصائل المسلحة، الشيعية والسنيّة، على السيطرة بالسلاح على المُدن وخاصّة بغداد. بالمقابل كانت هناك خطط السلطات الأمنية، وبالأساس سلطة الاحتلال الأمريكي للرد على هذه الفصائل، ولكن أيضاً استعمالها كحجّة لفرض أطواقاً تجعلها مهيمناً على المدينة. وأخيراً كان هناك رغبة الأحزاب الإسلامية لفرض رؤاها المتشابهة على تكوين المدينة، ومن ثم الحدّ من حريّة السكان المختلفين معها في التصرّف داخل بغداد وبقية المحافظات.

وقد شهد اندلاع الحرب الأهليّة عام ٢٠٠٦ ذروة هذا الصراع على المدينة، وبينما أخذت الفصائل المسلّحة تنتشر داخل المُدن وتفرض أفكارها المتطرّفة على السكّان في الحيزين العام والخاص، فإن السلطتين الأمريكية والعراقيّة انتهجتا استراتيجية أمنية في عام ٢٠٠٧، تقضي بإغلاق الشوارع والمناطق السكنيّة والتجارية بالكتل الكونكريتية. وفي الواقع، فإن هذه الاستراتيجية تماشت مع رؤية سلطة الاحتلال في تحليلها للمجتمع العراقي على أنه مجموعة "طوائف متناحرة". وقد تركت الكتل الكونكريتية أثراً كبيراً على طبيعة بغداد وسكّانها، إذ أدت إلى اغلاق شوارع وتقسيّم مناطق على أساس طائفي، منعت السكّان من التواصل فيما بينهم وجعلتهم يعيشون في مربعات سكنيّة ضيقة؛ وغالباً ما كانت هذه المناطق واقعة تحت سلطة فصيل مسلّح، وهو الأمر الذي أدّى إلى تهجير مجموعات سكانيّة من طائفة أخرى لجعل المناطق "نقيّة" وتجمع طائفة واحدة فحسب. وعلى الرغم من أن السلطتين الأمريكية والعراقيّة تحدثتا عن "نجاح" الكتل الكونكريتية في الحدّ من الخروقات الأمنية عام ٢٠٠٨، إلا أنهما أبقيتا على عدد هائل منها حتّى ما بعد عام ٢٠١٨[164]، وأخذتا بـ"تجميلهما" من خلال التعاقد مع فنانين لوضع رسومات عليها، وبالتالي تحويلها إلى جسم عادي -رغم فداحته- في بغداد.

---

[162] https://www.csmonitor.com/2003/0515/p02s01-woiq.html

[163] وارد بدر السالم، "كتابات الحيطان – صحافة موجزة في عصر الحرية"، صحيفة المدى، العدد الأول، الثلاثاء آب ٢٠٠٣.

[164] أكد المتحدث باسم قيادة عمليات بغداد إعادة افتتاح أكثر من ألف شارع رئيس وفرعي في بغداد، ورفع 305 حاجز أمني ومرابطة، بين عامي ٢٠١٧ و٢٠١٨. انظر: "عودة الحياة لشوارع في بغداد كانت أسيرة حواجز أسمنتية منذ سنوات"، (وكالة الصحافة الفرنسية أ ف ب)، ٨ آب ٢٠١٨.

نتيجة لذلك صارت بغداد مدينة مقطعة الأوصال يَربُط سكّانها داخل مناطقهم السكنية خلفيتهم الطائفية؛ فضلاً عن أن المدينة صارت منطقة عسكرية يخضع سكّانها للمراقبة والمحاسبة، وذلك من خلال نصب آلاف الحواجز الأمنية، ونشر الجيش والشرطة في كل مكان، وممارسة الأجهزة الأمنية، بالإضافة إلى رجالات الفصائل المسلّحة، دوراً رقابياً على المجتمع في الحيز العام[165].

وبين أعوام ٢٠٠٣ و٢٠٠٩ نشأ جيل في بغداد لا يعرف عن المدينة إلا المناطق التي ترعرع فيها والأسواق التي تحاذيها، فيما اقتصرت أماكن الاجتماع التي خبرها على المقاهي الصغيرة في الأحياء السكنية ومحال الحلاقة وصالات الانترنيت[166]. إلى جانب تقلص الحيز العام، لم يكن للنقاش السياسي أو الاجتماعي الحُر حيّز يذكر نتيجة لوضع ما يشبه "التابو" عليه من قبل الفصائل المسلّحة التي سيطرت على الحوار والنقاش والنقد. بعد هذه الأعوام، بدأ السكّان مجدداً باستكشاف بغداد، إلا أن تحرّكاتهم بقيت محكومة بالحدود الفاصلة التي وضعتها الحرب الأهليّة. بيد أن هذه الأحوال ستأخذ طابعاً صراعياً عام ٢٠١٠، بعد محاولات السلطة الرسميّة شرعنة أنماط عيش واجتماع على السكّان تحدّ من حريّاتهم الشخصيّة، وذلك من خلال استخدام قوانين شرّعها نظام البعث أو محاولة فرض قوانين جديدة، مثل فصل الجنسين في المدارس والجامعات، وفرض الحجاب على النساء في المؤسسات التعليمية، ومحاولة إغلاق النوادي الاجتماعيّة والترفيهية، وإلغاء مهرجانات فنيّة، علاوة على ملاحقة صحفيين وناشطين لتجرؤهم على نقد السلطة[167].

ترافقت محاولات قمع الحريات مع تردي الخدمات الأساسية في المدن وارتفاع معدلات البطالة، وتغوّل الأحزاب السياسيّة في اقتسام السلطة على أساس طائفي. بدا أن الشعور بالاغتراب عن المدينة قد ترسّخ في نفوس السكّان، وفق ما ورد في أحد البيانات التي دعت إلى التظاهرات العارمة التي شهدتها بغداد ومدن وسط وجنوب العراق في شباط / فبراير عام ٢٠١١: "الموت لديمقراطية تجعل الناس غرباء في وطنهم"[168]. وتُمثّل تظاهرات شباط / فبراير، التي تأثّرت واستفادت من تجربة الربيع العربي، من المقدمات الأولى للصراع بين السكّان والسلطة على الفضاء والحيز العامين، إذ إنها كانت المُقدمة لنقل الاحتجاجات من ساحة صغيرة مثل الفردوس[169]، إلى ساحة التحرير الأكبر حجماً. كما كانت أيضاً اختباراً لقدرة

165

166 استقى الكاتب هذه النظرة بناء على زيارتين مطولتين لبغداد في عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٩.

167 وليد إبراهيم، "بعد "التحرير".. هل سيتحول العراق إلى دولة إسلامية؟"، وكالة "رويترز"، ١٦ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٠، انظر أيضاً: "حقوق الإنسان في العراق بعد ثماني سنوات من الغزو بقيادة الولايات المتحدة"، منظمة هيومن رايتس ووتش، ٢١ فبراير/شباط ٢٠١١، وانظر أيضاً: "بغداد تمنع تدريس المسرح والموسيقى وتزيل التماثيل من معهد الفنون الجميلة"، موقع قناة "العربية" ٧ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٠.

168 "أصوات الدفاع عن الحريات تتصاعد – شباب من الفيس بوك يقودون الثورة الخضراء لمحاربة الفساد"، صحيفة "المدى" العدد (2038) السنة الثامنة - الاربعاء (9) شباط ٢٠١١.

169 شهدت ساحة الفردوس التي أسقط فيها تمثال صدام حسين تظاهرات مختلفة منذ عام الأيام الأولى للاحتلال وحتّى عام ٢٠١١، لتصبح بعدها ساحة التحرير المركز الأساسي للاحتجاجات.

السكّان على التحشيد من خلال موقع "فيسبوك" الذي مثّل، آنذاك، فضاء عاماً للنقاش السياسي والتفاعل ما بين السكّان، لا سيما بعد أن عُسكِرت المدينة، وتم السيطرة على العدد الأكبر من وسائل الإعلام، سواء المقروءة أو المرئية أو المسموعة، بالمال السياسي. والأهم من ذلك كلّه، هو مقاومة السكّان لفكرة "المجتمع الموحّد" الذي أرادت السلطة فرضه على المجتمع من خلال أَسلَمَة الحيز والفضاء العامين.

وظهرت للسلطة في تلك السنوات، أي ٢٠١١-٢٠١٢، نجاعة الكتل الكونكريتية في السيطرة على المدينة وعلى تحرّك السكان فيها، إذ إنها استعملت بكثرة لقطع الشوارع الرئيسية والفرعية لمنع المتظاهرين من الوصول إلى ساحة التحرير. وكان ذلك بالإضافة إلى نجاعة الحواجز الأمنية التي تركت للقوى العسكرية، في أيام الجمعة التي تشهد تظاهرات، القرار بالسماح للأفراد بالمرور أو عدمه. كما استعلمت أنظمة طوارئ فُرض بموجبها حظر التجوال، ومنع التغطيّة الصحفية للتظاهرات، إضافة إلى الاعتقالات التعسفيّة واستخدام العنف المميت[170].
ورغم المقاومة الشديدة للمتظاهرين، إلا أن السلطة هيمنت على الحيز العام، وفرضت شروطها عليه، وأمعنت في عسكرة المدينة، فيما ردّ الحراك الاحتجاجي من جانبه وعطّل تمرير القوانين القامعة للحريّات والتنوّع.

ورغم أن تظاهرات شباط / فبراير ٢٠١١ التي استمرت لنحو ٨ أشهر لم تحقّق مطالب رئيسية مثل "إصلاح النظام" وإقالة حكومة رئيس الوزراء الأسبق نور المالكي، إلا أنّها مثلت ما يشبه مختبراً للسكّان على قدرتهم على التجمّع والتحشيد ومشاركة -على الأقل- الحيّز العام مع السلطة.

السعي إلى السيطرة الكاملة
بعد تظاهرات شباط / فبراير عام ٢٠١١، أظهرت السلطة إرادة محمومة لاحتكار الحيز العام لنفسها وعدم السماح للسكان بمشاركته، بل وحتى زرع الخوف فيهم من استكشافه والترهيب من السير في الشوارع بمطلق حرية. قد يبدو هذا الرأي -لا سيما الجملة الأخيرة منه- مبالغ فيه بالنسبة للأشخاص الذين خبروا العيش في بغداد خلال تلك السنوات، لكن الإحساس بالمبالغة يُردّ إلى شعور "التعود" على ظروف تلك الأيام، و"التعود" كان يشبه "هدنة" صنعها السكّان مع السلطة وقبلوا بها مرغمين، خاصّة مع الانهيار الأمني واتساع رقعة التفجيرات.

ويجدر القول إن السكّان أظهروا قبل أعوام من ذلك، وكذلك أثناء سيطرة "داعش" على مساحة ثلث العراق، مثابرة قلّ نظيرها في العيش داخل مدينة مُعسكرة تنتشر فيها شتّى الصنوف الأمنية. وقد تحمّل السكّان، خلال تلك المرحلة ولمرات عدة يومياً التعامل معهم على أنهم

[170] "العراق: حملة قمعية متصاعدة تستهدف الاحتجاجات"، هيومن رايتس ووتش، ٢١ نيسان ٢٠١١.

مشتبه بهم، وعايشوا الخوف من تهمة تشابه الأسماء، وتصرفوا بلطف أو حتى بلاهة خشية من إغضاب العناصر الأمنية عند الحواجز الأمنية، وتحملوا كذلك التدخل في خصوصياتهم عبر سؤال عناصر الأمن لهم الأكثر شيوعاً، حينها، عن المكان الذي تواجدوا فيه أو الذاهبين إليه.

وقد ظهرت عدّة بوادر عام ٢٠١٣ أظهرت انزعاج السكّان من عسكرة المدينة ومراقبة سكّانها. وقد مثّل عمل فني على المطعم التركي، البناية الشاهقة في ساحة التحرير، ذلك الانزعاج أفضل تمثيل من خلال رسم عين على طابقه الأخير تطل على المنطقة الخضراء شديدة التحصين مع كتابة جملة أسفلها: "اكدر اشوفك". استمر وجود هذا العمل لنحو ٦ أيام فحسب، وأثارت السلطة حوله إشاعات[171]، ليُجبر الفنان على إزالة العمل بعد ذلك. وعَكَسَ العمل الفني فعل المراقبة وردّه على السلطة من خلال توجيه العين إلى مقار السلطات السياسية والأمنية ومنازل المسؤولين.
وفي العام ذاته، دعا شبّان إلى تظاهرة وسط بغداد تحت عنوان "العراق ينتفض" للمطالبة بتحسين الوضع الأمني في المدينة ومحاسبة المقصرين في أجهزته؛ والأهم في ذلك هو توجيه الجيش والشرطة لتطبيق مبادئ حقوق الإنسان واحترام الشعب ورفع الحواجز الاسمنتية من الشوارع[172]. بيد أن السلطة أظهرت شراسة كبيرة لمنع تجمع الشبّاب، إذ توزّعت مختلف الأجهزة الأمنية بأعداد كبيرة داخل ساحتي التحرير والفردوس وفي الشوارع والأزقة الضيّقة، ومنعت التجمع واعتقلت عدد من المنظمين فور اقترابهم من الساحة[173].

وقد زادت السلطة المراقبة ورفعت من إجراءات الاشتباه بالسكّان بعد حزيران / يونيو عام ٢٠١٤ بعد سقوط محافظات شمال وغرب العراق بيد "داعش"، وذلك من خلال زرع حواجز أمنية أكثر داخل العاصمة، والتدقيق الأمني في كلّ الشوارع. وظهرت الفصائل الشيعية المسلّحة كلاعب أساسي ورسمي، مُذاك، في المراقبة الأمنية. وصارت بغداد، وفق هذا الوضع، غير مملوكة من السكّان وخاضعة للسلطة تماماً، لكن دون أن تضمن لهم السيطرة الأمنية سلطة القانون، مهما كان شكلها، ولا أمن عام في الشوارع، ولا مؤسسات تحتكر العنف. إضافة إلى كل ذلك، ترافقت السيطرة الأمنية على بغداد مع إهمال المدينة وتركها تتداعى وتنحدر إلى مستويات مُرعبة من التخلف، ومن ثم نقص فاضح في الخدمات مثل الشوارع المعبدة والطاقة والمياه الصالحة للشرب والنظافة، علاوة على نقص المساكن، وغلاء أسعار العقارات، بيعاً وايجاراً، وانحدار الخدمة في المؤسسات البيروقراطية والصحية والتعليمية. وفي ظلّ تداع كهذا، لا بد وأن يشهد الاقتصاد وقطاع العمل دماراً. وقد مثّلت هذه الأزمات، مجتمعة، مُحرّكات أساسية للاحتجاج منذ عام ٢٠١٥ وصولاً إلى عام ٢٠١٩.

[171] عبد الجبار العتابي، "عين كبيرة على مبنى في بغداد تثير الخوف والريبة في النفوس"، موقع "إيلاف"، ٢٩ آذار ٢٠١٣.
[172] "ناشطون يعدون لتظاهرة "العراق ينتفض"، صحيفة "اليوم السابع"، ١ آب ٢٠١٣.
[173] " العراق ـ قمع الاحتجاجات في بغداد"، هيومن رايتس ووتش، ٢٠ آب ٢٠١٣.

احتجاجات ٢٠١٥

مثّل غياب الطاقة الكهربائية عن منازل العراقيين أهم محرّض على الاحتجاج، لكنه مثّل أيضاً تذكيراً لهم بغياب الخدمات الأخرى والحريات، ودليلاً على فشل السلطات في إدارة الحكم. وفي عام ٢٠١٥ كان غياب الطاقة في ظل ارتفاع درجات الحرارة إلى أكثر من ٥٠ درجة مئوية، دفعاً للتحشيد لتظاهرات واسعة، لكن مطلب توفير الكهرباء سرعان ما لحقته مطالب أخرى لا تُعد ولا تحصى. وفي تموز / يوليو، استطاع العراقيون، وسكان بغداد منهم، التحشيد لتظاهرات كبيرة، سبقتها توصيات بنزع أي رموز لا تشير إلى الهويّة الجامعة عنها، والاكتفاء برفع العلم العراقي لوحده[174]. وقد شعرت الفصائل المسلحة والأحزاب السياسية بخوف من انتزاع الشارع منها، الأمر الذي دفعها إلى التنسيق مع المتظاهرين للنزول معهم الى الشارع والقبول بشروطهم. بيد أنه سرعان ما ستتسع الهوة بين الطرفين وتتحول إلى عداوة، بدخول مقتدى الصدر بعد ذلك، بدلاً من الأحزاب والفصائل المسلّحة الأخرى، كلاعب في التظاهرات وحتّى مسيراً لها في أوقات لاحقة[175].

لكن، وعلى كل حال، فإن تظاهرات ٢٠١٥ أحدثت اختراقاً كبيراً لجهة تخفيف القبضة الأمنية على المدينة، فلقد تم إلغاء حظر التجوال الذي كان يبدأ في الثانية عشر ليلاً ويستمر حتى ساعات الفجر الأولى، وأجبر كذلك السلطات على إعلان مناطق كاملة في بغداد خالية من الظواهر العسكرية، ورفع كتل كونكريتية وحواجز أمنية من الشوارع. كما تم الايعاز بفتح جسور تربط جانبي بغداد اللذين يفصل بينهما نهر دجلة، علاوة على فتح المنطقة الخضراء أمام المواطنين[176]. صحيح أن الكثير من هذه القرارات لم تجد طريقها إلى التنفيذ، إلا أنها رغم ذلك كانت مقدمات لفرض قواعد جديدة لعلاقة السكان بالسلطة وذلك من خلال تشارك الأخيرة الحيز العام مع السكان بدلاً من احتكارها لنفسها.

مشكلة الصدر

هيمن مقتدى الصدر، رجل الدين الشيعي، على الحيز العام وفرض شروطه عليه منذ سقوط نظام صدام حسين في نيسان / ابريل عام ٢٠٠٣، وهو الذي لطالما كان مناهضاً لتحرير الحيز العام ومشاركته مع من يحملون أفكار غير اسلامية تتنافى مع نهجه. ففي عام ٢٠١١ كان الصدر مناهضاً للتحركات المدنية التي رفضت أَسَلَمة المُدن وتحويلها إلى نسخة "قندهار" الأفغانية[177]. ومع أن الصدر أظهر تهاوناً وتعاوناً ما مع المطالب المدنية في ٢٠١٥ و٢٠١٦،

---

174 "التظاهرات تعم أغلب المحافظات العراقية.."، صحيفة "المدى"، ١٤ آب ٢٠١٥.

175 " مقتدى الصدر يدعو أنصاره للانضمام لمظاهرات الجمعة في بغداد"، موقع "بي بي سي عربي"، ٢٥ آب ٢٠١٥.

176 "المنطقة الخضراء والشوارع المغلقة وحياة بغداد.. فتح الجسر المعلق الحل الأول"، صحيفة "المدى"، ٣٠ آب ٢٠١٥. وانظر أيضاً: " بغداد تعلن فتح "المنطقة الخضراء" المحصنة أمام العراقيين"، موقع قناة "فرانس برس"، ٢٩ آب ٢٠١٥.

177 "مقتدى الصدر يدعو اتباعه للتظاهر لدعم قرار حكومي بغلق محال الخمور"، موقع "دنيا الوطن"، ١٠ كانون الأول ٢٠١٠.

إلا أن ذلك كان ضمن شروطه ولغته التي فرضها على الجهات المدنية التي انقادت خلفه في تلك المرحلة.

كان مقتدى الصدر قد أظهر مُقدمات لتشارك الفضاء والحيّز العامين قبل نحو سنتين من مشاركته في تظاهرات ٢٠١٥. إذ عهد الصدر على إجراء حوارات مع صحفيين وصحف علمانيّة، وفتح باب النقاش بشأن "المدنيّة" التي وجدها أفضل من "العلمانيّة"، وأبدى آراء على انفتاحه على خيارات مثل الفيدرالية كشكل للحكم في العراق. إلى جانب ذلك، أبدى تعاطفاً مع حراك المناطق الشماليّة والغربيّة ذات غالبيّة السكّان السنة. فتحت حوارات وآراء الصدر تلك نقاشاً واسعاً بشأن مصداقيته، وبشأن إمكانيّة تحوّله إلى شريك للحركات الداعية إلى إخراج الدين من الحيّز والفضاء العامين، وإعادتهما إلى المؤسسات الدينية مثل المدارس والجوامع والحسينيات والمنظمات الخيرية الدينية.

وقد أظهرت تلك الآراء اتجاهات عدّة في المجتمع العراقي، على رأسها صراع أجيال، بين جيل أكبر سنّاً يُريد الحفاظ على النظام الذي تأسس بعد غزو العراق، وبالتالي إصلاحه من خلال استمالة شخصيّات مثل الصدر، وجيل آخر بدأت تتشكّل لديه آراء باستحالة إصلاح هذا النظام. إلا أن الأخير كان آنذاك جيلاً يافعاً ولا يمتلك بعد أدوات (إعلام ورأس مال مادي وثقافي) وكاريزمات تمكّنه من التأثير في الرأي العام. ولقد أدّت النقاشات في النهاية إلى ما يشبه انتصاراً للجيّل الأوّل وللصدر بطبيعة الحال على الجيل الثاني، ما جعل الصدر يحصد مكانة، داخل الحركات المدنية، مثل الحزب الشيوعي ومجموعة من الباحثين والكتاب اليساريين والليبراليين.

ويمكن تفسير اتجاهات الطرفين، الصدر والجيل الأقدم من "المدنيين"، على أنه تحرّك إلى عقد ما يشبه تحالفاً على الأهداف المشتركة. فقد آمن الجيل الأقدم من المدنيين بالنظام السياسي وإمكانية تطوّره وتطوّر الشخوص الذين يديرونه، وهادن حتّى بتغيير مصطلحات عقائده من "علمانية" إلى "مدنية" حتّى لا يُغضب خصومه وأصدقائه من الإسلام السياسي؛ وهذا بالإضافة إلى قبوله استعمال رموز القوى الإسلامية وخطابها في أحيان كثيرة في الفضاء والحيز العامين. وبدلاً من الحثّ على بناء مجتمع مدني يُدار بآليات ديمقراطية ويُحدث ثقلاً داخل المجتمع مثل الاتحادات والنوادي والمؤسسات الثقافية والنقابات والجمعيات الصناعية وغرف التجارة الخ، فإنه اكتفى بإنشاء وتقوية وتشجيع منظمات مجتمع مدني تتلقّى دعماً أجنبياً لإدارة برامج فرض الكثير منها من الجهة الممولة. وهذا علاوة على قصور نظرته إلى أهميّة الحكم المحلي والمجالس الأقضية والنواحي بوصفها فاعلاً ومحرّكاً لإحداث تغيير سياسي.

أدى إهمال كل هذه الأعمدة الاجتماعية في نهاية المطاف للجوء إلى الصدر بوصفه قوّة قابلة للتغيّر. هل كان الصدر كذلك حقّاً؟ في قمّة انفتاحه الذي حظي بتقريظ لا يحصى[178]، أشار الصدر إلى أنه يريد للتيار المدني "بعض التشذيب والتهذيب والاشراف الديني ولو من خلف

[178] يُعدد الصحفي سرمد الطائي الكتّاب الذين يتقاسمون معه نظرته بشأن تطوّر الصدر سياسياً، وإمكانية تحوّله إلى حليف محتمل في بناء الدولة المدنية، انظر: سرمد الطائي، "العلمانية تنقسم حيال الصدر"، صحيفة "المدى"، ٣٠ آذار ٢٠١٣.

الكواليس"، وإن نفى أنه يريد أسلمته[179]. وعلى الرغم من عدم ديمقراطية الصدر التامّة، إذ إن علاقته بأنصاره قائمة على "الطاعة"، وعدم استشارته للجيل القديم من التيار المدني في أي خطوة يتخذها[180]، إلا أن أفراد غير قليلين من هذا الجيل ظلّوا يمدون الصدر بالطاعة السياسية غير المحدودة، ويتصرّفون كأفراد مطيعين ومخلصين له، حتى إنهم صاروا يقرأون خطاباته مبتدئيها بجملة "سماحته" ومنتهين بترديد التاريخ الهجري الذي يختم فيه الصدر بياناته والذي لا يعرفه إلا الإسلاميون.

إن مراد الصدر من هذه التحالفات "المدنية" لم يكن تشارك الحيّز العام، بالقدر الذي أراد استخدام فئات جديدة لبسط نفوذه وأفكاره من خلالها وعليها. عليه فقد استخدم المدنيين لإعادة تصدير نفسه في كلّ مرّة كانت ثقة أنصاره فيه تعاني اهتزازاً. إلى جانب ذلك، حافظ الصدر بشكل أو بآخر على هيمنة القوى الإسلامية على الحيّز العام والسياسي، بحمايتها من الانهيار ومن الراديكالية التي بدأت تتكوّن في الشارع ضدّها. على سبيل المثال، انمحق شعار "باسم الدين باكونا (سرقونا) الحرامية" مع توجيه الصدر بدخول تياره التظاهرات عام ٢٠١٥، وتجنّب المتظاهرون نقد الصدر وكتلته السياسيّة، على الرغم من أنه مُشارك ومُسيطر على وزارات خدميّة مثل الصحة والكهرباء ومفاصل عديدة من التربيّة. ولقد سيطر الصدر، من خلال إشراك أنصاره في التظاهرات، على خطاب ساحة التحرير والتصرّف فيها.

بيد أنه من الضروري ذكر أن شرارة الاحتجاج لطالما أطلقتها على الدوام فئات أخرى لا تنتمي للصدر أو أفراد النخبة والأحزاب المدنية الذين نسبوا لأنفسهم تحريك الاحتجاجات. ففي شباط ٢٠١١ كانوا الطلبة[181] وفي ٢٠١٥ كانوا شبان الأرياف في محافظات الوسط والجنوب[182]، وفي ٢٠١٩ كانوا شبّان المناطق الأكثر فقراً في بغداد[183]. وإذا كان الحراكين الأوّلين آلا إلى الانصياع لخطاب النخبة المدنيّة والصدر، فإن حراك عام ٢٠١٩ استفاد من تجاربه السابقة، ولم يسمح مقيميه ومشاركيه إلا بفرض قواعد جديدة للاحتجاج وتحرير الحيّز والفضاء العامين.

استرداد الحيز العام

لقد بدت بغداد في السنوات التي أعقبت احتلالها مدينة فوضوية لا تحكمها قواعد، إلا أن هذه الفوضى، على العكس مما يشاع، تحمل في داخلها تنظيماً كبيراً، فلقد تأسس على مدى العقدين

[179] حوار أجراه الصحفي سرمد الطائي مع السياسي ورجل الدين مقتدى الصدر، انظر: " المدى تنشر القسم الثاني من لقاء مهم أجراه سرمد الطائي مع سماحة السيد القائد"، موقع "جوابنا" التابع للصدر، ٢ نيسان ٢٠١٣.

[180] حضر الكاتب اجتماعات عدّة لعدد من منظمي التظاهرات الذين تحالفوا مع الصدر بين عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦.

[181] فاضل مشعل، "طلبة العراق يتبرؤون من المالكي"، موقع "الجزيرة نت"، ٢٢ نيسان ٢٠١١.

[182] مازن الزيدي، "الإصلاحات العراقية: نظام المحاصصة يواجه مصيره"، موقع "السفير العربي"، ٣٠ آب ٢٠١٥.

[183] "مجلس بغداد يحمل الجيش مسؤولية مجزرة مدينة الصدر : ذوي الضحايا ينتظرون إجراءات الحكومة"، صحيفة "المدى"، ٩ تشرين الأول ٢٠١٩.

الماضيين أجهزة أمنية (منها مثلاً الحشد الشعبي)، وأعيد تنظيم أخرى في تشكيلات تهدف إلى قمع أي حركة اجتماعية مثل "قوات حفظ النظام"، ورغم أن السلطة دائماً ما تردّد أن هذه القوات هدفها تأمين الأمن للمواطنين، إلا أنه في لحظات الاحتكاك بين المجتمع والسلطة تبرز إلى أي مدى أن هذه القوات جاهزة للتدخل بشكل مباشر في قمع السكّان، وأنها أيضاً مُدربة لضبط حركتهم داخل المدن. وبغداد، كمدينة، يُعاد تشكيلها وفقاً لتصوّر متوّحش، إذ أخذ رأس المال المتماهي مع السلطة ساحات المدينة وأماكنها الخضراء وحوّلها إلى مجمعات تجارية، وأغلب المشاريع الجديدة التي تُبنى لا تمنح مساحة لالتقاء السكّان وتجمعهم. بغداد تتحول، والحال هذه، إلى مدينة ضدّ الاجتماع ليست في نظام إعمارها فحسب، بل وحتّى في سياساتها الأمنيّة وقوانينها و"لا قوانينها" التي تحكمها، وهذه الظروف كلّها لا تؤدي فقط إلى تحييد الحيز العام وإنما تتعدّاه إلى السيطرة على الحيّز الخاص.

لكن الاحتجاجات الواسعة التي انطلقت في الأوّل من تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٩ تحررت من تقاليد كثيرة سارت عليها التظاهرات السابقة التي شهدها العراق. كان التحشيد لها من قبل فئات ليس لها ارتباطات واسعة بنخبة المدنيين أو النخبة المثقفة، وظهر ذلك مثلاً بالدعوات الى التظاهر التي تضمنت أخطاء املائية ونحوية، ومَنْ شارك الدعوات على مواقع التواصل الاجتماعي زاد عليها اخطاءً. وتحدد يوم الثلاثاء موعداً للتجمع في ساحة التحرير، وهي من أولى التظاهرات غير القطاعية التي تضع يوماً للتجمع في منتصف الأسبوع للاحتجاج. كان ذلك ضرب من الخيال، لأنه توجب على الراغبين في المشاركة ترك أعمالهم للحضور إلى الساحة، وهذا يتعارض تماماً مع تظاهراتي شباط ٢٠١١ وتموز ٢٠١٥ اللتين جريتا في يوم الجمعة من كل أسبوع.

إن هذه التفاصيل الصغيرة جرّت حكماً على فشل التظاهرات قبل انطلاقها، بيد أن أعداد المتظاهرين أحدثت مفاجئة لدى الجميع. وخلال ستة أيام من التظاهرات مارست السلطة العراقيّة أبشع أساليب القمع. استعملت فرق قناصين، وأطلقت الرصاص الحي بكثافة، وأخرجت قوّات مكافحة الشغب كل عدّتها وعتادها وأطلقته على المتظاهرين. أُغلقت الطرق وجرى محاصرة الأحياء بقوّات الجيش، وجرى عزل العراق تماماً عن العالم، إذ حُجبت خدمة الإنترنت وأُضعفت شبكات الهاتف المحمول، فضلاً عن إغلاق قنوات فضائية وتهديد بعض الصحافيين[184].
ولا يُمكن فهم التعامل الأمني مع المتظاهرين في الأسبوع الأول من تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٩ من دون فهم السلطة وتسييرها للأمن بشكلٍ عام في العراق. فالعراق يُعدّ "دولة منهارة" نتيجة للأزمات وفشل الحوكمة فيه وتكاثر السيادات فيه بموجب تعليق القوانين أو استعمالها بحسب الحاجة من قبل جهات متعددة سواء تابعة للدولة أو مستقلة عنها، على رأسها الميليشيات والجماعات المسلحة والعشائر. مكّنت السيادات المتعددة هذه الجهات من السيطرة على المدينة

[184] عمر الجفال، "العراق الشاب.. أعزلٌ في وجه "اللا دولة"، موقع "السفير العربي"، ٢٢ تشرين الأوّل ٢٠١٩.

وفرض أعرافها فيها، بحيث باتت تسـيّر حياة السـكان وتفرض نمط لمعيشـتهم وبالتالي إلغاء المعنى السياسي لحياتهم.

وبالمقابل فإن أي مقاومة لهذه السـيادات تُشـكّل تهديداً لها ما يدفعها إلى نزع الآدمية عن مقاوميها، مادياً ومعنوياً، باستعمال العنف الوحشي ضدّهم؛ وهو بالضبط ما حصل في الأسبوع الأول من الاحتجاج في تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٩، حيث سقط في عموم مدن العراق أكثر من مئة قتيل، وأصيب أكثر من ستة آلاف بإصابات متفاوتة[185]. وقد كان العنف مخططاً، كما أشار ريناد منصور وعمر سري، إذ وُضِع "كاستراتيجية مركزية" لقمع انتفاضة تشرين[186].
استمرت الحكومة في تفعيلها للعنف كاستراتيجية مركزية في الموجة الثانية من التظاهرات التي انطلقت في ٢٥ تشرين الأوّل / أكتوبر، إذ فرضت السلطات ما يُسمّى الإنذار (ج) في المؤسسات الأمنية، وهو أقصى درجات الإنذار الأمنية القصوى في الأخيرة. وترافق إدخال جهاز مكافحة الإرهاب لمراقبة المتظاهرين بالتزامن مع إعلان[187] رئيس مجلس القضاء الأعلى فائق زيدان، بأنه يمكن التعامل مع المحتجين الذين يلجئون إلى تكتيكات لا تعتبر سلمية وفقاً للمادة (2) من قانون مكافحة الإرهاب المقر عام ٢٠١٥[188]. أي أن القضاء وفر عبر هذا الحكم وسيلة قانونية، تمكنت الحكومة من خلالها من تعريف وتشخيص المتظاهرين السلميين بأنهم "إرهابيون"[189].
بيد أن تشديد القبضة الأمنية للسيطرة على المدينة والسُكان قوبلت بمقاومة كبيرة تمثّلت بمحاولات حثيثة للإمساك بالمدينة، واستعمال شوارعها ومبانيها كمصدات حماية من العنف، بينما ساعد السكّان خارج ساحات الاحتجاج بكسر كل التعليمات "القمعيّة" المفروضة من السلطة.

---

[185] " العراق: أكثر من مئة قتيل و6 آلاف جريح في المظاهرات والحكومة تعلن "تدابير اجتماعية" لتهدئة الأوضاع"، موقع قناة "فرانس ٢٤"، ٦ تشرين الأول ٢٠١٩.

[186] ريناد منصور وعمر سري، "النخبة السياسية العراقية: طُغمة تعيش على العنف"، موقع "مدى مصر"، ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١٩.

[187] في ٥ تشرين الثاني / نوفمبر عام ٢٠١٩، عقد رئيس مجلس القضاء الأعلى فائق زيدان اجتماعاً ضم رئيس الادعاء العام، ورئيس محكمة استئناف بغداد/الرصافة، ورئيس محكمة استئناف بغداد/الكرخ، والقاضي المشرف على المركز الإعلامي، إذ أكد بيان صادر عن مجلس القضاء وزع على وسائل الإعلان أن المجتمعين "ناقشوا جرائم الاعتداء على الممتلكات العامة والخاصة وقطع الطرق وإيقاف العمل في الموانئ الذي سبب ضرراً كبيراً باقتصاد البلد من توقف تصدير النفط وعدم دخول المواد الغذائية والاستهلاكية الى البلد الأمر الذي انعكس على زيادة الأسعار، كذلك قطع الطرق وتعطيل عمل المدارس وتأثير ذلك سلباً على الأداء التعليمي وحرمان طلبة المدارس من الدراسة ومنع الموظفين من الوصول الى الدوائر التي تقدم الخدمات للمواطنين". وأشار البيان إلى مناقشة المجتمعين لظاهرة شاذة قام بها البعض تكمن بالاعتداء على رمز الوطن (قوات الجيش والشرطة) وما يشكله هذا الاعتداء من ظاهرة شاذة لا تمت للوطنية بأية صلة كون من يعتدي على الجيش والشرطة وهم من صنع النصر على الإرهاب وحافظ على أمن المواطنين لا يمكن أن يُعتبر (متظاهر) يطالب بحقوق لذا ينبغي التعامل مع جميع من يخرج عن إطار التظاهر السلمي ويرتكب جرائم الاعتداء وقطع الطرق ومنع الموظفين من العمل وارتكاب جرائم الحرق على وفق قانون مكافحة الارهاب النافذ الذي عرّف الجريمة الإرهابية في المادة الثانية منه وعدد صورها ومن بينها جميع الحالات التي تمت مناقشتها والتي لا تمت للتظاهر السلمي بأية صلة. انظر "القضاء الأعلى يحذر من الظواهر "الشاذة" الخارجة عن التظاهر السلمي"، وكالة "شفق نيوز"، ٥ تشرين الثاني / نوفمبر.

[188] تعد المادة الثانية من قانون مكافحة الإرهاب المقر عام ٢٠١٥، الأفعال الإرهابية في البند الأوّل بأنه "العنف او التهديد الذي يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو تعرض حياتهم وحرياتهم وأمنهم للخطر وتعريض اموالهم وممتلكاتهم للتلف أيا كانت بواعثه وأغراضه يقع تنفيذا لمشروع إرهابي منظم فردي أو جماعي "، أما البند الثاني من القانون فيعد العمل الإرهابي على أنه "العمل بالعنف والتهديد على تخريب أو هدم أو اتلاف أو إضرار عن عمد مباني أو أملاك عامة او مصالح حكومية او مؤسسات او هيئات حكومية او دوائر الدولة والقطاع الخاص او المرافق العامة والأماكن العامة المعدة للاستخدام العام أو الاجتماعات العامة لارتياد الجمهور أو مال عام ومحاولة احتلال أو الاستيلاء عليه او تعريضه للخطر أو الحيلولة دون استعماله للغرض المعد له بباعث زعزعة الأمن والاستقرار".

[189] ريناد منصور وعمر سري، مصدر سابق، الهامش رقم ٥٧.

الموجة الثانية من التظاهرات

لقد أظهر السـكّان تحدياً قويّاً لمقاومة أفعال السـلطة الماديّة والمعنويّة، وذلك من خلال تحرير الفضـاء والحيّز العامين من سـيطرتها. وعلى الرغم من وجود أعداد كبيرة من الدعوات التي حثّت على التظاهرات في ٢٥ تشرين الأول / أكتوبر، إلا أن دعوة مكتوبة لتنسيقية التظاهرات تشكّل مدخلاً جيّداً لفهم أدوات التواصل وكيفية تمكن المتظاهرين من الانتشار والسيطرة على المدينة. وتمكن أهميّة هذا الدعوة لكونها تركّز على تحرير الحيز والفضـاء العامين، فقد طالبت التنسـيقية المتظاهرين بالانتباه إذا ما تم قطع خدمة الإنترنت، أن يتم التواصـل بينهم عبر الاتصـالات أو الرسـائل الهاتفية للمحافظة على زخم التحرك والثورة على الأرض. إلى جانب ذلك، حدّدت نقطة التجمع عند الساعة التاسعة صباحاً في ساحة معارض السيارات قرب طريق قناة الجيش التي تعزل مناطق شـرق بغداد، ومن بعدها يتم التوجه إلى سـاحة التحرير، ومن ثم طريق جسـر الجمهورية إلى المنطقة الخضـراء. وانتهت دعوة تنسـيقية التظاهرات إلى الطلب من المتظاهرين بأنه إذا وقع إطلاق النار أو اسـتخدمت القوات الحكومية أو غيرها العنف في مواجهتهم، فإن عليهم البقاء في مواقعهم والحفاظ على أجسـادهم وتوثيق من يطلق النار عبر الكاميرات الخاصـة[190]. كما حرص المحتجون خلال الموجة الثانية من التظاهر من السـيطرة على الفضـاء العام، إذ هيمنوا على مواقع التواصل الاجتماعي على الرغم من وجود ما يُسمّى بـ"الجيوش الالكترونية" للأحزاب والسلطة ومحاولتها ضخ معلومات مضللة، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما أخذوا بتأسيس إذاعة تبثّ من السـاحة وصـحف تغطّي الاحتجاجات وتنشـر بيانات التنسيقيات[191].

ومن الحالات الكثيرة التي أبرزت سـيطرة المتظاهرين على الحيز العام، يجدر الوقوف عند تجربة السـيطرة على المطعم التركي في سـاحة التحرير لما عدّه ذلك من إحراز تقدم هائل للمتظاهرين العزل من الناحية الامنية. فهذه البناية الشـاهقة والمهجورة منذ أكثر من عقد ونصف، تطل طوابقها العليا على مداخل المنطقة الخضراء وتحركات الأمن من جانب الكرخ، بينما تكشـف التجمعات وتحركات المتظاهرين من جانب الرصـافة. كانت هذه البناية مركز عمليات القوات الامنية على مدار العقد الماضـي، والتي لطالما اسـتعانت بها لمراقبة المتظاهرين، وحتى أنها نصبت فيها قناصين في عام ٢٠١١.

إلا أن المتظـاهرين في تشـرين الأول / أكتوبر ٢٠١٩ سـيطروا على المطعم التركي في السـاعات الأولى من موجة الاحتجاجات الثانية، ما ضـمن لهم، أولاً، عدم اسـتخدامها من قبل القوات الأمنية، وثانياً، كشـف تحركات القوات الأمنية التي باتت تحت المراقبة، في حال جرى تعزيز ها أو تقدمت باتجاههم. وقد تعامل المحتجون مع هذه البناية كقلعة لهم وحذروا من

[190] "تنسيقيات تظاهرة 25 أكتوبر تقترح طرد النواب والمسؤولين وترفض تواجد الصدريين"، صحيفة "المدى"، ٢١ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٩.
[191] راجع فصل بلسم عوني عن الإعلام في هذا الكتاب

فقدانها، فأمدوا المعتصـمين فيها بالطعام والماء على مدار فترة الاحتجاجات. وقد سـمّيت بناية المطعم التركي بــ"جبل أُحد" تيمناً بــ"معركة أحد" التي خسرها المسلمون بسبب تركهم للجبل. ويعرف العراقيون هذه القصّة جيداً من فيلم "الرسالة" لمصطفى العقاد، الذي يكاد يحفظ صغار العراق وكباره حواراته بالكامل، وليس من درس التربية الإسـلامية في المدارس! إضـافة إلى كل هذا، فإن هذه البناية اســتعملت كحائط دعاية لأفكار المتظاهرين باختلاف توجهاتهم، وقد شهدت إلصاق مئات الشعارات والملصقات على جدرانها الخارجية.

بموازاة ذلك، سـيطر المحتجون بشـكل كامل على سـاحة التحرير ومقترباتها، بعدما فشـلت السـلطة بدفعهم للتراجع رغم اطلاقها الغازات المسـيلة للدموع بكثافة. وفي كل تقدّم للسـلطات على المتظاهرين كان المعتصــمون والمحتجون يطوّرون خطّة اســتراتيجية للحدّ من أثرها. وعلى هذا الأساس برزت تسميات عديدة بين المتظاهرين عن فئات تقوم بأدوار للحدّ من بطش الحكومة. فمثلاً أُطلق اسـم "المتقدم" على مجموعة من سـائقي "التُك تُك"، الذين صـار دورهم المناورة وعدم فســح المجال لتقدم عناصــر وعربات مكافحة الشــغب. أما النفق الذي يحاذي ساحة التحرير فسميّ بــــ"مقر قيادة قوات مكافحة الدخانيات"، إذ قام مجموعة شباب يحملون أغطية بانتظار القنابل المسيلة الدموع لتسقط عليهم من الأعلى لإخماد مفعولها. وسميّت ساحة الأُمة خلف نصب الحرية بــ"البهو"، حيث تتوفّر الأطعمة والمشروبات والسجائر، وفي الغالب تقود ترتيب هذه الأمور مجموعة من النســاء. وهناك مجموعات "الدعم اللوجسـتي"، ومهمتها جمع التبرعات لشراء الكمامات والأطعمة والأدوية ونقلها إلى ساحة التحرير.

كما تمظهر اسـتعادة السـيطرة على الحيز العام بعدة أشـكال سـواء في السـاحات أول شـوارع بغداد، وتحصـيل حقّهم في المدينة وحتّى إعادة اختراعها لتلائم "أهواء قلوبهم"، بحسـب تعبير ديفيد هارفي. ففي ساحة التحرير، نظم طلبة الطب إضراباً عن دوامهم الجامعيّ وفتح كل قسم منهم خيمة صـغيرة لمعالجة المصـابين، بينما قدّم أعضـاء نقابة المحامين محاضـرات بالقانون وحقوق المواطنين. كما ظهر الشــعور الاحتفالي للتجمع، مثل مشــاهدة مباراة كرة قدم من شـاشـات كبيرة وسـط الشـارع، والقيام بحفلات موسـيقية مرتجلة، وتحوّل خِيم إلى مراكز فنيّة تقدّم عروضـاً سـينمائية ومسـرحيّة وموسـيقية، إلى جانب خيم أخرى قدّمت محاضـرات دينية وردّات حسينية.

إلى جانب ذلك، تحدى سـكّان بغداد التعليمات التي فرضـتها السـلطات للحدّ من الحركة داخل المدينة، وهو أمر ندر حدوثه حتى تلك اللحظة على الأقل جماعياً. وذلك أثبت أن "حرية الحركة"، بحسب ما تؤكد حنة ارندت "هي (..) الشرط الضروري للفعل"[192]، ولقد أثبت سكّان بغداد ذلك بتحققيهم اتفاقاً جمعياً فيما بينهم على فعله بمجرد اصــرارهم على حرية الحركة. إذ كانت بغداد تقبع تحت حظر تجوال يفرض في السـاعة الثانية عشـر ليلاً، فنجح السـكّان بكسـره

[192] المصطفى الشاذلي، " حنة أرندت ونقد التصور الفلسفي للحرية"، مجلة "تبين" الفصلية، العدد 7/ صيف 2018، ص٤١.

بخروجهم إلى الشوارع بسيارتهم قبيل ساعة من سريان موعد الحظر، ولم تستطع القوات الأمنية أمام كثافة المد البشري من القيام بأي حركة[193].

وبدا أن الجميع مشغولون بالحفاظ على ساحة التحرير، لأنّها صارت مكاناً يعبّرون فيه -أو يُعبَّر فيه- عن آرائهم، وبإمكانهم أيضاً الاجتماع فيه لرؤية أناس يخوضون معهم نقاشاً سياسياً أو اقتصادياً أو فنيّاً من دون أن يتجاوز أحدهم حق الآخر بالتعبير عن رأيه. وقد ساهم في ذلك أن ساحة الاعتصام باتت بالنسبة للكثيرين أكثر أمناً لهم من كل شوارع المدينة، لأنها خاضعة لسيطرة المعتصمين وهم الذين يديرون شؤونها. وهكذا، ووسط دخان القنابل المسيلة للدموع وضجيج الرصاص الحي والمطاطي، وجد عدد كبير من العراقيين فرصة للنقاش السياسي وإن كانت اتجاهاتهم السياسيّة مختلفة، وهيمن مفهوم "المواطنة" كأساس لهذا النقاش، بمعنى أن الطوائف والأديان والأعراق لم يكن لها دور كبير في سير تبادل الآراء. وحتّى بعد انضمام أنصار مقتدى الصدر، فإن النقاش مع المعتدلين منهم أخذ أبعاداً أخرى عن حريّة الرأي والتظاهر بمعزل عن أوامر زعيم روحي أو ديني. وقد قبل جمهور واسع من أنصار الصدر -قبل أن ينقلب الصدر على التظاهرات-[194] الاختلاف الفكري وطُرق التعبير بالرقص والموسيقى في ساحات الاعتصام[195].

وقد أدّى هذا النقاش والحوار بين المعتصمين إلى تغيير المطالب و"عقلنتها" -إذا جاز القول. فبدلاً من مطلب إسقاط النظام برّمته، تحوّلت المطالب إلى إيجاد صيغة قانونية تتمثّل بمطالبة الدولة ببسط نفوذها واحتكار السلاح ومحاسبة المتورطين بالدم والفساد. كما صيغ مطلب بإصدار قانون للانتخابات يضمن تمثيلاً عادلاً للأحزاب الصغيرة والمستقلين، ومفوضية عليا مستقلة للانتخابات بإمكانها ضبط عملية الاقتراع وضمان عدم تزوير نتائج الانتخابات. وما كان لهذه المطالب أن تتبلور من دون وجود نقاش حقيقي بين سكّان اجتمعوا في مدنهم وناقشوا مستقبلهم وخطواتهم.

وفي المحصلة، عملت المخيلة على إعادة تشكيل ساحة التحرير بما يتلاءم مع المتواجدين داخلها، فنفق ساحة التحرير تحوّل إلى جدار رسم هائل، وضمت رسوم "الغرافيتي" آراء وتعابير مثّلت ليست أذواقاً فنية مختلفة فحسب، وإنما أراء اجتماعية وسياسية مغرقة بالاختلاف، لكن ذلك لم يؤدِ إلى محوها. وقد تكون إضاءة نصب الحريّة وسط تصفيق كبير من الحاضرين، على الرغم من الاختلافات الفنيّة مع هذه الخطوة، فإنها وبما قدّمته من رؤية جديدة للنصب، ترمز إلى استعادة العراقيين لحقهم بالمدينة وذلك كمقدمة لاستعادة دولتهم ككل. إن الأجواء الصاخبة في ساحة التحرير، إن كان الموت سيدها أم الاحتفال، انتهت نتيجة لتظافر

---

193 "مظاهرات العراق: آلاف يكسرون حظر التجول في العاصمة بغداد، وقتلى ومئات الجرحى في مصادمات في كربلاء"، موقع "بي بي سي عربي"، ٢٨ تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٩.

194 " الصدر حليف الأمس خصم إضافي لمتظاهرين عراقيين"، موقع قناة "فرنس ٢٤"، ٧ شباط / فبراير ٢٠٢٠.

195 استُقيتْ هذه المعلومات بالاعتماد على مقابلات أجراها الكاتب مع عدد من المعتصمين والمحتجين وسكّان من جندر وطبقات وخلفيات مختلفة. وبلغ عدد المشاركين في هذه المقابلات نحو ٢٦ فرداً.

جهود عدّة خارجيّة وداخليّة وتنظيمية، وعادت السلطة لتسيطر على الحيّز والفضاء العامين في بغداد. بيد أن تجربة تشـرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٩ وما تلاها من أشـهر الاحتجاج، يمكنها أن تكون مُقدمة مهمّة للمجتمع في طريقه الطويلة لاسـتعادة المدينة وإعادة تخيّلها بما يُلائم متطلباتهم.
وعلى حدّ تعبير أحد المتظاهرين، فإن التظاهرات كشفت عمق المشكلات التي يعانيها العراق وصعوبة معالجتها، لكنها كشفت أيضاً فداحة ما نحتاجه نحن كأناس في هذه المدينة لنتحدى السلطة والظروف القاهرة التي تفرضها علينا[196].

الخلاصة
لقد أظهرت احتجاجات تشـرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٩ قدرة العراقيين على تحرير الحيّز والفضاء العامين بأساليب وطُرق مبتكرة. وظهر لهم، بشكل جلي، أهميّة الاجتماع والنقاش وخوض الصراع لتعديل ظروفهم، واقتراح أدوات سياسيّة واجتماعية تؤدي إلى مستقبل يتوقون إليه.
عليه، فإن التوعيّة بالحيز والفضاء العامين وضرورتهما للمجتمع وتُمثّل واحدة من أكثر القضايا المُلحة لمجتمع مثل المجتمع العراقي يُحاول إرساء عقد اجتماعي جديد يتجاوز الماضي بكل مشكلاته إلى دولة مواطنة تضمن العدالة للجميع.
وعلى الرغم من أن مُدن العراق تتعرّض لهدم مستمر، إلا أن ما تبقّى منها وما يُعمّر على أنقاضها يحتاج إلى مراجعة مستمرة ونقد لجهة تأثيره على المجتمع والمدينة، إن الأماكن العامة ليست أماكن ترفيهية فحسب، وإنما هي مساحات ينشأ فيها المجتمع، وفي هذا المجتمع يجب أن يدور صراع لا عنفي، حيث بإمكان السكّان التعبير عن آرائهم بحريّة، ومن ثم يمكن التوصل إلى حلول متوسّطة، أو حتّى نقل الصراع إلى داخل المؤسسات الرسميّة، لتقوم هذه الأخيرة بعقلنته.
وفي الواقع، فإن هذا جميعه لا يمكن تحقيقه من دون بناء مجتمع مدني على أسس سليمة، مجتمع مدني لا يكتفي بالمنظمات، وإنما يعتمد على منظمات ونقابات واتحادات تتداول مناصبها وشؤونها بديموقراطية. وقد أثبتت تظاهرات تشرين الأوّل / أكتوبر إلى مدى يمكن أن تؤثر مثل هذه المؤسسات في استمرار الحراك الاجتماعي ودعمه، وهذا على الرغم من أن الكثير من هذه المؤسسات لديها أمراض مستفحلة.

[196] مقابلة مع أحد المتظاهرين، رفض الإشارة إلى اسمه.

الفتى الضاحك

خضير فليح الزيدي

كاتب وروائي ولد في مدينة الناصرية عام 1958، تخرّج من كلية الفنون الجميلة عام ١٩٧٦. يكتب الرواية والقصص والسرد غير المجنس، وأصدر أكثر من سبعة عشر كتاباً مطبوعاً. وحصل على جوائز عدّة منها جائزة الإبداع العراقية لمرتين 2010/ 2017.

في ذلك اليوم قيل إن السماء كانت صافية كعين الوزة، كوجه الفتى الطيب في ماركة جبنة "الفتى الضاحك". سماء زرقاء لا يعكر صفوها سوى الخيط الرمادي المقوَّس الذي شُوهد على صفحتها في تلك الساعة. اليوم الذي خرجت معظم العوائل من الكبار والصغار وعيونهم موجهة بقلق نحو سماء الخط الرمادي. الناس تحدق بهذا الخيط المريب، بعضهم راح يحجب الشمس بكفه ليدقق بتفاصيله.
كانوا يحاولون إقناع أنفسهم بأن هذا الخيط يعود لدخان طائرة غريبة نفثت دخانها في سماء مدينة الموصل، ثم غادرت بعيداً تاركة هذا الأثر الغريب، فيما فسّر بعضهم أنه إشارة بلاء قادمة، وما هو إلاّ مؤشر خراب وفتك، سيدمر المدينة عما قريب. فيما قال الرجل العجوز، خادم الجامع: "لا حول ولا قوة إلا بالله. كل ما يأتينا من الله؛ حيّاه الله. وكل ما يأتي من البشر، عوذوا بالله منه. أنّا لله وأنا إليه راجعون".

*

ضحكة العمر بعشر سنين فقط

بعد يوم واحد فقط على خيط الدخان هذا، وكان ذلك في الشهر السادس من سنة 2014. أصاب المدينة حدثاً مروعاً، إذ تغيرت بوصلة الحياة في مدينة الموصل وضواحيها، في اليوم الذي هجمت به الضباع على المدينة من ثلاثة محاور لتمزق جسدها الطري، وبأعداد ليست كثيرة. لكن المشكلة أن قوات حماية المدينة من خمس فرق عسكرية بكامل عدتها وعديدها، بما فيهم من شرطة اتحادية وقوات استخبارية، معظمها كانت في حالة من اليأس والإرباك والإحباط بعد هرب معظم القيادات العليا والرتب الرفيعة خارج المدينة، سواء بطيارات عسكرية أم بعربات مصفحة تحت جنح الظلام، وإلى خارج المدينة.
هرب القادة الكبار بعد أن أغلقوا هواتفهم وضاعت أخبارهم. تركوا أفراد الجيش والشرطة من دون قيادة. ولا يوجد قرار واضح لقيادتهم من الرتب الدنيا التي بدت كأنها لا تعرف كيف تتصرف، حتى انفلتت الأوضاع، وحدث الهروب الجماعي وتقهقرت قوات الجيش والشرطة.

انتشـر عناصـر تنظيم الضـباع واندفعوا لتطويق قوات الجيش المتبقية، وعبروا الجسـور إلى مركز المدينة بسرعة فائقة، ووصلوا إلى فندق نينوى الكبير بعد اقتحامه بسيارة مفخخة، لتبديد ما تبقى من القوة المدافعة عن المدينة.
قُتل من قتل وهرب المتبقين من الباب الخلفي، وتمّ السـيطرة على كامل أرجاء المدينة، ثم وضـعت حواجز في العقد المهمة وعلى رقاب الجسـور. دخلت الضـباع المتوحشـة حتى إلى مراكز الجيش والأفواج والقيادة العليا المدافعة عن المدينة ونهبوا مسـتودعاتها وآلياتها. أعلنوا عبر مكبرات الصوت أن المدينة تحت السيطرة ولا خوف على المواطنين المسالمين والمبايعين في الجوامع. في تلك اللحظة اختفى خيط الدخان تماماً وغاب الضـحك والكركرات وطارت العصافير إلى غير رجعة.
في تلك الظروف بدت الأحداث تتلاحق بسرعة فائقة، ولا يمكن لأحد ما أن يتكهن بما سيحدث لاحقاً. لكن سكان المدينة خبروا همجية وشراسة قوة الضباع المهاجمة، التي كانت تتسلل منذ سنين وتفتك بالمواطنين وخاصة من المواطنين المسيحيين.
هذه العوائل من أكثر المتخوفين في المجتمع الموصـلي. مرعوبة تحاول إيجاد الطريق الآمن للخروج من الموصـل وبكل وسـيلة، إذ كان التهديد والقتل هو الفكرة السـائدة التي أشـيعت في الأحياء المسيحية، مما أجبر عائلة الأرمني ريان سـالم وأبناء عمومته على الهجرة المبكرة من المدينة قبل أن تتمكن الضباع من افتراسهم.
اصـطفت السـيارات على الطريق الخارجي محملة بالأطفال والنسـاء على طريق الخلاص الوحيد من مدينة الموصل الذي يصل إلى أربيل، أو الطريق الآخر الذي يوصلهم إلى دهوك.
طابور طويل من السـيارات محملة بما خفّ حمله من أفرشـة وبطانيات وحاجيات أخرى ضـرورية. كان الأطفال في صـناديقها بينما الأفرشـة والبطانيات فوقها، لكنهم حرصـوا على اصطحاب أوراقهم الثبوتية، وما تبقى لديهم من قلائد ذهبية ومحابس وأساور وصور وصلبان صـغيرة تحملها النسـاء المسـيحيات في حقائب اليد، تحتضـنها خوفاً عليها من الضـياع. بينما تركوا البومات الصـور والأثاث وذكريات السـنين وعدة المكياج والعطور في أمكنتها داخل بيوتهم مشرعة الأبواب.
وصـلت عائلة ريان سـالم إلى مفرق الطريق الفاصـل بين دهوك وأربيل، ولم يحددوا أي الطريقين أصلح لهم، فيما الشائعات تنتشر عن قطع الطرق بحواجز تنظيم الضـباع بملابسـهم المميزة القندهارية الغريبة.
على إثر هذا المشـهد المأسـاوي تفرقت عائلة ريان سـالم عن الأقارب، فبعضـهم فضـل الهجرة الى دهوك مؤقتاً، ومن ثم البحث عن طريق آمن إلى تركيا، بينما جزء من العائلة فضّل الذهاب إلى مدينة أربيل والاستقرار في مدينة "عين كاوه" مركز تجمع المسيحين هناك، إذ تجمع هناك طيف واسـع من العوائل المسـيحية، ففيها من الكنائس التي آوتهم. عرف الأب ريان سـالم ذلك من خلال اتصال هاتفي مع أحد الأصدقاء، وأن الكنائس هناك فتحت أبوابها لاستقبال النازحين الجدد.
قرر الرجل التوجه إلى مدينة أربيل، على الرغم من أن الطريق إليها ليست سالكة، فثمة خوف ومشكلات وعساكر تطلب الأوراق الثبوتية وتدقق في هويات النازحين.

باتوا مثل أكثر العوائل النازحة والفقيرة ليلة كاملة في العراء على مقربة من سيطرة أربيل المركزيّة، حتى جاءت الأوامر للسماح بدخولهم أربيل بعد عملية تدقيق مذلة.
توجه ريان سالم، مهندس الديكور الذي ترك عمله وأحلامه في مدينة الموصل، بسيارة أجرة إلى مدينة عين كاوه. تتكون عائلته من ستة أفراد، التحقت معهم مجموعة ليست كبيرة من الأخوال والأعمام لاحقاً. اجتمعوا كلهم في كنيسة السيدة "مارت شموني" للمبيت فيها مؤقتاً. بمرور الأيام استطاع استئجار بيتاً متواضعاً في ركن قصي من المدينة واستقر فيها، بانتظار ما تجلبه لهم الأيام الحبلى بالمفاجأة، ومثلها كان المستقبل المهدد بالضياع. لا ينفع الأسف ولا البكاء على ما حصل لهم من تشرد ونزوح ومستقبل غامض، وكان على الأب البحث عن سبيل آخر لمواصلة الحياة.
كانت المخاطبات بين النازحين تدور على أسلم الطرق للخلاص، وتدور حول الأقاويل من هنا وهناك، ومن إمكانية فتح الأمم المتحدة نافذة الهجرة السريعة بشكل خاص لكل المسيحيين المهجرين في العراق. مما دفع معظمهم بالذهاب إلى تركيا أو الأردن كخيارين متاحين في ذلك الوقت.

*

ضحكة العمر بأحد عشرة سنة

كان الفتى الضاحك ريمون حزيناً ومكتئباً، وهو بعمر ١١ سنة فقط، لم تعد ضحكاته المميزة على عهدها الأول، بل كانت تخرج بنبرة حزينة، وكلما حاول إخفاءها تباغته نبرة الحزن لتتجسد بنظرة كسيرة وصوت متهدج.
يسبق الفتى ريمون عمره، ويكبر أكثر من سني عمره، في ذلك الوقت كان يعاني من فقدانه الرغبة في الانتظام بمدرسته في مدينة "عين كاوه"، بتلك الأيام العسيرة على فتى لا يفقه من النزوح والحروب والفاقة، سوى صوت بكاء أمه في الليل على ذكريات البيت القديم في الموصل، فيما الأب ريان يبحث عن فرصة أمل لترميم ثقوب جسد المستقبل المتهرئ. لذلك لم تعد المدرسة بالنسبة له سوى فكرة تافهة، والمستقبل محض شيطان يحاول افتراسه، كلما اقترب من بابها. كان يدرك بحسه الطفولي، بأنه لا وجود لفكرة "المستقبل الزاهر" العبارة المخطوطة على سياج المدرسة، في أرض تقضم تفاحة عمره هنا، إذ كان يصغي لأبيه وهو يتحدث عن سقوط مدن أخرى بقبضة الضباع والخطر على حياتهم بات قريبا.
حسم الأب ريان قراره بالهجرة إلى الأردن، على وفق مكالمة هاتفية مع أحد الأقرباء الذي أخبره من إمكانية الاستقرار في عمان، كي يستطيع من هناك تقديم أوراق هجرته إلى الـ"UN" وطلب الهجرة إلى أي أرض ستستقبله وعائلته كلاجئين، ليستعيد شعوره بالأمان الذي فقده في هذا البلد.
سافرت العائلة إلى الأردن وهناك استقرت في شقة صغيرة بمنطقة تدعى شارع الجامعة الأردنية، لم يعرف ريان ما يفعله هناك سوى الشعور بالأمان. لكن المعيشة أصبحت صعبة والمبالغ التي جلبها معه كادت تنفد شيئاً فشيئاً.

كانت مراجعة مكاتب الهجرة فيها من التعسف والغطرسة في التعامل مع النازحين والروتين القاتل في الاستجابة. الهجرة تحتاج إلى شهور أو ربما سنوات حتى يحسم أمرها، هذا إذا ما قبل طلبه؛ مما جعل الأب يحس بالإحباط مجدداً. راح يبحث عن عمل ما، أي عمل يستطيع أن يوفر لعائلته لقمة العيش، لكن رحلته ومراجعاته باءت بالفشل. حتى محاولات الصبي ريمون للبحث عن عمل في المحال والمكاتب أو المزارع، واستطاع العمل لأيام فقط، لكن صاحب المطعم طرده مع جملة "يعطيك العافية"، وهو لا يعرف السبب في طرده. الأمر الذي جعل الأب يفكر بطريق ثالثة بعد سنتين من عذاب التشظي وعدم الاستقرار، فاستقر رأيه على فكرة العودة إلى بغداد والاستقرار في شقة بمنطقة الكرادة.. تعود الشقة المتروكة إلى جد الأم.

*

ضحكة العمر بثلاث عشرة سنة

من جديد يحزم حقائبه ويقرر العودة إلى بغداد مجبراً، مع رغبة ريمون الشديدة في العيش بالعاصمة بغداد، على الرغم من صعوبة العيش فيها، خاصة لعائلة مسيحية في مجتمع مستفز ينبش في الأصول قبل رد التحية، مجتمع هواية معظم أفراده باتت تدقق في الديانة والطائفة والقبيلة والأصل واللهجة والبشرة والأزياء كي يقبل الآخر أو رفضه.

اثنتان من البنات الصغيرات وولدان وأم مثقلة بعذاب السنين وأب حائر فيما يفعله، يصلون إلى بغداد بينما الناس تحاول الخروج منها في ذلك الوقت العصيب، إلى بلد تنتشر فيه الإشاعات كالهشيم في حقل يابس. إشاعات تترد عن قوة الضباع في الوصول الوشيك إلى العاصمة.

تنقل الأب هنا في عدة أعمال كمهندس ديكور في البداية بمعمل لصناعة غرف النوم، لكن العمل توقف لأسباب اقتصادية، ثم وجد عملاً في مطعم بمنطقة "الكرادة " قريباً من جسر الجادرية. كان هذا المطعم الراقي ليس بعيداً عن شقته، وعندما احتاج مدير المطعم إلى عامل صغير لتنظيف المواعين، جلب معه ريمون للعمل في المطعم ذاته الذي يستقبل زبائن من الطبقة السياسية وعقد صفقات العمل المشبوهة. كان ريمون يسترق السمع لما يدور بين هؤلاء ويتحسر على حياته التي تبددت هنا أو هناك.

سارت الحياة بشكل متعرج وقلق صعوداً ونزولاً للعائلة، التي كانت تسرق يوما من أيام الأسبوع لتخرج إلى النزهة في أيام رمضان عندما أُغلِقَ المطعم تماما، إذ بدأ ريمون الفتى الضاحك التعرف على هوية هذه المدينة الشاسعة والأفقية بكل خناجرها وكواتمها وضحكها وصخبها في الليل في شارع أبي نؤاس.

حقق ريمون حلمه الأول في العيش في بغداد، كما حقق حلمه الثاني بشراء دراجة نارية صغيرة كان يقودها يومياً للعمل، بينما يذهب في أيام العطل إلى شارع أبي نؤاس، أو لمتنزه الزوراء للنزهة مع الأصدقاء الجدد في بغداد.

اشترى ملابس فاخرة من "محلات ابن زويد" في بداية "الكرادة داخل". اشترى قميصين وبنطلون جينز وآخر من الكتان وحذاء جديد من مرتبه لقاء عمله في المطعم. كانت كل

محاولاته هذه للإحساس في الحياة، حاله حال أقرانه من الفتيان الذين تعرف عليهم في العاصمة، سواء من خلال العمل أو الفيسبوك أو المقهى.
أصبح لريمون أصدقاء كثر، ومن كل المناطق المحيطة بالكرادة. يزورهم على دراجته في مناطقهم ويسهر معهم، أو يتراسل معهم عبر الفيسبوك كل يوم. رومي هو اللقب الذي يلقبونه به فقد كان محبوبا بينهم. عادت له الضحكة المفقودة. يطلقها فيضحك الأصدقاء. يحاولون أن يقلدوا صدى ضحكته المدوية لكنهم يفشلون.
أصبح ريمون محبوباً من قبل الأصدقاء، ومن جانبه أحب الحياة في بغداد، على الرغم من الأمن غير المستقر فيها، لكن شباب بغداد يحبون الحياة بطريقة لافتة. لم يعترفوا أبدا بموت الحياة فيها، على الرغم من احتدام الحراب والأزمات المتلاحقة فكل أزمة تحمل في بطنها أخرى، فثمة أمل كبير من كل هذه الفوضى، ثمة أمل في عيونهم وهم يقلبون الفيديوهات والصور عن حياة البشر وخاصة الشباب في كل أنحاء العالم، فيطمحون بتلك الحياة ويحلمون بقوة هذا الأمل.
كان ريمون يفكر بالانضمام للقتال ضد ضباع التنظيم، لكن عمره الصغير لم يسمح له بذلك.
حاول تزوير هويته لقبوله مع الشباب الملتحقين، لكن أمه اكتشفت الأمر وأحرقت الهوية المزورة ووبخته، بأن هذه الحرب لا تعنيهم كونهم نازحين ومهجرين، وهم القلة المرصودة من قبل الجميع، ولا أحد يتأسف على ما حصل لهم.
أمه المسكينة كانت تمنعه بقوة مرة بالبكاء، وبالرشد والنصائح والتخويف مرة أخرى. لم يستمر بالعمل في المطعم مع أبيه. انتقل للعمل بمهن أخرى. حصل على فرصة جديدة في محل لبيع الهواتف المحمولة، وفرها له أصدقاؤه بمحل يطل على الشارع العام بمنطقة أرخيته.
ثم عمل في مقهى شهير كنادل في الكرادة، هو مقهى للمثقفين والكتاب والفنانين يرتاده الشباب والمشاهير والنجوم إن كان هناك نجوم على قلة الضوء المنبعث منها. مقهى أنيق تعقد فيها جلسات للغناء وندوات أدبية وأخرى سياسية عما يحصل في هذا البلد المبتلى. رومي يتعرف على صاحب المقهى. يتعرف على صاحب قاعة البليارد، وعلى صاحب الكازينو وشرطي المرور وبائع الفلافل. لا أحد من شباب الكرادة إلا وقد سمع أو عرف رومي وضحكته التي أصبحت لازمته اليومية في شارع الداخل.
حتى جاء اليوم الذي تحررت كل الأراضي العراقي من الضباع في عام 2017. خرج ريمون بدراجته وهو يزمر فيها مستأنسا يسير في كل الشوارع القريبة من الكرادة، إذ انطلق في طابور كبير مع الأصدقاء على دراجاتهم ومعهم حشد من الشباب والنساء والجنود. نزل من الدراجة ورقص في عرض الشارع وانتشر فيديو له كان يرقص بطريقة لافتة فرحا في يوم التحرير من الضباع.

*

ضحكة العمر بخمس عشرة سنة

مرت سنتان وما زال ريمون يعيش منتشيا من فكرة بغداد المدينة الأليفة، قبل أن تتبدل الأحوال فيها بطريقة مرعبة، من قتل واختطاف وموت مجاني بعد انتشـــار جيش المناوئين. يشـتد عود ريمون ويختط شـاربه الأصـفر بخجل ولم يأخذ بنصـائح الأب من عدم الابتعاد عن شـقته، لأن بغداد حقا أصبحت مدينة مخيفة والحياة فيها تمحى بسهولة في كل يوم.
لم تكن ثمة فرصـة لريان الأب سوى البقاء في بغداد، حتى بعد أن تراجع الوضـع الأمني فيها. كما رفض العودة للمدينة المدمرة، وهو يشـاهد الصـور عن بيته في الموصـل محترقا ومهدما فتراجع الأمل في العودة إلى مدينته الأولى المدمرة. فبغداد والأصدقاء والفضاء البغدادي وألفة ســـحرها تجعله يحبها على الرغم من تراجع الحياة الآمنة فيها. فثمة فتية يصـــارعون لعودة الحياة فيها بقوة ومن ضـــمنهم ريمون الذي ســـرعان ما اندمج مع المجتمع البغدادي الشـــبابي المتطلع.
*

الضحكة الأخيرة للعمر
في بداية شهر أيلول انتشر خبر عن محاولة الشباب العراقيين الخروج بانتفاضة عارمة في يوم الأول من تشرين الأول من عام 2019. انتشر الخبر وتم تداوله على نطاق واسع عبر وسائل التواصـل. بدأ تحشيد الشباب لها في وسـائل التواصـل الاجتماعي. لم يكن ريمون الفتى محايدا أو معلقا، بل شارك في كل منشورات مشروع الانتفاضة، ومحرّضا كل معارفه للمشاركة فيها.
ذهب ريمون قبل يوم من اندلاع التظاهرات، صـــباحا إلى منطقة الباب الشـــرقي مع صـــديقه المقرب "زيوني" لشـــراء العدة اللازمة للتظاهرات لمجموعة "نريد وطن". اســـتلف مبلغا من المال من أمه التي تحججت بأنها لا تملك ســـوى مصـــروف البيت اليومي، لكن إلحاحه عليها وتقبيلها أكثر من مرة، اجبرها أن تعطيه ما يريد.
اشترى ملابس رياضية وفانيلة سوداء، ولم ينس توصيات الأصدقاء بشراء علم عراقي يرتديه كوشـــاح وتلك هي عدة التظاهر وتوصـــيات مجموعة شـــباب "نريد وطن"، أو الكروب الثاني المعروف "نازل اخذ حقي". عندما وصـــل ريمون البيت اخفى عدته في خزانة ملابســـه الصغيرة.
كانت الأوضـاع في تلك السـاعات متشـنجة جداً، والشـارع محتقناً بالأقاويل والإشـاعات، بعدما قامت قوات مكافحة الشـــغب بمنطقة العلاوي من الاعتداء على الخريجين من طلبة الدراســـات العليا، والأكثر من هذا عندما تعرضت الخريجات إلى دفق رشاش الماء الساخن من السيارات المخصـوصـة لتفريق التظاهرات، فسقطت مجموعة من الشـابات في عرض الشـارع، مما زاد من السخط ضد تصرفات الحكومة. كذلك صادف أن الحكومة قامت بطرد الفريق عبد الوهاب السـاعدي من منصـبه، وهو شـخصـية حظيت باحترام شـرائح كثيرة من المجتمع لمسـاهمته في تحرير المدن المحتلة من الضباع.
في صـباح اليوم الأول من تشـرين الثاني نهض ريمون مبكراً للتظاهر وعلى غير عادته. لكنه انتظر أن يخرج الأب ريان إلى عمله، كي يخرج بعدها إلى نقطة تجمع شـــباب التظاهرات

بكامل عدته مع وشـاح العلم، وقد لفّ رأسـه بيشـماغ أحمر. كانت نقطة التجمع تحت نصـب الحرية في ساحة التحرير.
"نريد وطن" شعار انتشر بسرعة بين الناس. وقد اختط هذا الشعار في ذلك اليوم على العملات الورقية من فئة "الألف دينار الصـفراء"، فقد انتشـرت العملة ذات الشـعار بسـرعة بين الناس. بالإضافة إلى شعار آخر "نازل اخذ حقي" على قفا العملة.
وعلى عملة أخرى من فئة "خمسـة آلاف"، خطت كلمات محرضـة للنزول والتظاهر. أفكار ابتكرها الشـباب للنزول إلى سـاحة التحرير والمطالبة بالحقوق وثمة شـعارات خطت على السيارات والأسيجة بسرعة فائقة. شغف ريمون في هذين الشعارين ووشم ساعديه فيهما.
لافتة كبيرة جداً وتحتها علم عراقي من القماش يمتد على عرض ساحة التحرير. مسك ريمون جانباً من اللافتة الكبيرة وراح يهتف مع الشـباب، حتى حانت السـاعة الحادية عشـر صـباحاً، وقررت فيها الجموع التوجه لعبور جسـر الجمهورية نحو المنطقة الخضـراء بوصـفها منطقة قرارات السلطة.
كانت السلطة بالمرصـاد هذه المرة، مستخدمة كل أصـناف القسوة المفرطة وبالرصـاص الحي لإخافة الشباب، وأكثر ردعاً من مرات التظاهر في السنين التي مضت، ومع الرصـاص الحي اسـتخدمت أيضـا خراطيم المياه السـاخنة الممزوجة بالفلفل الحار، وكذلك المقذوفات المطاطية والدخانية. كانت حزمة منتخبة من أدوات الردع القاتل، لكنها لم تمنعه مع الفتية المندفعين بحماس لم يعتده الجميع.
في البداية ثمة قنوات تنقل تلك الانتفاضـة في يومها الأول، لكن السـلطة تنبهت لذلك فمنعت البث الحي، كذلك منعت التصـوير بكل أنواعها، بل ذهبت أبعد من ذلك لقطع الإنترنيت في البداية عن السـاحة، وبعد احتدام الرصـاص والرشـقات المتواصـلة من القنابل الدخانية المسيلة للدموع، طارت الطيور الأليفة من فوق أشجار الصنوبر في حديقة الأمة وثانوية العقيدة المطلة على السـاحة من جهة جسـر العبور إلى المنطقة الخضـراء. الطيور تحاول الفرار من مقتربات السـاحة، لكن كثافة الدخان أسـقطها على ارض سـاحة التحرير قتيلة تنظر بعيون حزينة على مصائرها في هذا الموت الجماعي. كل شيء على هذه الأرض ينتهي بحصاد جماعي. في تلك السـاعة أصـيب ريمون بيده. تراجع الشـباب عن فكرة الدخول إلى المنطقة الخضـراء، وعادوا إلى سـاحتهم من جديد. حملوا ريمون بين أيديهم وهو يطلق ضـحكته المعتادة غير مبالٍ بالإصابة.
كان ريمون مندفعاً في مقدمة التظاهرة، وبقية الشباب يلتفون حوله وهم يرددون الشعارات التي يطلقها. لا يعرفون عن ذلك الفتى سـوى لقبه رومي، وهم لا يعرفون كونه مسـيحياً نازحاً من مدينة الموصل، غير أن اندفاعه وحماسه أذهل جميع المتظاهرين.
في المساء ينتهي اليوم الأول للتظاهر ويعود ريمون المصاب إلى بيته في الساعة التاسعة ليلاً، علمت أمه بأن ابنها كان في التظاهرة من خلال متابعته من خلال البث المباشر لإحدى القنوات وشاهدت إصابته فارتعبت وصرخت وحذرته من العودة ثانية، بل هددته بالحبس داخل الشقة.
كانت متيقنة من حماسـته، وهي تدرك جيداً تلك الروح العالية لتحقيق أحلامه ليس وحده فقط بذلك الحماس بل كل الفتية من صـحبته. لم ينفع معه كل سيل التوبيخ والنصـائح التي عرضـتها

عليه، لذلك قرر الأب ريان حبســـه داخل البيت في اليوم الثالث، لكنه اســـتطاع فك الحبل والخروج إلى التظاهرة من جديد بمساعدة أخته الصغيرة.

*

تكررت مشـــاركة ريمون حتى اليوم التاســـع من التظاهرات. في اليوم الرابع شـــاهد بأم عينه كارثة القتل الجماعي للفتيان. القنص من فوق المباني والرصاص الحي لذوي الصدور العارية من الفتيان. كان القناص يعمل بجد بشـــهية مفتوحة. ينتقي الفتيان الحلوين من المتظاهرين ليصوب نحو رؤوسهم برشاقة وأرحية.
حدث أن انتشـــرت فيديوهات القنص الجماعي أمام كاميرات الهواتف المفتوحة. ذات يوم من تلك الأيام كان أحد الشباب يجري تسجيلاً أمام الكاميرا. شاب وسيم ونحيف كقصبة ناي وبلحية سوداء مسترسلة، ومع أول حديثه صوب القناص له مطلقا واحدة إلى الرأس وأرداه قتيلاً. ظل الشـــاب يرفس كالطير الذبيح في المكان بين حافة الرصـــيف والشـــارع، والدم يراق منه على الرصيف حتى لفظ أنفاسه. كان ريمون في تلك اللحظة قريباً جداً منه وهو يصغي لحديثه قبل لحظة القنص، وقد شـــهد كيف يخرج الدم فائراً ومحتجاً من ثقب الرأس ويسـيل على الأرض. هذا الموقف الذي شـــهده رومي جعله يندفع أكثر، حتى بدت الحياة أمامه تافهة أمام سـيل دماء صحبته، لا تهمه الحياة بعد ذلك المشهد.
لم تفت عضـــده تلك الأعمال القمعية والعنف والقتل بأبشـــع صـــوره، إنما زادت من حماســـته ومثابرته على التواجد في أكثر تجمعات الخط الأول من التظاهرات. فشلت السلطة في ترويع الشباب من القنص والرمي، ثم قالت إن الطرف الثالث هو من قنص الشباب والسلطة الحاكمة ليست لها علاقة.
جاءت محاولتهم بمردود عكسي، إذ حضرت قبائل وأصحاب المواكب الدينية لنصرة الشباب وامتلأت ســـاحتي الطيران والتحرير بأفواج من كل شـــرائح المجتمع. كان المصـــورون من الناشطين يغطون بهواتفهم أو كاميراتهم الشخصية وهم يرتقون أسطح العمارات لالتقاط صوراً عن هذه الجموع البشـــرية الهائلة. إحدى اللقطات كانت هائلة ومرعبة للســـلطة بهذه الأعداد الغفيرة، وقد ناهزت التظاهرة العملاقة "ثورة أكتوبر المصـــرية" بحجم الأعداد. وعلى الرغم من منع كل القنوات التلفزيونية من تغطية الأحداث لكن التغطيات الشـــخصـــية بدأت تنتشـــر بوسائل التواصل بتصدير الهواتف إلى أربيل ونشرها من هناك. عاشت السلطة عدم الاستقرار والخوف ورعب اللحظة الفاصلة وتجهيز جوازات سفرهم بانتظار اللحظة الفاصلة للمغادرة، لا يعرفون وهم محجوزون داخل أسوار الخضراء سوى زيادة العنف والقتل والخطف.
وفي لحظة ما من اليوم السابع عصـراً، سـقط مصـطفى الفتى الوسـيم والرقيق، وهو ابن عم صـــديقه زيوني. ســـقط بإطلاق في الرأس وهو بجانب رومي أيضـــاً، وقد خر صـــريعا إلى الأرض، فزاد من رعبه، حتى اجتاحت ريمون لحظات من الهستيريا. احتضنه واضعا يده على مكان ثقب الرأس وصـعد معه بالتكتك، حيث مستشـفى الجملة العصـبية. انهار ريمون وأصـبح

عصبي المزاج وحاد التصرفات. عندما ذهب إلى الشقة سقطت أمه مغشية عليها عندما شاهدت الدماء على وجهه ويديه وملابسه وهو يبكي بحرقة لموت مصطفى.
في تلك الليلة عندما عاد إلى بيته، وجد الحياة طبيعية في منطقة الكرادة. قيامة ساحة التحرير التي كان يعتقدها كطريق لا سبيل عنه لاستعادة حقوق الشباب، لم تكن كافية للمؤازرة من قبل الجميع. بات حزينا ومنكسرا، لكنه في الوقت ذاته عازم على تكملة المشوار حتى لو كلفه حياته. كان يمشي مطأطأ الرأس، حزينا ليس لظلم السلطة وعدم الاعتراف بحقوق الشباب، أو عدم إدراك ما يطالبون به، بل لظلم الناس المناوئين للتظاهرات.
توقف بالقرب من مرتضى. شاب فقير يبيع الشاي السفري في منطقة أرخيته، وهو ساخط على التظاهرات من دون سبب حقيقي، فهو المعروف عنه غرامه بحب كل الرؤساء ويضع صورا لهم على كابينة الشاي. كان يطلق عليهم تسميات بأسماء بنيهم وبناتهم أو ألقابا يحفظها من موسم الانتخابات السابقة، من القوي الأمين إلى القادر المقتدر والمجاهد الأعظم. لا يعرف ريمون شغف مرتضى وجنونه وتقديسه لهؤلاء على الرغم من وضعه المزري، فهو يصف المتظاهرين بأوصاف سيئة، ذلك ما أغضب رومي منه وقاطعه برمي استكانة الشاي على صدره وهرب من المكان.
ليس مرتضى وحده فهذا صاحب التكسي الرجل الكبير، الذي أكراه رومي من ساحة الطيران إلى الكرادة. كان السائق يتحدث بلغة جافة عن شباب الاحتجاج وعن قطع الأرزاق والطرقات من قبل ثلة شباب تافهين يقبضون الثمن بالدولار من جهات معروفة. كان السائق يائساً من التغيير ولم تنفع كلمات ريمون القليلة معه، بأنهم عازمون على المواصلة لكن الرجل امتعض منه واتهمه بالجهل و"الزعططة". مما جعل ريمون أن ينزل قبل بلوغ هدفه ممتعضاً من هذا السائق ويسمعه من كلمات لم تعجبه.
في داخل الشقة أيضاً خاض نقاشا مريراً مع الأب، الذي يعتقد أن السلطة لن تتغير بهذه الطريقة، وأن ريمون وجماعته واهمون. كان اعتقاد الأب راسخاً، فكلما اشتدت التظاهرات، كلما اشتد عود السلطة وطول فترة التظاهر ليس بصالح الشباب، ربما سيزداد العنف ضد الشباب بطريق مبتكرة، ولا يهمها من أعداد القتلى لأن العالم صامت صمت الحجر اتجاه ما يحصل. كان ريان الأب يحاول ترويضه، ينقل له شيئا من تجربته الحياتية، من أن السلطة بالعراق لا تتغير على طيلة التاريخ بالتظاهر، وكل ما حدث بالعراق من تغيير هو بإيعاز من خارج العراق.
إن عمر الشعب العراقي لم يغير سلطة جائرة على طول تاريخ الحقب والحكومات، فغالبا ما يكون التغيير من الخارج. "أنتم في واد والسلطة في واد آخر يا بني". لم ينكسر ريمون من كل ما قيل عن تظاهراتهم وأعداد القتلى الذي يزداد كل يوم. كلما ازدادت أعداد المتظاهرين، كلما أيضاً ازداد المناوئين. كشر هؤلاء عن حقدهم على الشباب. في كل نقاش يخوضه مع شرائح وقفت ضد مبدأ التظاهر يحاول أن يعبّر لهم عما يدور في هواجسه، مثل ما يحدث في القنوات التلفزيونية، لكن اللغة في كل مرة كانت تخونه، الشيء الوحيد الذي يجيده هو التظاهر لتحقيق حلمه بالعيش الآمن وأحلام زملائه في الطمأنينة. لا يجيد التعبير لكنه يجيد إطلاق ضحكته المميزة بوجوه المناوئين. فالسخرية سلاح الفقراء.

في اليوم العاشـــر لانطلاقتها تتوقف التظاهرات مؤقتاً، لتعارضـــها مع مناســـبة دينية تســـتمر لأسـبوعين أو ثلاثة، ثم تعود بزخم لم تتصـوره السـلطة في يوم 25 تشـرين الأول. لكنها -أي السـلطة- اسـتخدمت العنف والقتل والقنص بطريقة مرعبة هذه المرة، كانت تعبر عن خوفها وجنونها وعدم تصورها لما يحدث.
عندما عادت التظاهرات في يوم 25 تشرين بعد انقضاء المناسبة الدينية، وفي هذا اليوم تحديدا يتعرض ريمون إلى إصـابة أخرى في ساقه، وحمله الشباب بعربة تكتك إلى مستشـفى الشيخ زايد. لكنه خرج من المسـتشـفى ليلاً، خوفاً من اعتقال الجرحى، مثلما أخبره أحد الأصـدقاء. اخفى الإصابة عن أهله واتصل بأمه وأخبرها أنه سيبيت الليلة في بيت صديقه زيوني.
انتشـر خبر إصـابة ريمون في وسـائل الاتصـال بكونه المصـاب الذي أطلق ضـحكته المجلجلة على السـلطة هازئاً منها وهو يشـير إلى سـاقه النازفة، حتى علم والده بالخبر وذهب إلى بيت صديقه واصطحب ريمون المصاب معه إلى الشقة.
كان الأب بينه وبين نفســه يحس بالفخر لمشــاركة ابنه في التظاهرات وأدرك معنى "العراقية" الجديدة والمستعادة، وما يُحكى عن تقدم ابنه في الخط الأول، لكنه لا يعلن تلك المفخرة أمامه.
لم يطل الأمر كثيراً حتى عاد ريمون من جديد إلى ساحة التحرير، ومازال الجبس يغطي ساقه المكسـورة، لكنه لم يمتنع عن المشـاركة والهتاف وحتى النوم مع صـحبته في خيم الاعتصـام، وقد خط على الجبس بالخط الأحمر "نريد وطن".
بعد مرور أشــهر طويلة من الاحتجاج وما زالت الســلطة مصــرة على الزمن الطويل لتذويب الروح الحماسية مرة، ومرة أخرى بزيادة العنف والتقتيل وممارسة كل صنوف الترهيب ضد الفتية المحتجين، حيث وصــلت الأمور لتفجيرات قنابل صــوتية في ســاحة الطيران. عجزت السـلطة من كسـر همة الشـباب لكنها حاولت في الجانب الآخر اللعب على الأوتار السـياسـية واسترضائهم في فترة لاحقة.
من جانب آخر كان طول فترة الاعتصـام والتظاهر ظهرت حالة غريبة وصـداقات أغرب. عقد ريمون علاقة غريبة مع يعقوب، وهو شــاب شــرطي من قوة الشــغب. تعرف عليه من خلال تواجدهما يعقوب وريمون في مكان واحد، لا يفصــلهما ســوى الحاجز الكونكريتي بين جهتين متعاكســتين. كان الشــرطي يتعامل بلطف مع المتظاهرين من خلف الحاجز حتى تعرف على أسمائهم.
يتحدث يعقوب مع ريمون في ســاعات معينة، ويبلغه عن الخطر ويخبره الابتعاد في ســاعة معينة، لأن الرمي ســيكون حرا وبالرصــاص الحي، أو يخبره بالاقتراب عندما يصــمت بها صوت الرصاص في ساعة أخرى وزوال الخطر، وحسب الأوامر الصادرة.
في الليل يقترب ريمون من شـق طولي في الحاجز ويقترب يعقوب منه. كل واحد منهم يشـكو همه إلى الآخر. في بداية هذه العلاقة المريبة كانت محط تســاؤل الشــباب عن حقيقة يعقوب هذا. يقذف قنينة الماء البارد من فوق الحاجز كإشـارة اقتراب، ثم يتبعها بقذف برتقالة أو يقذف خوذة لحماية الرأس. هكذا تطورت العلاقة بتبادل أرقام الهواتف بين يعقوب ورومي.
عندما تأتي الأوامر بالرمي على الرؤوس مباشـرة كان يرفع بندقيته إلى الأعلى كي لا يصـيب أحد الشباب. اعترف يعقوب في إحدى الليالي لريمون أن أخا له موجود مع المتظاهرين.

لكن الأمر لم يدم طويلا في تلك العلاقة بين السلطة والشباب المتظاهر، بعد وشاية من أحد الشرطة بأن يعقوب متهم بالتخاذل، إذ يقيم علاقة مع المتظاهرين ولا يسدد بندقيته بصورة صحيحة. تمّ نقله إلى جبهات القتال على الحدود السورية العراقية، لتهاونه في الواجب الوطني على وفق كتاب النقل. جاء نقله مباشرة بعد اليوم الذي أصيب به ريمون في الإصابة الثالثة.

*

بمرور الأيام، ابتكرت مجموعة شباب الحراك من الخط الأول في المواجهة خطة جديدة لتشتيت قوة الشغب بتقسيم الساحة إلى ثلاثة مناطق مهمة، لمشاغلة قوات الشغب وتفريق جموعهم، عندما تمركزوا بثلاثة أماكن للتظاهر. فقد راح المنتفضون على قطع الجسور الثلاثة من جهة صوب السلطة ومنعهم من العبور، وهي جسر السنك والخلاني بالإضافة إلى جسر الجمهورية. اختار ريمون ساحة الخلاني المقابلة للجسر في المنطقة الثانية للتظاهر. يهتف بقوة أمام قوة الشغب التي وضعت المصدّات الكونكريتية، واستخدمت كل أصناف الذخيرة من القنابل الدخانية وكرات الحديد المتشظية التي دخلت الخدمة لتفريق الجموع أو حتى بالعتاد الحي لإبعاد الشباب عن الجسر الثاني.
اختار ريمون شارع الخلاني وهو الأكثر عنفا وزخما من بقية الجسور ويسبب صداعا للسلطة في تدهور الحياة العامة. كان يتنقل بين الأزقة للوصول إلى الساحة وحث الفتيان على التصدي للقوة التي تحاول إرجاعهم إلى ساحة التحرير.
ثمة مناوئ شديد السمرة يرتدي الملابس السود. لا يشبه يعقوب مطلقا. كان يتابع حركة ريمون ويتعقبه بين الأزقة من مكان إلى آخر، وتلك هي مهمته المكلف بها. اشترى هذا النقيب "ص. ج" بندقية صيد جديدة وحديثة. كان هذا الرجل يعمل آمر السرية الثانية من اللواء الرابع في القوة التي أوكلت لها مهمة تفريق أبرز متظاهري الجسر الثاني بكل الوسائل.
ماذا يعني مصطلح "كل الوسائل"؟ يعني تجريب الوسائل الجديدة للقضاء على الاحتجاج وإنقاذ السلطة من مأزقها التاريخي هذا.
هذا النقيب اصطحب معه بندقية صيد الطيور والحيوانات البرية وزودها بإطلاقات من الكرات الحديدية المنفلقة، وهي بندقية شخصية له سمح له باستخدامها.
لم يجرب البندقية في البراري لصيد القطا أو البط الصيني المهاجر، السبب الذي جعله يحتفظ بالبندقية في صندوق سيارته الهونداي المتوقفة فوق الجسر، حتى تحين فرصة تجريبها في الإصابة الدقيقة.
في تلك اللحظات أوعز النقيب لأحد أفراد الشرطة بأن يجلب بندقيته من السيارة لتجريبها عندما انهالت عليه الحجارة من المتظاهرين. كان واجب التكليف لهذا اليوم مرهقا جدا في ساحة التحرير، مما جعل النقيب "ص.ج" يدشنها على المتظاهرين الفتيان الأكثر نشاطا وحركة ومحاولة ردعهم.

لا توجد طيور في فضاء الساحة، فقد هاجرت منذ زمن ليس بالبعيد، بعد كثافة القنابل الدخانية المنفجرة. هاجرت الطيور المفزوعة إلى سماوات بعيدة. حتى أعشاشها فوق هامة مدرسة العقيدة للبنات بقيت فارغة وموحشة. الطيور لا تحب هذا الصخب وتلك القيامة الأرضية.
جاء أحد الشباب الصغار وحذّر ريمون من ورود اسمه في قائمة النقيب، لأنه كان يصغي لتداول اسمه بين قوة الشغب ومعهم هذا النقيب الأسمر. لكن ريمون كان يبتسم ولم يهتم لهذا التحذير ويطلق ضحكة كضحكة فتى الجبنة الضاحك.
في تلك اللحظة كان يحاول الخروج من الزقاق مع اشتداد الرمي المباشر ببندقية الصيد، ليعبر شارع الخلاني إلى الجهة الأخرى منه. سدد النقيب بعد أن أشار له أحد الأفراد من القوة أن ريمون ذلك الفتى المشاكس صاحب الضحكة المجلجلة، التي يطلقها فتغيض قوة الشغب، هو ذا الذي يتهيأ الآن لعبور الشارع.
انطلق ريمون بسرعة من فوق نيران الإطارات المحروقة، لكن النقيب استطاع من تسديد بندقيته بدقة، على ريمون الفتى الضاحك. وضعه في صليب منظار البندقية. كان النقيب يراقبه وهو يضع سيجارته بزاوية من فمه، وما ان خرج ريمون من الزقاق ليعبر الشارع بسرعة، سدّد عليه ورماه في منتصف شارع الخلاني.
انطلقت الكرات الحديدية كسيل من كرات "الحالوب" المتناثرة والنازلة من السماء. ابتسم النقيب معبرا عن أعجابه الشديد بتلك الدقة لبندقية الصيد الجديدة، معبرا عن نصره بإصابة الفتى الضاحك عندما سقط رومي في عرض الشارع قبل أن يكمل عبوره.
سقط ريمون واصطدم رأسه بالرصيف في منتصف الشارع. كان صدره يرتفع ويهبط بشكل لافت والضحكة المجلجلة تغص في صدره.
في هذه الأثناء حدثت ضجة في شارع الخلاني. تجمع الشباب حول الفتى الذي سقط في منتصف الشارع. صاح أحد الفتية، أن هذا الشاب الذي سقط هو:
رومي.
رومي.
رومي. روووووووو.....
حملوا ريمون بسرعه لإخلائه من الشارع، وسط موجة مكثفة من تصاعد الدخان الأبيض للقذائف، بعربة تكتك حمراء إسعافية مخصوصة لنقل المصابين من الفتية في ذلك اليوم العصيب.
حدث ذلك عصر يوم 24 من شهر شباط 2020. فقد سقط في ذلك اليوم مجموعة كبيرة من الشباب بالكرات الحديدية المقذوفة من بنادق صيد أخرى بين جريح وشهيد ومنهم رومي.
كانت عيناه شبه مسدودتين، بوجه أصفر ومغبر، وثمة خيط من الدم يتدفق من جبهته. في هذه الأثناء يتصل زيوني بالسيد ريان الأب وهو في طريقه إلى مستشفى الشيخ زايد. ليخبره عن إصابة رومي ولم يخبره بوفاته، لكن إحساس الأب كان دقيقا في نهاية رومي في هذا اليوم المشؤوم الذي ضاعت به تلك الضحكة العظيمة التي أزعجت السلطة كثيرا. قال له الأب: "إلى رحمة الله رومي حبيبي".

حاولت الأم لأكثر من مرة الاتصـــال بزوجها ريان، لكن هاتفه يرن ولم يفتح المكالمات الواردة منها فإحساسها لم يخب حين سقط ماعون الحساء من يديها.
لم تنته حكاية ريمون بعد، فما زال صدى ضحكاته المجلجلة يتردد صداها – كما يذكر الشباب- في شارع الخلاني. حتى غدت مقلقة للسيد النقيب صاحب بندقية الصيد الحديثة.
في اليوم الثاني عرف المحتجون، إن هذا الفتى الضـــاحك هو مســـيحي من أب ارمني وأم كلدانية، كما تفصح عن ذلك صورة العذراء في أثناء تشيعه المهيب في ساحة التحرير.

- أنجز هذا النص بالاعتماد على شهادات من عائلة ريمون، وأصدقاء له.

انتفاضة تشرين العراقية: الثقافة البديلة

علي عبد الأمير عجام
شاعر وكاتب وصحافي عراقي، أدار وأسس وسائل إعلام مقروء ومرئية عدّة. أصدر 3 دواوين شعرية، "يدان تشيران لفكرة الألم" 1992، و"خذ الأناشيد ثناء لغيابك" 1996، و"بلاد تتوارى" 2005، وكتابين بعنوان "نجوم الأغنية الغربية في الثمانينات" 1990، و"في مهب العراق" 2019. حاصل على بكالوريوس في الطب البيطري عام 1979 من جامعة بغداد.

شكّلت انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر عام 2019 في العراق لقاء جديداً بين الحريّة والثقافة، بعد أن انقطع هذا الوصل نهاية ستينيات القرن الماضي، إذ التهمت مؤسسة الحكم، بعد ذاك العقد، قوة حلم العراقيين بالتحرّر وحرية الفكر لديهم، وحوّلت الثقافة إلى تابع لها، ومتحدّث باسمها، ومعبّر، في الكثير من الأحيان، عن أفكارها الشموليّة والرجعيّة.
أُحاول في هذا الفصل تأريخ وفهم كيف أمكن لشبان، في مدن بغداد ووسط وجنوب العراق، الخروج من أغطية السلطات الحكومية والاجتماعية الثقيلة، وإنشاء جو يتخفّف من الأفكار المتخلّفة، ويقترح خطاباً ببدائل عملية لا تحتمل أي دلالة سياسية مباشرة، ومن دون أي نوع من الوصايا السياسية أو الفكرية.

البداية

في عام 2011، وفي موضع بعيد نسبياً من العاصمة بغداد، بل هو يبتعد عن مركز أي مدينة كبرى، وتحديداً في قلب الريف، بدا مفاجئاً لي وجود أكثر من "مقهى إنترنت" ضمن ناحية مشروع المسيب الكبير (جبلة) التابعة لمحافظة بابل والتي يعتمد نشاطها الأول على الزراعة.. أبناء فلاحين وبناتهم أيضاً، يجلسون عند أجهزة الكومبيوتر، يراسلون ويتصفحون مواقع إخبارية ومنوعة ويتحدثون عبر تطبيق "سكايب - Skype".
وفيما كانت البيئة الاجتماعية محافظة قبل عام 2003، وصارت متشددة نوعاً ما، بعده، بسبب انتشار المدّ الديني الذي أشاعته قوى الإسلام السياسي المسيطرة على الحكم في البلاد، في قسمها العربي تحديداً، إلا أن هذا لم يمنع بروز اتجاهات جديدة راحت تجد في مصادر المعرفة التي توفرها شبكة المعلومات فضاء مناسباً لتشكّل هويتها الثقافية والإنسانية، بعيداً من الوصاية الاجتماعية والفكرية السائدة في عراق ما بعد الغزو الأمريكي.
اللافت أن المكان الذي يقع فيه مقهى الانترنيت، والذي كان "خط مواجهة" في الحرب الطائفية التي اشتعلت في العراق خلال السنوات 2005 – 2008، كان يعيش هدوءاً نسبياً في أوضاعه الأمنية، إلا أن الأجيال الجديدة فيه كانت تعاني قلة فرص العمل، وهي إن توافرت ففي الحكومة، وتحديداً الخدمة في الأجهزة الأمنية، وهو ما أنذَرَ، مُذاك، بأزمات لم تتحسب لها

الحكومة المركزية جيداً ولا الحكومات المحلية، التي تتحدث عن مشـــروعات ضـــخمة تنفذها الحكومات مباشرة أو عبر تعاقدات استثمارية، لكنها بالكاد تذكر على الأرض[197].

عراقيون جدد؟

وسط هذه الأجواء كان "عراقيون جدد" كهؤلاء يبنون أفكارهم في محافظات الوسط والجنوب، لكن ملامح هؤلاء كانت تتضـح أكثر في العاصـمة بغداد، حيث الصـعوبات الحياتية أكثر مما هي في مدن الأخرى التي تشهد أوضاعاً أمنية أكثر استقراراً، فلا اغتيالات واسعة عبر "كواتم الصـــوت"، ولا تفجيرات منظمة كثيرة، كالتي تشـــهدها بغداد يومياً[198]، والتي أدّت إلى زيادة التشـــديد في إجراءات الأمن عبر نصـــب مئات نقاط الســـيطرة والحواجز التي تحيل مناطق العاصمة وأحياءها إلى جزر معزولة، فضلاً عن تردي الخدمات الأساسية.

غير أن هذا كله، ووفق نظام تكيف عالٍ للعراقيين مع أي ظرف حتى وإن كان غير طبيعي، لم يمنع شـــباناً كثراً من التعاطي مع حياتهم انطلاقاً من منظورات جديدة، فلا حملات التخويف الفكرية المنظمة التي تبثها الأجهزة والقوى الرســـمية المتنفذة من "خطر البعث والقاعدة"، ولا ما يتصـل بتلك الحملات من تأجيج غير مباشـر للانقسـام الطائفي هو في وارد التأثير في شـبان بالكاد تجاوزوا العشـرين، وحين يشـتركون بانتظام في تظاهرات الاحتجاج الأسـبوعية ببغداد التي انطلقت في عام 2011، فإنهم يسخرون من تهمة "البعث" التي الصقتها بهم حكومة رئيس الوزراء نوري المالكي (حينها)، لا سيما وأن أعمار غالبيتهم كانت بالكاد قد تجاوزت العاشـرة عند غزو العراق عام 2003 وسقوط نظام "البعث".

كان هؤلاء الشـــبان، والحال هذه، يواجهون وقائعهم اليومية بتجرد، ومن دون أي نوع من الوصـــايا الســـياســـية أو الفكرية، ويقترحون خطاباً ببدائل عملية لا تحتمل أي دلالة ســـياســـية مباشرة، فيؤكدون على شفافية عمل المؤسسات الحكومية، وينتقدون السياسيين، لا بل أن ما بدا "خطأً أحمر" لسـنوات خلت، ألا وهو المس بالقيادات الدينية المتصـلة بالميليشـيات والجماعات المسـلحة، لم يعد كذلك عند هؤلاء، وإن كان نقدهم تلك القيادات غير مباشـر على الأغلب، لكنه دال عليها بوضوح حتى للمواطن العادي.

عماد مســـاحة تأثير "العراقيين الجدد" هؤلاء كان على وســـائل الاتصـــال المعاصـــرة مثل "الإنترنت"، والهواتف المحمولة، وفضـائيات وندوات علنية ضـمن بعض مؤسـسـات المجتمع المدني غير الخاضعة للحكومة أو القوى السياسية والجهات الدينية. وتُظهر إحصائيات استعمال التكنولوجيا، على الرغم من تخلف شركات خدمتها في العراق، إلى أي مدى شكّلت أهميّة لدى العراقيين كفضـاء بديل للفضـاء الواقعي. لقد ارتفع عدد مسـتخدمي شـبكة الإنترنت في العراق إلى 30 مليون مستخدم في عام 2020، فيما بلغ عدد مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي في

---

[197] كشـفت اللجنة المالية النيابية خسـارة العراق أكثر من 200 مليار دولار بسـبب المشـاريع الوهمية للفترة ما بين عامي 2003 و2013، انظر: "مشاريع وهمية في العراق بـ200 مليار دولار: تفاقم الفساد"، صحيفة "العربي الجديد"، نشر بتاريخ 21 شباط 2020.

[198] سـقط نحو12 ألفاً و133 في 2003، ونحو 11 ألفاً و736 في 2004، ونحو16 ألفاً و583 في 2005، ونحو29 ألفاً و451 في 2006، ونحو 26 الفاً و36 في 2007، ونحو10 آلاف و271 في 2008، ونحو 5 آلاف و373 في 2009، ونحو 4 آلاف و167 في 2010، ونحو 4 آلاف و153 في 2011، ونحو 4 آلاف و622 في 2012، ونحو 9 آلاف و851 في 2013، ونحو 20 ألفاً و169 في 2014، ونحو 17 ألفاً و502 في 2015، ونحو 19 ألف بين مقتل وجريح عام 2016. انظر: تقارير بعثة الأمم المتحدة في العراق بين أعوام 2003 و2016.

البلاد حوالي 21 مليوناً، واحتل موقع فيسبوك، الذي يحظى بأهمية كبيرة بين العراقيين حيث يخوضون نقاشات كبيرة على صفحاته، المرتبة الأولى حيث ينشط فيه نحو 17 مليون مستخدم، بينما يتواجد نحو 9.50 مليون مستخدم نشط على انستغرام، و6.55 مليون مستخدم على تطبيق (سناب شات)، و1.28 مستخدم لتويتر، ومليون مستخدم لشبكة لينكدان؛ أما الهواتف المحمولة فإن عدد مستخدميها بلغ 40.89 مليون شخص، أي بنسبة 103% من عدد السكان الكلي[199].

ونتيجة لذلك، فإن ثمة "جمهورية فيسبوك عراقية" حقيقية ناشطة، فإلى جانب الصفحات الشخصية، هناك "المجموعات" التي يشرف عليها مثقفون وكتاب وصحافيون غالبيتهم من الشباب، وهم إذا كانوا قد اندرجوا إلى حين في لون سياسي وفكري محدد، فإنهم، بعد ذلك، تخلوا عنه لمصلحة الموقف المستقل الذي يسمي الأشياء بأسمائها، كما في إثارة أسئلة جوهرية لا تتوقف. وهذا، في جميع الأحوال، خطاب عراقي جديد مباشر وواضح يتحول مداخلات ونقاشات لا تقاربه خطابات سياسيين تقليديين وإن حاولوا استثمار تراجع شعبيتهم عبر الدخول إليه، واستعمال فضائه وحتّى خطابه لتصدير أنفسهم عبره، فعلى سبيل المثال كتب سياسي مستعيراً لغة الشباب مفردات مثل "وهج الكفاح" و"العدالة الاجتماعية"، لكنه لم يحظَ بأي مداخلة أو رد، لا لشيء إلا لكون لغته غير محددة، وإنشائية تتصل بلغة سياسية عراقية فولكلورية، لا علاقة لها بأسئلة حارة وواقعية قائمة على مشاهدات تحدث على الأرض.

والحال هذه، فإن العراقيين الجُدد مشغولون، في هذا الفضاء، بأسئلة جدية تتوافر على وعي مبكر وحقيقي، فهم لم ينشغلوا بأسئلة الوجود الأميركي ولا إرثه الكارثي، بل بأسئلة حياتهم الذاهبة إلى المستقبل، حياة جعلتهم ببساطة على نقيض راهن ظلامي الفكر والنهج تدعمها سلطة اجتماعية (دينية) وسياسية مجهزة بأنياب تفترس كل ما يقف بوجهها، في استعارة لنهج النظام الديكتاتوري السابق وأساليبه.

ويكاد يجمع فقهاء القانون والسياسة والفكر على أن أسوأ مرحلة يمكن أن يصلها الإنسان حين يصير "ضحية" مقلداً لـ"الجلاد" ويتبادل معه الأدوار، وهذا بالضبط ما حصل في عراق ما بعد الغزو الأمريكي، فأغلب "ضحايا" صدام حسين ممن صاروا في سدة السلطة، راحوا يقلدون الجلاد في كل شيء، فهم أرهبوا الناس رعباً وتقتيلاً، عبر أجهزة الدولة تارةً أو عبر ميليشياتهم المنفلتة تارةً أخرى، بل زادوا عليه في النهب والسلب، ناهيك عن تحويلهم مؤسسات الدولة إلى اقطاعيات خاصة بهم.

ضحايا على نهج الجلاد

بعيداً عن استعادات التاريخ، حتى القريب منه، وجد الملايين من شبان العراق أنفسهم حيال سؤال مفاده: إذا كان نظام صدام حسين روّع العراقيين بالقمع والحروب والحصار، فهل كان سقوطه مفتاح أمن وحرية وسلام ورخاء لبلادهم؟

[199] "إحصائية بأعداد العراقيين على شبكة الانترنت ومواقع التواصل"، منصة "ناس"، نشر بتاريخ 28 آذار 2020.

الجواب تنوّع كثيراً، لكن أبلغ عباراته، تبدو من المراجعة التي أوردتها منظمة "هيومن رايتس ووتش"[200]، إذ يبدو القمع الذي تمارسه سلطات "العراق الجديد" متصلاً بإرثٍ من الانتهاكات رسخها نظام ما بعد الغزو في العراق. والانتهاكاتُ الواسعة للحريات أيام نظام الرئيس السابق صدام حسين، التي وثقتها تقارير دولية ومنها "منظمة العفو الدولية (امنستي)"، وبعثة الأمم المتحدة الخاصة المعنيّة بمراقبة حقوق الانسان في العراق، وبالذات للفترة من 1991-2003، استبدلت بـ"انعدام سيادة القانون خلال العقد الماضي"، فقد وصف عراقيون عديدون لـ "هيومن رايتس ووتش" كيف ساهم استمرار الإفلات من العقاب على الانتهاكات الجسيمة في الشعور بانعدام سيادة القانون في العراق. وقد خلق تماهي النظام السياسي الجديد مع نظام البعث جوّاً من اليأس لا يتناسب مع روح منتمية، فسلجياً ونفسياً، إلى المستقبل كالتي دبّت بملايين الشبان العراقيين ممن وصلوا إلى لحظة الحرية في تشرين الأول / أكتوبر 2019، فلا هم من نتاج النظام السابق ولا هم وجدوا فسحة في النظام الجديد تتوافق مع آمالهم حتى في كونها بسيطة وتتعلق بالحقوق الأساسية لبني البشر.

حيال الوقائع السود التي رسخها النظام الهوياتي (الطائفي- العراقي) بعد عام 2003، حوّل الشباب مفهوم الطائفية، ليس عاراً على السياسيين العراقيين حسب، بل هي، وإذ تمكنت نارها من التهام روح العراق وجوهر آدميته، صارت عنوان كل ابتذال وقتل وانحطاط أخلاقي وفكري. فلقد وصل شباب العراق الثائر في تشرين الأول / أكتوبر 2019 إلى معادلة دقيقة هي: من يمعن في سرقة ثروات البلاد هم ذاتهم الأعلى صوتاً في الطائفية. وهنا وصلوا إلى لحظة حرية حقيقية: البقاء بعيداً عن الانتماءات، لا السياسية وحسب، بل الهوياتية الدينية الطائفية التي أدخلت البلاد في دولاب دم ونار لم يهدأ قليلاً إلا بعد الهزيمة الحكومية أمام تنظيم "داعش" الإرهابي في حزيران / يونيو 2014.

طائفية وعبيد!

الخروج الفذ من الطائفية كان لحظة وعي لافت عند الأجيال العراقية الشابة، وهي جاءت في لحظة خراب كبير، إذ لم يلتحق السياسيون ومقاولو الموت بتيار الطائفية الجارف وحسب، بل العاملون في المجال الثقافي، حدّ ان السبب "الموضوعي" في إطلاق تسمية الشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة، على دورة مهرجان "المربد"[201] عام 2014، هو كونها من "المكون الصابئي المندائي"، والتسمية هنا "تأكيد على التنوع الديني والثقافي في العراق". مخجل حقاً أن يتم استبعاد مبررات موضوعية حقيقية، تقدم معنى الاحتفاء بصاحبة قصيدة "لو أنبأني العرّاف" لينتهي الأمر إلى أنها "مندائية"، فضلا عن أن الشاعرة التالية لجيل الحداثة الريادي، لم تقدم شخصيتها ولا سيرتها الأدبية والفكرية على أساس أنها من مرجع ديني "مندائي"، بل هي الغارقة حد "التطرف" بهويتها العراقية، وجوهرها الإنساني. هذا مثير ليس للرفض وحسب، بل يدفع إلى الإدانة، حين يتولى رئيس اتحاد أدباء العراق وكتّابه، تقديم زملائه استنادا

[200] "العراق بعد 10 سنوات.. سلطوية زاحفة / حكومات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والعراق تساهم في الانتهاكات وغياب الأمن"، تقرير لمنظمة هيومن رايتس ووتش، نشر بتاريخ 19 آذار 2013.

[201] علي عبد الأمير عجام، "الطائفية... عار الثقافة العراقية أيضاً"، صحيفة "المدى"، نشر بتاريخ 28 تشرين الأول 2014.

لهويتهم الطائفية والدينية، وهو القادم من مرجعيات فكرية ترفض أي توصيف للبشر، وليس للمثقفين وحسب، وفقا لهوياتهم الدينية والقومية. هذا مثير لليأس حقاً، طالما أن لا موقع للرفض في "العراق الجديد"، مثلما لا سامع لإدانة تشبه صوتاً في البرية، أن يتم انتزاع الجوهر الإنساني والوطني والمدني من النتاج الثقافي العراقي، ودمغه بأكثر أشكال العنصرية دموية وهمجية: الطائفية.

العاملون في المجال الثقافي لم يلتحقوا بالنظام من خلال التماهي مع الخطاب الطائفي فحسب، بل أنهم نقلوا معهم تقليداً متبعاً من الأنظمة السابقة يحوّلهم إلى "عبيد" للنظام. فلقد درجت السلطات العراقية ومنذ قيامها بالاستحواذ على الثقافة والنتاج الأدبي والفني بعد العام 1958 على أن تقرّب المثقفين العبيد وتعلي من شأنهم كونهم يمتلكون القدرة اللامحدودة على النفاق انطلاقاً من كونهم بلا رصيد عقلي وروحي وإنساني حقيقي ما يجعلهم مطايا السلطة، وهو ما تحتاجه الأخيرة لتلميع صورتها وتعزيز نفوذها والترويج لأفكارها حتى وإن كانت قاتلة.

وإذا كان هذا السياق فاعلاً حتى العام 2003، فان سلطة معارضي صدام ومنذ العام 2005 عززت السياق ذاته، ففحص معظم المؤسسات الثقافية والإعلامية الرسمية يؤكد أنها تدار من طبقة "المثقفين العبيد". الإعلام الرسمي بشقيه المرئي والمكتوب يدار من قبل شخصيات ثقافية من دون موهبة حقيقية وسبق لها أن تفننت في عبوديتها للنظام السابق واندرجت عميقاً في ثقافته، أو من شخصيات بلا رصيد حقيقي خرجت إلى الفضاء من المستنقع الطائفي. ومثل هؤلاء يحاولون تعويض تاريخهم المخزي مع ثقافة صدام بالكثير من الولاء للسلطة الحالية، ومن ثم فهم الخيار الأمثل لها.

السلطة الثقافية العراقية لا تحتاج أديباً وكاتباً وباحثاً وفناناً حراً، بل تحتاج إلى أولئك العبيد وما أكثرهم، ممن زاد مثقفو السلطة العراقية بعد 2003 من منسوب الولاء المطلق الذي كان عليها مثقفو سلطة صدام والبعث. إن مهمة تجميل السلطة الحاكمة انضم إليها "مناضلون" و"مجاهدون" ومن كل المشارب العقائدية والفكرية فضلاً عن المنافقين الطائفيين الذين تحولوا من مديح صدام إلى مديح معارضيه الشيعة من الحاكمين وموالاتهم، وبالطبع ليس حباً بديمقراطية ولا بحرية إنما بعوائد مالية ضخمة ومناصب ووجاهات من كل نوع.

وإزاء هذا المرض، فإن الأنشطة التي بدأت تتحرّك مجدداً في المشهد الثقافي العراقي أخذت تستعيد أمراضها المتوارثة عبر اعتماد كلي على الحكومة كما في أيام النظام السابق (نظام الرئيس العراقي الراحل صدّام حسين)، فثمّة ركون إلى مؤسّسات الحكومة المركزيّة أو المحليّة (في المحافظات) واستجداء قادتها ومسؤولي أحزابها وقواها المتنفّذة.

ومن موروث الثقافة العراقيّة الحاضر "نبرة مديح السلطة". فثمّة عدد لا يستهان به ممّن كانوا يمدحون الدكتاتور، تحوّلوا إلى مديح سلطة معارضيه الحاكمة بعد عام 2003. والمؤسّسات الثقافيّة العراقيّة الرسميّة مثلما كانت قد ابتليت بأبواق للنظام السابق، ابتليت مجدداً بأبواق الموالاة للأجهزة والقوى المتنفّذة.

صوت خارج قبة السلطة

مقابل هذا التاريخ المتداخل بين التماهي مع خطاب السـلطة والترويج لأفعالها، بدت مهّمة "العراقيون الجُدد" صـعبة، لكن كما تم إسـقاط الخطوط الحُمُر المتمثّلة بالرموز الدينية وقادة الفصائل المسلّحة والسياسيين، فإن شباب العراق أسقطوا "تابو" آخر تحت اسم كبير لكنه في جوهره وصل حداً من التهافت.. انه الثقافة العراقية التقليدية والسائدة.
فلقد ظهر شعراء جدد خارج أمراض الشعر العراقي التقليدية، و"أنوات" أسمائه المتضخمة، شعراء اختبروا هاجس الحرية في نصوصهم مع اعتقال السلطات الحاكمة للمتظاهرين في "ساحة التحرير". شعراء في العشرين يخترقون بأرواحهم غبار المدينة الهاطل عليها في شكل يكاد يكون يومياً، وغبار السياسة والأفكار السائدة الثقيل، يسخرون بمرارة ولكن يتعاطون مع مشهدهم الإنساني بحب وحنو بالغين، هما على الأرجح سينتجان نصوصاً مختلفة وبلغة جديدة خارج إطار الغموض الاستعراضي وخارج البكائيات والندب.
مثل هذا كله لم يمنع، ومع الانفتاح الذي توفره وسائل الاتصال المعاصرة، باحثين وأكاديميين جدد من إثارة أكثر من سـؤال جوهري حول راهن البلاد وثقافتها، وباتوا مشـغولين بحوار يتساجلون فيه بين ثقافتهم ومعارفهم "الورقية" ووقائع حياتهم وحياة مواطنيهم الساخنة.
هذا التشـكل خارج المؤسـسـة الرسـمية، حتى وإن كانت هي المانحة الوحيدة للجاه والمكانة الوظيفية، يبدو المؤشـر اللافت في حركة الثقافة العراقية كي تتخلص من اثنين: ظل الديكتاتور وسماجة معارضـيه الذين أمسكوا بالسلطة من بعده، وإن كانت تلك المهمة قد تستغرق وقتاً طويلاً، امتد فعلياً من احتجاجات بغداد وبعض المدن العراقية في 25 شـباط / فبراير 2011 حتى تشرين الأول / أكتوبر 2019.
وما يتصل بصعود الصوت الاحتجاجي في العراق، ثمة حيوية مثلتها شوارع الثقافة في غير مدينة كبرى. مع صعود تأثير شوارع الثقافة كما في البصرة وميسان وبابل وغيرها، تحول المكان-الحدث إلى فعالية تنويرية مؤثرة لا غرابة انها كانت مشغلاً لانتفاضة تشرين الأوّل.
راحت دولة القناصين الحاكمة في العراق تطلق النار اغتيالاً لمن كانوا في جوهر تلك الحركة الثقافية التنويرية. اغتيل العشرات من هؤلاء، أو الذين نجو من الاغتيال هناك أيضاً بالأمس، بل حتى رسائل التهديد بالزوجات والأمهات لمن فروا خارج البلاد!
كل هذا الاستهداف يعني شيئا واحداً: اغتيال فكرة الثقافة بوصفها عملاً حقيقياً من أجل حرية العقل والتعبير.
كل هذا الاستهداف الدموي خلال عام 2020 -والذي تواصل بعدها- لم يحرك اتحاد الأدباء من أجل موقف طبيعي وبسيط لقول شيء في مساندة من هم منتمون للثقافة بشكل حقيقي وليس للوجاهة الزائفة، أولئك الذين أنتجوا صوتاً حقيقياً اسمه "شارع الثقافة".

فريدون في طريق الحرية

لكن من هم العراقيون الجُدد الذين ظهروا، بقوّة، في تشـرين الأول / أكتوبر عام 2019؟ إنهم أولئك الذين أشرنا إلى صلتهم بالمعرفة المعاصرة كمحتوى وتقنيات (شباب القرية الزراعية الذين اتصـلوا بالعالم عبر الانترنت مثالاً)، مثلما هم شـباب التصـميم الغرافيكي والتعبير

الموسيقي المختلف. شباب بالكاد تجاوزا العشرين، نشأوا في فضاء كان فسيحاً حد أنه استوعب سقوط كل الأفكار التقليدية والمناهج النظرية سياسياً واجتماعياً، لتبدو أجيال العراقيين الشابة بين تحديين: معارفهم الجديدة من جهة بمقابل الأسوار والجدران والضجيج والعنف والفساد الذي تنتجه السلطة من جهة أخرى.

لم تتحوّل ساحة التحرير، وسط بغداد، إلى ميدان للاحتجاج بصوت عالٍ فحسب، بل صارت جدراناً أبرز مبانيها -تحديداً بناية المطعم التركي (مبنى الحرية)، ونفق التحرير الرابط بين شارعَي الجمهورية والسعدون- معرضاً مفتوحاً لأحلام الجيل العراقي الجديد، الذي صاغ بيانه الشخصي حول الحرية بوصفها فناً وثقافة ومعرفة.

انتجت في هذه المساحات معارض كتب في الهواء الطلق وعلى أنقاض البنايات؛ لقد بدا القاصّ والكاتب العراقي المقيم في فنلندا حسن بلاسم في غاية السعادة وهو يرى نسخة من أحد كتبه معروضة على رصيف ضيق في نفق التحرير، ضمن "مكتبة" أقيمت على عجل، تعرض فيها الكتب مجاناً، وكتب بلاسم: "كتابي (الرجل القاموس) ما يزال يجلس على رصيف الحرية في بغداد، يحلم ويفكر في بلد حرّ ومتقدم".

وضمن مدارات الكتب، سارعت "دار المدى" لإقامة مكتبة تقدم منشوراتها البارزة في أحد طوابق المبنى، الذي كان مظلماً ومهجوراً ومخرباً، للقرّاء من المنتفضين مجاناً.. هنا كأنّ الجميع في لحظة عراقية فارقة يتفقون على صوغ عبارة في غاية الأهمية، عبارة تقول: "الحرية فنّ وثقافة ومعرفة".

بدورها، فقد تحوّلت منطقة الاعتصام إلى مسرح حيّ، ليس غريباً أن يكون "مسرح التحرير"[202] حيث حضر أسلوب مسرح الشارع بما يعني اتصاله المباشر مع الوعي الشعبي واضرامه حرائق الوعي بين الناس من أجل التذكير بما غاب عنهم من حقائق، حتى لو كانت صادمة. لم تتوقف تلك العروض الصادمة عند قلعة الانتفاضة (ساحة التحرير ببغداد) بل انتقلت إلى مدن عراقية عدة منها البصرة[203] في عرض عميق الفكرة وبسيط التنفيذ، استعاد الشبان الشهداء وهم يحكون للناس قصصهم بل آمالهم البسيطة في حياة آمنة كريمة يستحقون.

ومع أن عراق الحروب والقمع والمصائر الإنسانية الهائلة معين لقصص غنية المعاني والجماليات، إلا أن شاشاته السينمائية ظلت فقيرة، وهو ما حاولت انتفاضة تشرين الأوّل / أكتوبر التنبيه إليه لجهة فقر الانتاج السينمائي[204] وتقصير المؤسسات العراقية الرسمية.

ومنذ اندلاع الموجة الثانية من الاحتجاجات، 25 تشرين الأول / أكتوبر 2019، ارتفعت في أرجاء الساحات لوحات وبوسترات وتعبيرات تنتمي إلى ما يسميه الأستاذ في أكاديمية الفنون بجامعة واسط كريم طه، بـ "الرسم التفاعلي".

ويرى طه، في منشور له على صفحته على فيسبوك، أنّ "الرسم غالباً هو التعبير بالشكل والألوان عمّا يدور في خلجات النفس عند الإنسان، وهذا التعبير يتباين في أسلوبه وطريقة عرضه، كما تتحكم به ظروفه الزمانية والمكانية"، وحيث إنّ الحدث السياسي الآني للعراق

---

[202] نصب عدد من المسرحيين خيمة في ساحة التحرير وسط العاصمة بغداد وسميت بـ"مسرح التحرير"، وقدّمت عروضاً عديدة لفنانين شبّاب.

[203] شهدت ساحة الاعتصام في البصرة تنظيم عدد من العروض المسرحية، منها عرض "لا ما نتعب"، الذي حثّ على الاستمرار بالتظاهر والاعتصام.

[204] تأسس خيمة في ساحة التحرير باسم "سينما الثورة"، حيث عُرضت أفلاماً عراقيّة وعربيّة، وجرت ندوات نقاش بشأنها بين الحاضرين.

يعجّ بـــــ "الحراك المصـــحوب بالحسّ الثوري المصـــاحب للانفعال، والعاطفة التفاعلية على المستويين؛ الفردي والجماعي، تكون النفوس فيه قد تهيأت لفتح قريحة المشاركة الجمعية، ولو بمشاركة بسيطة المستوى من المشاعر (كالفرحة أو الألم) بين المجتمعَين، ومعهم ما ييسر فعل امتداد القريحة من حدودها الفردية إلى مستوى المجموع فيتشارك بها مع المتواجدين".

لجأ الفنانون، ولا سيما الشباب منهم، إلى تسجيل ملاحظاتهم، وتوثيق "ما يحدث على الجدران الصـماء الواسـعة في سـاحة التحرير وأنفاقها التي ألهمت خيالاتهم، وحفزت مواهبهم ليجعلوها عموداً أســاســياً يدخل ضــمن مضــمون نص الحدث الراهن، ويتفاعل بقوة مع العطاء الكبير للشــباب المنتفض، وليوازي ســيل عطاء الدماء، وألم الجروح، أو يواســيها على أقل تقدير، فكانت، وكما نشــاهد، نتيجة عمّدت ركناً من أركان ســاحة التحرير، وعكســت الجانب الثقافي الذي يمتلكه المتظاهرون ومتلقو الأعمال على السواء"، كما ينهي كريم طه ملاحظاته.

وإذا كانت انتفاضـة تشـرين الأول / أكتوبر العراقية قد قدّمت جيلاً جديداً في السـياسـة والأفكار والعمل الميداني الدقيق وشديد التنظيم، في إدامة الاحتجاج لوجستياً رغم سقوط آلاف الضحايا بين قتيل وجريح، فإنّها أيضــــاً برعت في تقديم خطاب فنّي يحاكي الحدث ويســــتلهم معانيه ويؤشـر لدلالات مستقبلية كبرى، إذ يقول الفنان عقيل خريف في منشـور له عبر صـفحته على "فيسـبوك"، "الثورة أفرزت جيلاً لفناني الفنّ الغرافيتي وهي تواكب الحدث، الفنّ هو أقرب إلى الأحداث، يجب على نقّاد الفنّ أن يوثّقوا ثورتنا وقراءتها، من خلال الأثر على الجدار".

ومن هنا جاءت الاسـتجابة، فكتب الفنان كريم سـعدون على صـفحته على فيسـبوك: "التحرير ينتج فنّه"، عن سلسلة جداريات في نفق ساحة التحرير وقّعها الرسام الشاب باقر ماجد.

ولم تتوقف لغة الاحتجاج التعبيرية فنّياً عند الرســـم وحســـب، بل أنتجت خطابها الإعلامي الخاص، انطلاقاً من بؤرتها المكانية: سـاحة التحرير؛ فقد أصـدر المحتجون صـحيفة خاصـة تحمل عنوان "توك توك"[205]، استلهاماً لاسم الدراجة الشعبية التي صـارت أيقونة من أيقونات الانتفاضة، لما قدمته من وسائل عون سريعة في إسعاف الجرحى من المنتفضين ونقل إمدادات العون المختلفة.

ليس هذه وحســـب، بل إنّ المنتفضـــين أطلقوا إذاعة محلية بعنوان "نريد وطن"[206]، تغطي المنطقة التي صـارت معقلهم وسط بغداد، دون أن ينسوا تركيب شبكة إنترنت تغطي المنطقة، وإنارتها بمولّد موضـعي للطاقة جعلهم قادرين على إنارة المبنى الذي كان يغرق في الظلام منذ عام 2003[207].

وفي نفق التحرير ثمة محال تجارية ومكاتب خدمات ضـــمن منظور عمراني تغنّت بجماله أجيالٌ من العراقيين وضـــيوفهم من العرب المقيمين طوال عقدي الســـبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، لكنّها تراجعت حدّ الانطفاء التام، فصارت بعد عام 2003 مواقع مظلمة تنطلق منها عصابات الجريمة والإدمان على المخدرات والكحول.

---

[205] فاضـل النشـمي، "(تكتك)... صـحيفة الحراك العراقي / القائمون عليها يقولون إنها بدأت في سـاحة التحرير وسـتنتهي فيها"، صـحيفة "الشـرق الأوسط"، نشر بتاريخ 5 تشرين الثاني 2019.

[206] أحمد النعيمي، "من ساحة التحرير في بغداد... صحيفة وإذاعة"، صحيفة "العربي الجديد"، نشر بتاريخ 6 تشرين الثاني 2019.

[207] راية الجلبي وأحمد أبو العينين، "مبنى مهجور يصبح مركزاً للانتفاضة في العراق"، وكالة "رويترز"، نشر بتاريخ 2 تشرين الثاني 2019.

وإزاء ذلك، انتفض الشـــبان للمكان وأعادوا إليه الحياة بعد أعوام من الإهمال، أضـــاءوا كلّ زاوية من زواياه، ورفعوا منه تلال القمامة، كأنّهم بذلك يرسلون للحكم العراقي رسالة مفادها: "أنتم خرّبتم ونهبتم ونحن أنفقنا رغم فقرنا وعمّرنا".

في الجهة الأخرى من المكان، حيث "ساحة الطيران"، وفيها جدارية الفنان العراقي المشهور، فائق حسـن، التي كانت مغطاة بطبقة سـميكة من غبار الإهمال وسـخامه، فهبّ إليها شـباب الانتفاضـة، مزيلين تلك الطبقة المعتمة، وحاملين لذلك العمل الفني الذي يشكل جزءاً بارزاً من تاريخ العاصمة العراقية المعاصر، مصابيح تنيره ليلاً[208].

وإذا كانت انتفاضـــة تشـــرين الأوّل / أكتوبر تمريناً حقيقياً على الحرية ومن أجلها، كان من الطبيعي حضـور الوعي الجمالي والإنسـاني النسـوي، وهو ما تكثف النظر إليها الكاتبة ديمة ياسين في مقال يعرض لتجارب تشكيلية نسوية عراقية مغايرة حيث إن "الفنانات قررن إخراج المرأة من خانة العرض إلى خانة الفعل. النســـاء في هذه الأعمال تنتقد وتحلل وتبدي آراءها، سـواء فيما يخص الوضـع الاجتماعي أو السـياسـي. وهي جزء من حركة فنية فاعلة ومتفاعلة وليســـت معزولة، تزداد رقعتها وجرأة طروحاتها مع تقدم الوقت وســـرعة وســـهولة تبادل الأفكار"[209].

ومنذ اليوم الثاني لانتفاضة تشرين الأوّل / أكتوبر العراقية، ظهر المنشد حيدر حسن التميمي، وهو ينشـد نشـيداً ثورياً حافظ على جماليته الغنائية واللحنية، وإن كان وسـط نيران شـوارع تحترق، فبدا المشـهد وكأنّه مأخوذ من عمل سـينمائي وليس واقعياً، يدور وسـط شـارع ببغداد؛ بصـــوته وقدرته على ابتكار الألحان ولغته العربية المتماســـكة، وإن كانت من نبع المراثي الحسـينية التي خبرها ومارسـها. أضـحى التميمي منشـد الثورة الجميل، يقدم الأناشـيد العميقة الصـادقة من عمق المشـهد من ساحة التحرير وشـوارع بغداد، بل إنّه لم يتردد في توجيه نشيد يخاطب فيه القنّاص[210] الذي صار رمزاً لآلة وحشية تقتل الشباب العراقي بلا رحمة.

هذا النمط الغنائي الرفيع لهذا المنشـد الوسـيم مثّل صـوت الشـباب العراقي، بل إنّ كلّ نبرة منه تحمل نغمة أمل، كلّ شهقة مجروحة تعني مستقبلاً مفتوحاً يرسمه هذا الجيل تحديداً لا غيره.

بالمقابل، فإن غناء جديداً ممزوجاً بالغضـب بالسـخرية وفّرته موسـيقى "الراب". وعلى الرغم من هذا النوع من الموسيقى غير فاعلٍ عراقياً، إلا أنه اكتسب حضوراً جيداً مع سنوات الحرب الطائفية ومواجهة الإرهاب والفساد، ثم وجد متنفساً كبيرا في انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر، كما في مجموعة أغنيات فريق "فايف"[211] إذ برع أعضـــاؤه في مزج إيقاعات الراب بأنغام

---

[208] علي الكرملي، "إنارَةُ التحرير كما النفق والشاطئ.. مُبادراتُ شاب يؤمن بالسلمية والبناء"، صحيفة "المدى"، نشر بتاريخ 4 كانون الثاني 2020.

[209] ديمة ياسين، "النسوية وحركة الإبداع الفني في العراق"، موقع "السفير العربي"، نشر بتاريخ 25 شباط 2021.

[210] عُرف حيدر حسـن التميمي على بنشـيدين هما: "لن أخضـع والوطن هوية"، و"نريد وطن". وقد تداول الناشـطون أناشـيده على مواقع التواصـل الاجتماعي على نطاق واسع.

[211] انتشرت أغنية "قصة عراقي" لفرقة "فايف" على نطاق واسع، وحملت كلمات مؤثرة، وهي: ""كان يا ما كان كنا ام واب وثلاث اخوان / وضعنه صعب بس ماشي كان/ بالنسبه اليه لاني مو واعي لساتني طفل وبعيني الاسود متروس الوان/ عشنه ايتام من زمن صدام/ لأن والدي نحكم بتهمه باطله واجب عليه كان الاعدام / فاخويه الاكبر ماســك الدار/ ما كنت أفهمه يوم كان يكول جمعت يمه فلوس الايجار / كل ظني انها نفس الدينار / الي امي تملكة تنطيه اليه حت اشتريلي العاب صغار / والحالة تصعب من فترة لفتره حد ما اخويه رب الاسرة صار/ أي وكبرنه ولكل واحد دورة اني طالب طموحي انجح حت لما اكبر اصـبح فنان/ مصـروفي اخذه من ايد اخويه ما قصـر وممشـينا كان / فجاة تركت الدراسـة فامري كان بيد الامريكان لن غاب من الشارع الامان/ والجثث مثل المزهرية/ بكل شارع تلكالك ميه / دم صار يلون الشوارع/ واحنه الي صرنه الضحيه/ وفقدنه سـندنه الاكبر اخويه ودع البيت/ وراح دون سـبب يذكر غير انه عاش بوقت الطائفية/ رغم الهم رغم سـفكّم للدم/ واسـتصـغاركم بالعلم/ الي بيبدي

عراقية موروثة، وتلك لمسة ذكية للغاية لجهة تأصيل الشكل الموسيقي وجعله بملامح محلية.
والسخرية الناقدة كانت أيضاً حاضرة بقوة في سلسلة انتاجات غنائية لم تكتف بالتحريض بل اهتمت بشكلها الغنائي والموسيقي كي يغدو بتأثير أكثر فاعلية وحضورا كما في أغنية انتجها البرنامج السياسي- الاجتماعي الساخر "البشير شو" بعنوان "ذيل أعوج"[212]التي نجحت لا في عرض وقائع انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر وفكرة شبابها، بل في اشارتها العميقة لمعنى الحاجة للهوية الوطنية العراقية التي تم مسخها بقوة ما بعد سنوات 2003.
وفي ميدان الغناء الحماسي، ذهبت شابة عراقية، هي سارة آدم، إلى إنجاز نسخة محلية من الأغنية المشهورة"do you hear the people sing?" أو " هل تسمع غناء هذا الشعب"[213]؛ التي تكوّن محوراً مهماً في الفيلم/ المسرحية الغنائية المأخوذة عن رواية "البؤساء" لفيكتور هوغو. سارة آدم والشباب حوّلوا الأغنية المشهورة إلى نسخة عراقية؛ حيث ينشد المنتفضون، رجالاً ونساء، ومن أجيال مختلفة، لأشواق الحرية والأمل الحقيقية التي طال انتظارها.

لقاء الاحتجاج بالمعرفة العصرية

الحال هذه، فإن انتفاضة تشرين الأول / أكتوبر عرضت بديلاً عن المثقف العراقي "بنموذجه السائد" التقليدي في كل شيء: لغته، أفكاره، نتاجه وحضوره حتى وإن بدا بعضه مدججاً

لسا باقي/ راح اظل عن حقي لا ما اتنازل/ هذي مو قصة حياتي هذا قصة كل عراقي/ الحمل زاد والشمس غابت/ فاخويه الثاني لزم البيت/ واتزوج لكن ما تركنه واني ايضا جنب امي ظليت/ ورجعت حت اكمل الدراسه كل هالسنين واني تاركها/ وانعرضت فرصة عمل ليه كملت وما فوتتها/ اعتمدت ع نفسي كضيتها شغل ودراسه/ احت اهلي ساعد هدفي براسي لا ماني ناسي/ اصراري رغم هدفي باعد/ لكني واعد لنفسي اني اكمل اي شي ما يوكفني/ حياتي تافهه لو ظروف البيها سمحت الها انو هيه التسيرني/ صرنا بخير والوضع تحسن نسبيا الامل صار بشارعنا/ والبسمه انرسمت بوجه امي بس الثوب الاسود ما فارقها/ لكن ما دامت الفرحه بينه لما بدخول داعش سمعنا والحالة صارت نفس مكانت داعش البسمه من أمي سرقها/ فاخوي ما كدر يبقة ابيته ورفقانه بالجبهة بمحارق/ ترك زوجته وامي بمسؤوليتي وانا لسا مراهق/ كل يوم يخابر عنا يطمن رغم انو ينام وسط المجازر/ وبيوم الاحد اتصل بينه رقمه لكن غريب الخابر/ (ويجعل مثواه الجنه)/ شفت الفرحه لا متعرفنا/ وهالبيت راح يضل حزنة دايم/ كل ما واحد يصحى فينا يندار يلاكي هالثاني نايم/ ما ظل طعم وقيمه لاي شي/ حت بنجاحي ما فرحنه/ حت الضيف الي دخل بيتنا نشوفه بسمة بيها جاملنه شغلي بطلتة راتبي يكفيني يادوب لوحدي/ ليش أظل طول عمري عامل والشهادة ماسك بيدي شوف مواهبي مطموره زين كل ما اقدم اسمع بعدين شوف ابن الكحبة/ وابن السياسي حت لو غبي يوصل لوين/ لكن الشكوى متفيديني مين الي يسمعها/ خلني بواجه الظلام اجمعها/ خلي العالم معي تساند قضيتي وقضيه كل الي معها/ ايش ذنبي اني عايش بجيل/ من طفولتي كضيتها حرب/ ايش ذنبي حت تخلوني يتيم/ لا اخوان ظلي ولا ظلي أب/ وطلعت وساندني جيلي لكن واجهونه بالدم/ شلي يخوفني دام اليحكموني خساستهم صارت علن؟/ متهمني اصابه ميهمني قمع/ يهمني مين الي عالمنصه/ فلو متت جانب اخواني امي الي حتكمل القصة.

[212] أغنية "ذيل أعوج" ظهرت في تشرين الثاني 2019 وهي من أداء: ايمن حميد، ثائر شعيب، شوان سالار، احمد فوزي، وكلماتها هي: ""لا.. مو من طبعي الرجعه/ لا.. هيه الطلعه طلعه/ لا.. حقنه نجيبه كوه وكل فاسد ناوين نشلعه/ ملي.. حقنا بالملي/ واللي.. بايكنا خلي/ يكلي.. شراح يسوي لمن نبقى وهو/ راح يولي.. / خل يلحك ربعه/ كلهم سبعة في سبعة/ واحنا الما بينا رجعه والقافل بينه شيرجعه!/ يومية النت يكطعه/ وظلينا وإلا نجزعه/ ما نسكت باقي اللصوت وغصباً عنك راح تسمعه/ يومية نزيد وما نقل/ نتواجه ما نحب نختل/ الحك نجيبه كوة ننزل يومية ولا ما نمل/ بينا حيل ونتقدم/ ولطلقاته ما نهتم/ امسوي روحه زلمة وهو ديواجهنا ملثم/ حيل؟ أي بينا حيل/ ويل؟ شفنا صبح وليل/ حيل ضايج من لمتنا وحقه يضوج لأنه ذيل/ ذيل! ينطي بناسه وأهله/ ذيل! أعوج ياهو يعدله!/ ذيل! رافعلي قناصه ويم الجاره يرفع رجله/ ذيل! ديهددني بعمري/ ذيل! يدوي لو ميدري/ ذيل شحده يحاجيني؟ الساحة كلها بظهري/ ذيل! ضايج من لمتنه/ ذيل! كل حلمه يسكتنا/ ذيل! نبقى نحجي بزود/ وغصباً عن كل من هددنا/ يومية نزيد ومنقل/ نتواجه ما نحب نختل/ الحك نجيبه كوة ننزل يومية ولا ما نمل/ بينا حيل ونتقدم/ ولطلقاته ما نهتم/ مسوي روحه زلمة وهو ديواجهنا ملثم".

[213] انتشرت أغنية سارة آدم "هل تسمع غناء هذا الشعب"، على نطاق واسع أيضاً. وقد غنتها آدم بالنسخة الإنجليزية، لكنها وضعت ترجمة على الفيديو: " هل تسمع غناء هذا الشعب؟/ هذا صوت كل شخص ثائر/ انها اغاني ذلك الشعب/ الذي لن يستعبد مجددا/ عندما تعلوا ضربات قلبك/ اصوات ضرب الطبول/ هناك حياة على وشك البدء/ وذلك بحلول الغد/ هل ستنضم الى حملتنا؟/ من سيشجع ويقف بجواري؟ هل وراء هذا الحاجز عالم كبير كي تراه؟ اذا انضموا للنضال الذي سيهب لكم الحق لكي تكونوا احرار/ هل ستعطي ما تستطيع/ كي ترتفع رايتنا للعلى/ سيموت منا البعض ويحيا البعض الاخر/ هل ستصمد وتاخذ فرصتك/ دماء الشهداء ستروي مروج العراق".

بالحداثة أو ما بعدها. لقد بدا أن انتفاضة تشرين الأوّل / أكتوبر غير تقليدية في كل شيء، وهذا ما جعلها تتقاطع مع مسار المثقف العراقي وتلفظه بسرعة وببلاغة عالية.
ولأنها مغايرة لكل سلطة، جاءت الانتفاضة مغايرة لمسار المثقف العراقي التقليدي التأثير والمعنى. ويمكن القول إن أعظم ما قدمته انتفاضة تشرين الأول العراقية، هو تجاوزها القيم السائدة اجتماعياً وسياسياً وثقافياً.. تلك القيم التي رسختها سلطتا الديكتاتورية ومعارضوها من حكام البلاد بعد العام 2003.
صورة المثقف العراقي ومنذ عقود طويلة، هي، إلا فيما ندر، صورة مثقف السلطة الذليل، فهو لطالما كان تابعاً لسلطة الحكم أو سلطة الحزب أو سلطة المجتمع الجائر. ولأنها كذلك حتى الأول من تشرين الأول/ أكتوبر 2019، لذا تولت تلك الحركة الاجتماعية الشابة المغايرة وضع المثقف العراقي في المكان المناسب: درجة الصفر المعنوي والمادي؛ إن قوة هذه الحركة إنها بلا ثقافة سائدة، ولا ثقافة متداولة، بل هي منتجة ثقافة لا يعرفها الأديب والفنان والأكاديمي والصحافي أكان عبر نموذجه قبل 2003 أم بعد ذلك.
وحين تجرأت قلة من رهط هذا التكوين الذي يحمل عنوان "المثقف العراقي"، على النزول إلى ميدان الانتفاضة معلنة رغبتها الحقيقية في التعلم من جيل ما بعد 2003، جيل الغضب الثوري الحقيقي، فهي فعلت الشيء الصحيح الذي لم ولن تفعله أغلبية ذلك التكوين البائس.
وقد كان من هم على صلة بجوهر الاحتجاجات هم المثقفون العراقيون القلة الذي قالوا لا للديكتاتورية مثلما قالوا لا لسلطة الفساد المطلق والجريمة الحاكمة بعد 2003. وحتى هؤلاء لا فضل لهم ولا منّة بل كان موقفهم هذا مفترضاً وطبيعياً.

منبه الساعة صفر

غسان البرهان

شـــاعر وصـــحافي ومحرّر أدبي، ولد في ذي قار عام ١٩٩٣ . عمل في عددٍ من الوكالات الإخبارية، محرراً ومدير تحرير، وســـاهم في مواقع عربية، كما عمل محرراً أدبياً في دور نشر عراقية وعربيّة.

"نتمنى أن يتحلى الأشـــخاص الذين يحبون عمر بالصـــبر ويجدون راحتهم في زيارة ملفه الشخصي وتذكر حياته"

موقع فيسبوك

الخميس، 5:45 صباحاً

شوارع قليلة تفصل المسلحين عن ساحة الحبوبي، دخان القنابل المسيّلة للدموع يملأ المكان، والشبان يفعلون كل شـيء لإيقافهم، كان شـارع التربية سـيتحول إلى جبهة حقيقية إذا حدث وسيطروا عليه.. ستقع مجزرة في ساحة الحبوبي وسنخسر كل شيء. لذلك قرر الفتية قطع الطريق الذي على بعد نحو 100 متر من ســـاحة الحبوبي، رفس أحدهم برميل من الغازولين وأشعل النيران فيه.

الخبرة المحدودة التي اكتسبتها من العمل في العيادة منحتني لقب الدكتور ولم أكن كذلك، لطالما أردت تصحيح هذا المفهوم الذي أشيع عني، لكن القنابل الدخانية لا تفسح هذه الفرصة في كل مرة.. وعموماً لم يكن هذا مهماً ما دمت قادراً على تدارك حياة أحدهم عند إصابته.

يومها، صـــار الطريق من ركن التربية إلى حديقة غازي جبهة حقيقية، المتظاهرون يتهافتون جيئة وذهاباً وصوت الرصاص يزاحم الصراخ في الأسماع، وعلى مقربة منا مسلحون لم نتبيّن ملامحهم.. أحد المتظاهرين ناداني "دكتور.. إبراهيم.. إلحگنا"، سـقط أحدهم فسـارعت إليه.. كان فتى صـغيراً وقد لفظ أنفاسـه.. تحسـسـته وقلت ببرود المتمرس لمن أحاطوا بي وينتظرون معرفة مصـيره: "لقد مات". هممتُ بالنهوض لكني عدت إلى الأرض سـريعاً إثر ركلة قوية على خاصرتي.

"شنو مات.. خرب [redacted]... هذا أخوي"، قال صاحبها.

عزلني وقع الركلة عن الجبهة المسـتعرة حولي، هل أقول أعادني إلى صـوابي؟ كيف لي أن أعلن موت إنسان بهذه البساطة؟ لا يجب أن يموت الإنسان ببساطة.

لم يكن الوقت يسـمح بالأسـئلة فعلى بعد عشـرة أمتار مني سـقط اثنان آخران ولم أتمكن من الانتقال إليهما، لأن المسـلحين غيروا اتجاه فوهات بنادقهم من السـماء إلى الأعناق، واسـتمر وابل الرصاص بملاحقة ما تبقى من الأحياء بلا توقف.

**

(اليوم السابق) الأربعاء، 10:00 صباحاً
دخلت إلى خيمة "أبناء الناصرية"، قلت لهم، أريد من يوصلني إلى شارع بغداد، قال عمر "ها حيدر.. شعندك خالي"، قلت له "شغيلة"، صعدنا على دراجته النارية الجديدة التي اشتراها قبل ثلاثة أشهر بالتقسيط وانطلقنا عبر الشارع المحاذي لنهر الفرات، ومن أسفل جسر النصر مررنا صوب جسر الزيتون، وكان عددٌ من المتظاهرين قد تجمهروا على جسر الزيتون، وأوقدوا النار بالإطارات، انقطع الجسر مسبباً زحاماً خفيفاً، وارتفعت بعض الأصوات معترضة. بين النيران مكانٌ يتسع لمرورنا بأمان، خفف من سرعته وقبل أن نتجاوزهم قال "لحظة"، وترجل، توجه نحو من قطع الطريق وقال لهم إنكم تجازفون بحياتنا، وستتسببون بتوريطنا، تمتموا بكلام كثير، لم يصغ لكلامهم، شغل الدراجة وأوصلني.
لم يفاجئني موقفه الجريء هذا، اعتدنا عليه يعترض على كل ما يرى أنه يسيء إلى مكانة الناصرية، المدينة التي يعشقها، في الجلسات الشعرية التي كانت تُقام في المدينة، عندما كان يرافقنا صغيراً، يقف محتجاً إذا اعتلى المنصة شاعر سيئ وقد كلفته هذه المواقف الكثير.

**

الخميس، 6:30 صباحاً

قبل أن يرن المنبه الذي وقتّه للاستيقاظ إلى العمل، أيقظتني ارتجاجات الهاتف، يكاد الهاتف ينفجر من تدفق الإشعارات، أزعجني ضعف الإنترنت هذا اليوم، تصل الإشعارات ولا أستطيع فتحها، "حسين.. عموري شبيه؟".. قرأت هذه الرسالة، أكثر من مرة، ولم يفتح لا الماسنجر ولا الانستغرام، لأرد عليها.. المكالمات الفائتة أقلقتني أكثر، غلب فضولي النعاس، واستمريت بالتسمر في الهاتف، منتظراً لحظة ينفذ فيها الإنترنت إليه، لأفهم ما يجري، خلال ذلك، جاءني اتصال، جعلني معزولاً عن العالم، "شنو، تحجي صدك"، لم أعد أشعر بشيء، وجدت أمي قربي، لا بد أن صراخي أيقظها، "أريد هويتي"، خرجت مسرعاً، لا أصدق ذلك، لوحت لسيارة أجرة، قلت له "مستشفى الحسين بسرعة"، قال "خيرك عمي ترة الوضعية هناك مو زينة"، قلت "ما يخالف"، تحرك السائق من منطقة التضحية، بمسارات مختلفة عن التي اعتدنا المرور عليها، وصلنا إلى تقاطع التقاعد بين حي الصالحية وسومر. تريث السائق، ليمر رتلٌ من المدرعات باتجاه شارع النبي إبراهيم، على جانبي الطريق يتهافت الناس مخطوفي الوجه، صوت الرصاص صار مسموعاً بصورة واضحة، صارت حركة السيارة أبطأ، وفيها الكثير من التوتر، الطرق الفرعية متشعبة، وعند كل خيار، يتوتر السائق أكثر، وفي نهاية شارع الإخلاص، اعترف السائق، أنه خائف، ولم يعد قادراً على المواصلة، حسنا لم يبقَ سوى عبور الشارع العام فقط، ترجلت وركضت المسافة المتبقية، عبرت الشارع العام، من أسفل جسر المشاة، كانت الطرق فارغة تقريباً، كنت مشدوهاً، تريثت عند نزلة الشارع المؤدي إلى بوابة

المستشفى، هالني صوت سيارات الإسعاف المقتربة بسرعة تلفت الانتباه، وعندما تباطأت لصعود الشارع العام، نزّ مِن بابيها دمٌ خَضّبَ مصدها الخلفي، كما لو أنه اندلق مِن وعاء.
عندما اقتربت أدركت أن سيارة الإسعاف أنزلت الجرحى على الرصيف، وتحركت مسرعة، العشرات يحملون الجرحى ويركضون بهم نحو الطوارئ، دخلت معهم، هالني أن صداري الأطباء البيضاء ملطخة بالدم، والأطباء يبكون، والناس تصرخ وتجدف وتشتم، لكن وجهاً أبحث عنه لم أجده، سألت موظفاً شاباً يسجل أسماء الجرحى، وكانت عيناه محتقنة من كثرة البكاء، "عمر سعدون"، مر إصبعه المرتجف على القائمة سريعاً، "ماكو"، فدوة تأكد، "ماكو والله".

**

الخميس، 7:00 صباحاً
استيقظت على صوت المنبه منزعجاً، قمت متثاقلاً وارتديت ملابسي، نظرت إلى فراشه في غرفة الضيوف ولم أجده، اعتاد أن يدخل متأخراً ويخرج مبكراً في الأيام الأخيرة.. نمت منزعجاً، هناك شيء راكد في صدري، شيء بث بيّ شعور غريب مِن مساءِ البارحة، خرجت حينها لأروح عن نفسي، مشيت من منطقة الشرقية حتى ساحة الحبوبي، مررت بخيمتنا داخل الساحة، ولم يطب لي المكوث طويلاً، كان وجه الساحة مخطوفا، عدت بمسارٍ ثانٍ إلى منطقة الشرقية، دون أن يتغير مزاجي.
في الصباح خرجت دون أن أتناول فطوري، وقفت أنتظر سيارة زميلي المهندس التي تقلني إلى العمل، أسمع صوتاً بعيداً لإطلاق نار كثيف، نسمع هذه الأصوات عند الجنائز والعراضات، حينما يحول أبناء العشيرة المدينة إلى ميدان رماية، في هذه الأثناء اتصل ابن خالي، سألني "علي، عمر وين؟"، قلت إذا لم يكن في بيتنا الآن، فهو في بيت خالي، قال إنه سمع أن عمر مصاب، تسارعت دقات قلبي، اتصلت به وكان جهازه مغلقاً، اتصلت بابني خالي الموجدان في التظاهرات، ولم يجبني أحد، جاءني اتصال من عمي، قلت له أنا أبحث عن عمر، قال اجلب جنسيته وتعال للمستشفى، ولم يخبرني بمصيره، عدت راكضاً إلى البيت، رأيت عدداً من الجيران واقفين قربه، وفي وجوههم كلام لم ينطق به أحد وقتها.
فتحت الباب قلت لأمي "يكولون عموري متصوب"، انفجرت بالصراخ، حاولت أن أهدئها، أكدت لها أنه مصاب فقط، صحت بأخي الأصغر، "حمودي تعال وياي"، بحثنا جميعاً عن هويته، ربما كانت أمامنا ولم نجدها، خرجت راكضاً، يداي متهدلتان، وأحسست بأن ثقلي تجمع بأطراف جسدي، كانت سيارة خالي تنتظرنا، ومعه ابن خالي في المقعد الأمامي، ركبت بها وانطلقنا مسرعين.. عندما انعطفنا يساراً على شارع عشرين، التحق بنا ابن خالي الثاني وكان يبكي، ولم ينطق أحدٌ بكلمة، في داخلي شعور متناقض، شيء ما يخبرني أنه ليس بخير، وشيء يقول لا إنه مجروح فقط.. أكملنا حتى نهاية الشارع وانعطفنا، صار المستشفى قريباً، ولكن الوصول إليه يتطلب انعطافات كثيرة بالسيارة، كان الطريق يطول أكثر، في هذه الأثناء تذكرت أني طلبت منه أكثر من مرة أن يكون حذراً، آخر ها قبل أيام قليلة على الغداء، بعد

مشـادة كلامية وضـغط مني ومن والدتي، وقف يشـاكسـنا، قال ابقوا أنتم أنا لن أعود إلا ملفوفا بالعلم، قالت إمي، "اسـم الله عليك"، قلت "مو إحنه نخاف عليك"، قال "الخائفون لا يصـنعون الحرية".
عبرنا جسر القيثارة، بدت المستشفى قريبة، الانعطاف الأخير كان صعباً، اصطكت أسناني عندما انحدرنا إلى شارع المستشفى، وتجمدت في مكاني مِن الخوف، فرغ الهواء من صدري، ولم أعد قادراً على التنفس عندما لم تتوقف السيارة عند بوابة المستشفى، أردت أن أصحح لهم، أن الدخول من هنا وقد تجاوزناه، ولكن لسـاني عجز عن النطق، توقف السـائق قرب دائرة الطب العدلي، وكان المكان مزدحماً، والوجوه كثيرة والأصـوات عالية، ترجلنا من السـيارة وكانت قدماي ثقيلتان بالكاد تحملانني، عرفت أن عموري هناك على السـدية، تغطيه ملاءة زرقاء، ولم أر شيئاً غيرها.
فتحت عيني، أحدهم يغسل وجهي بالماء، وموظف بصدرية بيضاء يطرح عليَّ عدة أسئلة، لا بد أني لم أجب عن أغلبها، أغمضـت عيني مرة أخرى، وفتحتها وجدت مغذيات مربوطة بيدي، ثم أغمضتها وفتحتها في وقت متأخر من الليل، في مكان آخر، بعيد عن بينتا، يدعى الغراف.

**

الخميس، 6:00 صباحاً
حملت جريحاً وركضـت به نحو خيمتنا في فلكة الحبوبي، ثم عدت باتجاه مديرية التربية، الجبهة مستعرة هناك، وقرب مسجد الزهراء، دفعني أخي الصغير حمزة دفعة أوقعتني أرضاً، صـرخ بقوة "كرار! وين جنت"، "مو كلنا لك رجعهم؟"، ثم قال باكياً إن عموري مات، لم يكن متأكداً، سـمع أن بعضـهم رأوه يُقتل في بث مباشـر، لم أصـدق ذلك، ركضـت نحو مستشـفى الحبوبي، ودخلت عبر بابها الخلفي، لا يمكن لأحد الوصـول إلى بابها الأمامي بسـبب المعركة التي تدور أمامها، دخلت مسـرعاً، فوجدت صـديقاً عاملاً في المسـتشـفى، قلت لاهثاً عمر، قال "يا عمر"، قلت عمر سـعدون، قال "ما أعرف، بس جابوا واحد متوفي هاي هويته"، أخذت الهوية ومعها عشـرة آلاف دينار منقوعة بالدم، وقال إن الجثة نقلوها إلى مسـتشـفى الحسـين التعليمي، بعد ذلك أوصلني سائق سيارة إسعاف تابعة للحشد الشعبي إلى المستشفى، ركضت نحو الطب العدلي، وجدت إحدى عشـر جثة، لم يكن في المبنى غير العاملين فيه، وأنا وأربعة أشـخاص آخرين، وبينما أتفقد وجوه الجثث، وضـعوا جثة أنزلوها للتو على السـدية، اقتربت منها، إنه هو وجهه شاحب، ودمه يتدفق من عنقه.
وصل حيدر دوخي، وقد تبين له مكان صديقه من وجوهنا المحاطة به، أمسك أطراف السدية، أطفأت العبرة صوته، فمه فاغر بلا صوت، تكاد روحه تفيض، أدركت أنه لم يكن يستوعب ما يراه، خلع تيشيرته وظل يمسح الدم الذي ينز مِن السدية ويقطر على الأرض، تساقطت قطرات مِن الدم على رأسه، ولم أستطع فعل شيء.

بعدها دخل حيدر الحمداني، كان وجهه شـــاحباً، لم أســـتطع النطق، أومأت له بمكان عموري، وقف قرب سديته دون أن يصدر الكثير من الضجة، تحسس جسده، وانهمرت دموعه بهدوء، تمتم بكلمات لم أسمع أغلبها، قال "نايم عموري، ليش نايم بحذائك"، ثم سحب حذاءه، وجواربه، وتكور دون السدية، وضع رأسه بين رجليه، ودموعه توقد أنينه.
في هذه الأثناء، دخلت امرأة لا نعرفها، قالت إن قلبها أنبأها بمقتل ابنها، ركضت نحوه مباشرة، ركضـة العارف بمكانه ومصـيره، وصـلت وحدها، وانفجرت بالبكاء، وبعد أن تمزق صـوتها، تحســـســـت ظهر حيدر، قالت له "أكلك، خالة"، رفع رأســـه تجاهها، لم يتبين ملامحها بعيونه الغارقة، قالت "تعبت.. صـــرخوا بمكاني"، انفجرت صـــرخاتنا، خرجت من أعماقنا البعيدة، ظننت أن المبنى سينهار، شعرت أن كل طابوقة فيه اهتزت.
ثم وصلت عائلته، ولم نستطع أن نجري حديثاً معهم، المكان مزدحم، ويجب أن نفرغ السديات، بعض الجثث ملقاة على الأرض، انشغلت بفض مشادة كلامية بين ذوي شهيد وموظفي الدائرة، بينما كنت أحاول تهدئة الأمور، لأن تقارير شـهادة الوفاة صـدرت متأخرة أصـلاً، ولا يحتمل الأمر تأخيراً أكبر، في هذه الأثناء قرروا أخذ الجثة إلى المغتسل، وضعوه في تابوته، وسبقونا، لم يأخذوا أحداً من أصدقائه، تفرقنا نصعد مجموعات في كل سيارة لنلتحق بهم.
صـار الطب العدلي مكتظاً أكثر، ضـاعت فيه وجوه معارفنا، وصـلت عائلة آخر شـهيد وقع في المجزرة، فتى من مواليد 2002، يدعى مقتدى، اخترقت الرصاصة عنقه أيضاً، سجلوا شهادة وفاته، وانتظروا كثيراً للحصـول على تابوت لنقله، نفدت توابيت المدينة، ونفد صـبر والده.. لم أكن هناك، سـمعتُ أنهم أخذوه إلى المغتسـل، ودسـوا قطناً في جرحه الذي واصـل النزف، وأن أباه لفه بالكفن، وأخذه إلى النجف في حضنه، الأب صار تابوتاً لابنه.

**

واخيراً فقد الأمل
وضع حداً لحياته ليبقى حياً
مظفر
(منشور لعمر سعدون على فيسبوك. 30 تشرين الأول 2019)

**

11:00 صباحاً
بعد دقائق معدودة من إدخال الجنازة إلى البيت، فهمت أنهم ســـيشـــيعونه في الغراف، وبعدها يدفنوه في النجف، أنا لا أقوى على حضـــور مراســـم دفنه، وأن هاتفاً في قلبي يدعوني إلى الالتحاق بالمتظاهرين، رفعوا نعشـه على السـيارة، ارتفعت الأيدي مودعة إياه، لم تلحقه عيني حتى يختفي، سارعت إلى جسر الزيتون، ركضت مع الراكضين، لم أشعر بشيء، نزع بعضهم قمصـانهم وركضـوا عرايا، لم تسـتمر القوات كثيراً أمام هذا المشـهد، وانسـحبوا متقهقرين من

الجســـر.. عبر المئات من المتظاهرين، وعاد العشـــرات، عدت معهم متعباً، لن تجد أحداً من العائدين إلا مجروحاً أو ممزق الثياب، أو ملطخاً بالســـخام، وقرب حديقة غازي، قالوا هنا قُتِلَ عمر، وهذا دمه، وقفت عليه، وعلى مقربة من الرصـــيف، وجدت ســـعفة يابســـة، ســـحبتها ووضعتها على دمه، علمتُ أني سأعود إلى هنا كثيراً، ولا يجب أن أفقد أثره.. واصلت المشي مكسوراً إلى ساحة الحبوبي، كان الطريق مكتظاً بالشباب، بعضـهم هده التعب وسط الطريق، تعب العائد من المعركة، وفي ســـاحة الحبوبي تجمهر عدد لا تســـعه العين، التفتُّ إلى شـــباب يفتحون صـــورة من أعلى عمارة في الفلكة، شـــعرت بأن الســـاحة فارغة وأنا أنظر نحوها مباشـرة، هذا الذي في الصـورة، بردائه الأحمر، كنت قربه هناك، ووقفت على جثته، ثم وقفت على دمه، أنه صديقي الذي كنت قربه، أنه صديقي عمر، صديقي الذي مات فعلاً.

**

الخميس، 12:00 ظهراً
حاولت اللحاق به، لم أصـــدق عندما جاءني الخبر، هاتفي رن بعشـــرات الاتصـــالات، أرقام أعرفها وأخرى غريبة، قال لي أكثر من شـخص أن عمر قد قُتِل لم أصـدقهم، اتصـل أخي عبد الوهاب، وأكد هذا أيضـــاً، قلت له أنت تكذب.. تريدني أن أعود، كرر لي ما ســـمعت، وانه قد اســـتشـــهد في ركن حديقة غازي.. لقد كنت على مقربة منه عندما ســـقط إذا! ولم أنتبه إلى استشـهاده، ركضـت من شـارع التربية وعبر أزقة شـارع عشـرين، صـوب مستشـفى الحسين، اتصـــلت بصـــديق لي في الطب العدلي وتوســـلت به أن يؤخر الجثة حتى أصـــل، لحقني عدة أشـخاص لا أتذكرهم، عبرنا شـارع النبي إبراهيم، دون توقف، ثم من أسفل جسر القيثارة، إلى شـارع المستشـفى، وعند بوابة الطب العدلي، رأيت بعض الأصـدقاء، قالوا أخرجوه، ذهبنا إلى المغتسل ولم نجده، ثم إلى بيته في منطقة الشرقية، أدخلوا النعش إلى البيت عدة دقائق، وأخذوه إلى الغراف، توسلنا بأعمامه أن نشيعه في ساحة الحبوبي، ورفضوا قال أحدهم أنه لا يستطيع أن يتحمل مســـؤولية ما يحدث هناك، غيره قال كلاماً جارحاً، ارتفعت الأصـــوات وتوترت الأجواء، قالت أمه بصـــوت واضـــح عمر ولِدَ في الحبوبي، ومات في الحبوبي، ويُشـــيَع في الحبوبي، لكنهم لم يسـتجيبوا، تدخل بعضـــهم لتفريقنا، رفعوا الجنازة على سـيارة سـتاريكس واحدة، وهذا كان فراقنا الأخير.
عدنا من الغراف، الناحية الصـغيرة منزعجين، لماذا أخذوه إلى مكان لا يعرف فيه أحداً، اتفقنا على التجمع في السـاعة الثانية عشـر ظهراً لتشـييعه، والتجمع تحت جسـر النبي إبراهيم، هناك بدأ الأصـدقاء بالتوافد، ومن سوق هرج القريب، وضـعنا كارتوني بيض على خشـبة، ولفيناهما بالعلم العراقي، وشـيعنا عمر تشـييعاً رمزياً من الجسـر إلى سـاحة الحبوبي، وفي اليوم التالي أقمنا له مجلس عزاء استمر ليومين.

**

الآن من ساحة الحبوبي في الناصرية
ترفع لافتة
(الخائفون لا يصنعون الحرية)
منشور لعمر سعدون على فيسبوك، 29 تشرين الأول 2019

**

الخميس، 12:00 ظهرا
شيعنا عمر رمزياً مكسوري الظهور، سار المئات خلف التابوت المصطنع، وكانت الأصوات ترتفع كلما اقتربنا من ســـاحة الحبوبي.. لســـنا الوحيدين المفجوعين بفقيد، في الفلكة يطوف الآلاف وأعينهم المملوءة أسـى، لا يحجبها الدمع عن النظر صـوب اللافتة الكبيرة "الخائفون لا يصنعون الحرية".
في هذه الأثناء تذكرت قبل نحو شــهر من الآن، كيف أدهشــني حينما نظمنا وقفة احتجاج على اعتقال صــديقنا "ك"، الذي بحثنا عنه أربعة أيام حتى تحققنا من مصــيره.. خلال الوقفة رأيت عمر ســعدون قد رفع لافتة طبعها على ورقة بيضــاء "الخائفون لا يصــنعون الحرية"، فاجأني أنه اختار العبارة التي طالما رفعها صديقنا المعتقل في احتجاجات سابقة، لم أكن أخال أن عمر يأخذ الاحتجاجات بكل هذه الجدية.
في اليوم نفسه، جاء عمر ومعه مجموعة من شباب خيمتنا "أبناء الناصرية"، باقتراح طبع هذه العبارة بحجم كبير ورفعها في الساحة، ثم في وقت لاحق جاءوني بتصميم مقترح قبل الطباعة، واقترحت عليهم تبسيطه بخلفية بيضاء والكتابة باللون الأسود، باستثناء مفردة "الحرية" تكون باللون الأحمر، وقبل نهاية اليوم كانت اللافتة تطل على ساحة الحبوبي وصارت وسماً لها.
قبل عام أو أكثر صــادفني عمر في بغداد، كان أصــغر بالطبع، بقيت معه وعرفت أنه لا يفوت مباراة لفريقه المفضــل الزوراء، حتى لو تطلب الأمر أن يحضــر المباراة دون أصــدقائه، كان يتحمس في التشجيع كما كان متحمساً للشعر.
في اليوم الثاني ذهبنا أنا وهو ومجموعة من الأصدقاء إلى شارع المتنبي، وفي مقهى الشابندر تعرف على صفاء السراي، الذي تأثر كثيراً على استشهاده.
بعد استشهاد صفاء، جاءني عمر وطلب مني أن أصيغ له منشوراً لحث الطلاب على المشاركة في التظاهرات، كان متحمساً وطلب أن نوجه الدعوة لأساتذة الجامعات أيضاً، قلت له لا يأخذك الحماس ولا تتوقع الكثير من الأساتذة، ونصحته بأن يعمم المنشور، وأن ينشروه جميعاً بوقت واحد كي لا يتورط هو ويكون بموضع المراقبة.

**

الخميس 10:00 صباحاً

في الغراف، وجدت نفسي مدفوعا في بيت أبكي فيه مع نسوة على صديق طفولتي، أخرجتني أمي بالقوة، وعندما حملوا تابوته المبطن بكيس نايلون كي لا ينقع الخشب بالدم، لم أكن أعرف ماذا يعني هذا؟ تسارعت خطواتهم ومشى جمع من الناس في جنازته، وعندما وضعوا التابوت على سيارة الستاريكس، تلقفت حذاء عموري وركضت، فتحت باب السيارة وحشرت نفسي معهم، لم يعترض أحد، كانت إحدى فردتي الحذاء الرياضي الأسود، في حضني، والأخرى عند كرار صديقنا، كان الطريق إلى النجف يشبه إغماضة عين، نزلنا عند مغتسل الصدر، وكانت السماء تمطر، لم أقوَ على المشاهدة، طلبوا منا الخروج، قبلته في جرحه، وخرجت دون أن أنطق بكلمة، وعندما دخلنا مرة أخرى غطى الكفن جسده، قالوا خذ ملابسه، كانت لا تزال دافئة، تيشيرت رمادي داكن، وسروال أزرق.
في شارع الجنائز، قبل أن يصلوا عليه في ضريح الإمام علي، قلت لهم ماذا تريدون أن تفعلوا به؟ لم أكن أعرف شيئا، ولم يجبني أحد.. عندما وصلنا إلى قبره، كنت أتمتم بكلمات حورتها من أغنية.. "توادعنا ومشينا.. خلص كل حجينا"، لم أكن أصدق أن ما يحدث حقيقة، أنزلوه إلى قبره، أو الحفرة كما كنت أسميها في تلك اللحظة، ومن الزاوية التي وقفت بها، رأيتُ وجهه عندما أودعوه في لحده وأداروه نحو مرقد الإمام علي، رأيت وجهه لآخر مرة، قلت في نفسي، إنه نائم، وعندما انهال التراب عليه، أبعدت الحجارة الخشنة عن قبره، وهتفت بهتافاتي التي طالما أحبها، قلت "الناعم بس الناعم ذبوا لعموري، الناعم بس الناعم"، حتى انطمرت حفرته بالكامل.
عندما عدنا إلى عزائه، كنت متشبثا بملابسه، حتى بدأت بتلقي اللوم على تعلقي بها، وعندما كان الملا يختتم عزاء عمر، اعترض عندما رآها في حضني، وقال إنها تسبب أذى للميت، وقال كلاما عن رائحتها أغضبني كثيرا.. بعدها ألحوّا عليّ بالتخلص منها، يقولون "حيدر ترضاها عمر يتأذى"، سمعت هذه الجملة مراراً، حتى أذعنت أخيراً، اشترطت أن نفرشها على الموضع الذي قضى فيه، هناك تشبثت بتيشيرته بقوة، انغرس إصبعي بالفتحة التي خلفتها الرصاصة التي ثقبت التطريزة من جهة العنق تماما، وخرجت من الخاصرة، بكينا كثيرا، وضعنا الملابسة بكيس أسود، ربطته بإحكام، ومن على جسر الحضارات، في يوم غائم رمادي، هبت الريح فيه بقوة، ألقينا الكيس في نهر الفرات، وتلقفته الأمواج.

* *

عيد ميلاد شهيد

الخميس، 4 آذار 2021، السادسة مساءً
توقف عددٌ مِن المارة المستطرقين، عند ركن حديقة غازي، حيث ينظف مجموعة من الشباب صور ثلاثة شهداء، لاثنين منهم مجسمين لصورتيهما المزينتين بأجنحة بيضاء خلفها نور، وللآخر صورة بسيطة، لم يأكلها التراب، تبرع بها أصدقائه.
الواقفون يعرفون هذه الملامح، التي صارت جزءا لا يمكن فصله عن هذا المكان، والذين ينظفون المكان، ويزينوه بالبالونات والأشرطة الملونة، لا يستغربون وقوف الغرباء موقنين بأن هذه الوجوه موشومة على ساعد المدينة.

لم يطل وقوفهم كثيرا ليعرفوا أن هذا الاحتفاء اليوم استعداد لعيد ميلاد الشهيد عمر سعدون، بعد ساعات حيث سيبلغ في الخامس من آذار الثالثة والعشرين من عمره، بعضهم ترحم على القتلى، وآخرون انصرفوا لشؤونهم، فيما أحضر بعضهم أوراق A4 مطبوعٌ فيها ذكريات تجمعهم بالشهيد، وأوراق أخرى لمنشورات نشرها عمر على جداريته بالفيسبوك، وبعضهم أحضر صورا ورقية مطبوعة التقطوها مع عمر.
قرروا أن يلفوا كابينة الاتصال القديمة بقماش أبيض مرصع بصورٍ صغيرة مطبوعة، كأنهم يلفون عيونها التي كانت شاهدة على نحر الأعناق الطرية، حينما أحسن مسلحون لا يظهر من وجوههم غير الأعين المحترفة، الصيد برصاصة واحدة.
سقط جسد عباس هاشم الهزيل برصاصة واحدة كانت تعرف طريقها إلى عنقه دون غيره.. إنه وقت الحصاد، الفوهات إلى الصدور، أوقعت رصاصة أخرى رجلا كهلاً في مكانه جريحاً استنهضت جلادة بوجه الموت، في صدور فتيان لم يكونوا يعلمون يوماً أن كل هذه الشجاعة في داخلهم.
لكن الموت اتخذ قراره.. المقنع وضع إصبعه على زناد رشاشه الـــHS، وصوب الفوهة نحو عنق عموري، الذي همّ لإنقاذ الرجل الكهل، ولم يتطلب الأمر رصاصة أخرى، الأولى كانت كفيلة لخطف حياته إلى الأبد.
يتقطع نياط قلب محبيه كلما التفتوا إلى هذه المفارقة؛ لماذا اختار الموت الشخص الذي حرص حتى آخر لحظة على إرجاع المتظاهرين من المواجهة غير العادلة مع المسلحين؟

- أنجِزَ هذا النص بالاعتماد على شهادات كل من –بالتسلسل-: إبراهيم الجليل، حيدر الحمداني، حسين فيصل، علي سعدون، كرار حسن، حسين فيصل، إبراهيم الجليل، عبد الوهاب الحمداني، حيدر دوخي.

النقابات في العراق: ثقل الماضي وأزمة الحاضر

عمر الجفّال وصفاء خلف

عمر الجفال، *شاعر وصحفي عراقي، عمل باحثاً بين عاميّ ٢٠١٩ و٢٠٢١ في مشاريع بحثية عن العراق ضمن برنامج دراسات النزاع التابع لمركز الشرق الأوسط في جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية LSE في لندن. كما يعمل صحافياً لعدد من المواقع العربيّة والأجنبيّة. حصل على جائزة مصطفى الحسيني عام ٢٠١٧ ووصل إلى القائمة القصيرة لجائزة الصحافة العربيّة عن فئة الشباب في العام ذاته.*

صفاء خلف، *صحفي وباحث عراقي في علم الاجتماع والتحليل السياسي. أصدر كتاباً بعنوان "العراق بعد داعش: أزمات الإفراط في التفاؤل". في عام 2017، حصل على جائزة "نسيج" من تنظيم الوكالة الفرنسية للتعاون الإعلامي.*

أدّت مشاركة النقابات العمالية والمهنية في التظاهرات التي شهدها العراق في الأوّل من تشرين الأوّل / أكتوبر عام ٢٠١٩ إلى اكتظاظ ساحات 11 مدينة عراقيّة بالمحتجين. لقد عرف النقابيون والسكّان على حدّ سواء، -ربما- للمرّة الأولى منذ عقود، أهميّة النقابات ودورها ومدى استطاعتها على التأثير المباشر في الشارع كما في السياسة، ونحاول في هذا الفصل تبيان أهمية الحركات النقابيّة في الحراك الاجتماعي، فضلاً عن محاولة إضعاف دور النقابات من قبل السلطة، ولكن أيضاً المشاكل التي تعانيها النقابات.

مشاركة النقابات في التظاهرات

لم تكن مشاركة النقابات كجماعات في الاحتجاجات والاعتصامات هي التي أحدثت فرقاً فحسب، ولكن كانت فاعليتها قد برزت بفضل فعالياتها؛ فعلى سبيل المثال كانت نقابة المعلمين أولى المشاركين في الإضراب الذي دعا إليه طلاب المدارس والجامعات، وقد تعطّل التعليم تماماً في العراق إثر ذلك، ما حثّ الطلاب للمشاركة الفاعلة في التظاهرات. نتيجة لذلك، بات المعتصمون والمتظاهرون ينتظرون قدوم موجات الطلاب لملء ساحات الاعتصام المركزية التي شهدتها محافظات وسط وجنوب العراق. وحظي الطلاب بامتداح كبير نتيجة تجمعهم ودخولهم موحدين، بقمصان بيضاء، إلى الساحات وهم يرددون شعارات ترفض التدخلات الأمريكية والإيرانية بالشأن العراقي.

كما وبرزت نقابة المحامين كلاعب أساسية في الدفاع عن المتظاهرين والمعتصمين وتحديداً لإخراج المعتقلين منهم من سجون السلطة العراقيّة[214]. وفتحت النقابة، إضافة إلى ذلك، خياماً في ساحات الاعتصام لتقديم المشورة القانونية للمتظاهرين، وأقامت ندوات قانونية لشرح القوانين النافذة والدستور العراقيين، وما هي أوجه الخلل الذي تعانيانه، وأيّة قوانين ومواد دستورية يجب الضغط لتعديلها.

أما نقابة الأطباء فكانت أيضاً في الواجهة، إلى جانب إضرابها[215]، فقد عالج أعضاؤها من أطباء وطبيبات وطواقم صحية آلاف المصابين والجرحى من المتظاهرين في الميدان والمشافي، وقدموا المشورة للمحتجين لتجنب أثر الغازات المسيلة للدموع التي أطلقتها القوات الحكومية بكثافة، ما زاد من ثبات المحتجين في ساحات الاعتصام، لكن الأمر ذاته جعل هذه الكوادر في مواجهة مع قوى الأمن والجماعات المسلحة التي استهدفت المسعفين من أطباء ومساعديهم داخل وخارج ساحات الاحتجاج في مسعى إلى تعطيل الدعم الطبي عن المحتجين السلميين[216].

اما جنوباً، منبع النفط وبوابة العراق الوحيد على الخليج، فإن النقابات وإن لم يكن لها دور فعّال في تعطيل الحقول النفطية عندما حاول المحتجون ذلك نتيجة التشديدات الأمنية التي فرضتها السلطات، فإن النقابيين استطاعوا تثقيف المتظاهرين بشأن المواقع والطرق التي إن تم إيقافها فإنها ستؤدي إلى التأثير على مجريات الأحداث وإجبار السلطات على التجاوب مع مطالب المحتجين[217].

في مقابل ذلك، هدّدت السلطات المعلمين بالطرد من الوظيفة في حال استمروا بإضرابهم[218]، بينما تعرّض المحامون الذين دافعوا عن المتظاهرين إلى حملة اغتيالات في محافظات وسط وجنوب البلاد[219]، كما أدّى العنف الذي مارسته السلطات تجاه المحتجين إلى قتل العشرات من الكوادر الطبية التي كانت موجودة بينهم[220]. وأحصت بعثة الأمم المتحدة في العراق حتّى شهر آذار / مارس 2020 مقتل (490) متظاهراً، وإصابة (7783) واختطاف (98) شخصاً على الأقل على يد القوات الأمنية النظامية أو الفصائل المسلحة التابعة لأحزاب السلطة، وكان من

---

[214] "نقيبا المعلمين والمحامين في مواجهة عبد المهدي: الاضراب حماية لـ المضربين الطوعيين"، موقع "ناس"، نشر بتاريخ ٢٨ تشرين الأول ٢٠١٩.

[215] "شاهد: نقابات الأساتذة والمهندسين والأطباء تشل العراق بعد انضمامها إلى الاحتجاجات"، موقع "euronews"، نشر بتاريخ ٣ تشرين الثاني ٢٠١٩.

[216] سارة ليا ويتسن، مديرة قسم الشرق الأوسط في هيومن رايتس ووتش، علقت بأن "المسعفين أصبحوا ضحية أخرى للقوة المفرطة للدولة. وتلك الهجمات تظهر تجاهلا تاما للحاجة الماسة إلى ضمان تأدية المسعفين وظائفهم الأساسية". انظر: العراق: قوات الأمن تهاجم مسعفين يعالجون المتظاهرين، تقرير هيومن رايتس ووتش، في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 2019.

[217] مقابلة مع حسن جمعة رئيس اتحاد نقابات النفط والبتروكيماويات في العراق.

[218] "العراق: الداعون للاضراب يواجهون أحكاما تصل للاعدام"، موقع "إيلاف"، نشر بتاريخ ١٨ تشرين الأوّل ٢٠١٩.

[219] "«فرق الموت» تغتال فناناً ومحامياً جنوب العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، نشر بتاريخ ١٢ آذار ٢٠٢٠.

[220] "جنود الخفاء في المظاهرات العراقية أطباء وطباخون وحلاقون"، صحيفة "العرب"، نشر بتاريخ ١٢ تشرين الأول ٢٠١٩. يروي التقرير اختطاف عدد من الممرضين والأطباء من وسط ساحة التحرير في بغداد.

بين هؤلاء القتلى والجرحى والمختطفين أعضـــاء نقابات[221]. بينما مكتب رئيس الحكومة ومفوضية حقوق الإنسان أكدا أن عدد قتلى الاحتجاجات فاق الـــ (560) قتيلاً مع تسجيل 24 ألف إصابة بينها 5 آلاف لعناصر من التشكيلات التابعة لوزارتي الدفاع والداخلية[222].

وأجبر حضور النقابات في ساحات الاحتجاج رئيس الجمهورية برهم صالح إلى استقبال قيادتها وعقد نقاشـات معها بشـأن مطالبها[223]، والاسـتماع إلى رؤيتها لحلحلة الأزمة. وبدت النقابات الرئيسـة موحّدة وهي تلتقي المسـؤولين، وقُدِّمت أوراقاً وقّع عليها رؤسـاء النقابات، تتضـمن مطالب الشـارع بمحاربة الفسـاد، وتغيير قانون الانتخابات، ومحاسـبة المسـؤولين المتورطين بالفسـاد والقمع، واختيار أعضـاء جدد للمفوضـية العليا المسـتقلة للانتخابات وإجراء انتخابات مُبكرة[224]. وحتّى إن النقابات طالبت بإشـراكها بقيادة مرحلة انتقالية بعد اسـتقالة حكومة رئيس الوزراء عادل عبد المهدي إثر اتســـاع الاحتجاجات وهي التي لم يمضِ عام على وجودها في السلطة[225].

على الرغم من هذا الحضـور البارز للنقابات وحراكها السـياسـي والجماهيري في احتجاجات العراق 2019 وما تلاها، إلا أنّ حضـــورها قد تراجع بعدما أوقفت نقابتا المعلمين والأطباء الإضـــراب، أما قيادة نقابة المحامين فقد التزمت الصـــمت حيال ازدياد العنف والاعتقالات التعسفية ضد المحتجين علماً بأن أفراداً منها ظلوا يتابعون قضايا المعتقلين في مراكز الشرطة لإطلاق ســـراحهم. أما النقابات العمالية فقد عادت إلى انقســـامها بين نقابة مقرّبة من أحزاب السلطة أو أخرى قريبة للأحزاب الشيوعية والعماليّة أو أخرى تحاول إيجاد طريقها للاستقلال عن الأحزاب السياسية ومآزقها.

هذه ليست المرّة الأولى التي يكون للنقابات دوراً في التحوّلات السياسية العراقية، إلا أنها طالما خسـرت نضـالاتها، لا بسـبب عوامل تنظيمية، وإنما أيضـاً لنظرة السـلطات العراقية المتعاقبة للنقابات منذ تأســـيس الدولة العراقيّة الحديثة عام 1921، إذ كان لديها وما زال، خوف عميق من منح قوّة وحقوق للنقابات، إذ ما فتئت تعبث وتتدخل في التنظيمات النقابية وتضـــع العقبات القانونية أمامها لتنظيم نفسها. وعقب 2003 تعقد المشهد النقابي على نحو أكثر انقساماً وتشظ، ما أحدث ضـــعفاً عاماً في الجســـم النقابي وتفتتاً للقوة النقابية في مواجهة الأزمات المندلعة في العراق، لاسيما بوجود عشرات الفاعلين السياسيين والجماعات المسلحة التي باتت تستقطب

---

[221] " التظاهرات في العراق: التحديث الثالث"، تقرير بعثة الأمم المتحدة في العراق، نشر بتاريخ ٢٣ أيار ٢٠٢٠.

[222] كبير مستشاري الحكومة هشام داوود، قال في مؤتمر صحفي إن حصيلة قتلى الاحتجاجات منذ الأول من تشرين الأول/ أكتوبر 2019 وحتّى أواخر تموز 2020، بلغت 560 قتيلاً. انظر: أول حصـــيلة رســـمية لضـــحايا الحراك بالعراق، وكالة الاناضـــول، في 30 تموز 2020. وانظر: في "الذكرى الأولى لانطلاقها.. ماذا حققت المظاهرات العراقية وهل تتجدد؟"، موقع قناة الجزيرة، في 30 أيول 2020.

[223] "رئيس الجمهورية يلتقي رؤساء النقابات ويؤكد إنجاز مشروع قانون الانتخابات الجديد خلال هذا الأسبوع"، موقع رئاسة الجمهورية العراقية"، نشر بتاريخ ٣ تشرين الثاني ٢٠١٩.

[224] "نقابات واتحادات في العراق تطالب باستقالة الحكومة فورا"، موقع "سبوتنيك"، نشر بتاريخ ٣١ تشرين الأول ٢٠١٩.

[225] "رؤساء النقابات والاتحادات العراقية يطالبون بإشراكهم في المساهمة بتشكيل الحكومة الانتقالية"، وكالة "بغداد اليوم"، نشر بتاريخ ٩ آذار ٢٠٢٠.

نقابيين ونقابات في إطار التغلغل والهيمنة على إدارة موارد الدولة وخاصـــة في وزارات الصناعة والتجارة والنفط التي تمتلك الرصيد الأعلى من شركات القطاع العام.

تأسيس النقابات

يُعيد بعض الباحثين تاريخ تأسيس النقابات في العراق إلى العصر العباسي (892 – 1258)، وإن اختلفت بطبيعة الحال عن شـــاكلتها وأهدافها ومطالبها الراهنة. لكن يمكن القول إن بعض المهن استبقت تنظيم نفسها حتّى قبل إنشاء الدولة العراقيّة الحديثة عام 1921، إذ تأسست نقابة المحامين عام 1918، بينما تزامن تأسيس الجمعية الطبية العراقية عام 1921[226] مع تنصيب أوّل ملك على العراق من قبل السلطات البريطانية التي احتلت العراق.

بيد أن النظام الملكي والســـلطات البريطانية التي كانت تســـيطر على أغلب موارد العراق لم تســـمح بتشـــكّل نقابات عمالية، على الرغم من صـــدور قانون الجمعيات عام 1922 وبروز طبقات عمّال نتيجة للحداثة التي رافقت المشـاريع الاسـتعمارية لبريطانيا في العراق. هكذا فقد رفضت السلطات الملكيّة في عام 1924 تأسيس ناد لعمّال السكك الحديد التي كان عدد العاملين فيها يقدّر بنحو 8 آلاف عامل، كما فرضـت السـلطات عقوبات إدارية على المطالبين بتأسـيس النادي[227].

وفي العام ذاته، نظّم عمّال ميناء البصـــرة، أقصـــى جنوب البلاد، إضـــراباً نتيجة لتعرّضـــهم لظروف عمل شـاقة وتفرقة الإدارة البريطانية التي منحت عقوداً للعمّال الأجانب بينما رفضـت توقيعها مع العمّال العراقيين. أما في العام 1927 نظّم عمال الســـكك الحديد إضـــراباً للمطالبة بسنّ قانون للعمل. إلا أن هذه الإضرابات لم تسفر عن تحقيق مطالبها، إذ عومل القائمون عليها بقسوة وعوقب الكثير منهم إدارياً وتم فصل بعض منهم، لكن، ونتيجة لضغط العمّال المستمر، تكّونت في عام 1929 "جمعيّة أصحاب الصنائع" و"الاتحاد التعاوني للحلاقين" و"اتحاد عمّال الطباعة" وغيرها[228].

وكان أبرز من ســـاهم في تكوين النقابات هو النقابي العراقي المعروف محمّد صـــالح القزاز، الذي قاد الإضـــرابات والتظاهرات العمالية مشـجّعاً العمال على الانضـواء في نقابات لضـمان حقوقهم. إلا أن السـلطات لم تسـمح لتوسـع التنظيم النقابي، لا سـيما بعد أن شـاركت الجمعيّة

---

[226] التحافي، عبد الوهاب عبد الرزاق، "تطور التنظيمات النقابية في العراق"، صحيفة الزمان العراقية، نشر بتاريخ ١٧ آب ٢٠١٤.

[227] غريب، مصطفى محمد، "الطبقة العاملة العراقية وحركتها النقابية تاريخ ونضالات وآفاق مستقبلية"، موقع "الحوار المتمدن"، نشر بتاريخ ١٣ أيار ٢٠٠٣.

[228] العكيلي، زينب جبار رحيمة، "الموقف الرسمي والشعبي من الطبقة العاملة في العراق 1932 – 1939"، رسالة ماجستير – جامعة المستنصرية ببغداد عام ٢٠١٣.

وحرّضت على "الإضراب الكبير" عام 1931 الذي جاء كنتيجة لتسريح عدد كبير من العمال نتيجة للكساد الاقتصادي العالمي وفرض السلطة قانون مجحف للرسوم البلدية. بعد الإضراب، حظرت السلطات الملكية عمل الجمعية.

في عام 1932 تشكّل "اتحاد العمال في العراق" جرّاء اندماج عدد من النقابات، وسرعان ما خاض، بعد عام من تشكيله، مواجهة مع شركة الكهرباء البريطانية نتيجة لرفع أسعار الطاقة. حرّض الاتحاد على مقاطعة شركة الكهرباء وردت السلطة، بالمقابل، بملاحقة قيادة الاتحاد وأُلقي القبض على محمد صالح القزاز ومن ثم نفي إلى محافظة السليمانية.

مُنع الاتحاد بعد ذلك من العمل وصودرت ممتلكاته. واستمر عداء السلطة الملكية للنقابات حتّى عام 1944 حين سمحت مجدداً، بإعادة تأسيس وتشكيل النقابات، وقد شهد العام 1946 تسجيل نحو 16 نقابة. إلا أن هذا الواقع لم يستمر لأكثر من ثلاثة أعوام، إذ في عام 1949 أخذت السلطات تشنّ مجدداً حملة على النقابات وتضيّق عليها وتغلق مكاتبها. وفي عام 1952 منعت السلطة، نتيجة لأزمات سياسية، عمل النقابات وتشكيل الأحزاب السياسية.

تنفست النقابات العمالية الصعداء في أثناء وبعد الإطاحة بالنظام الملكي في تموز / يوليو عام 1958. وقد عُقد عام 1959 أوّل مؤتمر للنقابات في العراق، كما وفي العام نفسه انطلقت أكبر مسيرة عماليّة مليونية شهدتها البلاد في تاريخها في يوم العمّال العالمي.

إلا أن التحرك العسكري الذي قاده مجموعة ضبّاط قوميين أطاحوا بحكم عبد الكريم قاسم ونظامه الجمهوري، أدى إلى تراجع النقابات من جديد. واستمر هذا التراجع بعد وصول حزب البعث إلى السلطة عام 1968 وسيطرة ايدولوجية "الحزب الأوحد" على السياسة عامة، والتي تفاقمت مع وصول صدّام حسين إلى السلطة عام 1979، إذ أخذ حكم الفرد يسيطر تماماً على العراق. هذه التحولات الجوهرية في أنظمة الحكم منذ الخمسينيات والستينيات انعكست بشدة على النقابات، إذ صدرت قرارات ضد النقابات وقياداتها، وهي التي ستستعمل، بانتقائية، للتعامل مع النقابات بعد غزو العراق عام 2003 من السلطة التي تشكّلت في ظلّ الاحتلال الأمريكي.

إلا أن هذه المطاردات المستمرة للنقابات في العراق، لم تثنِ العمّال عن القيام بإضرابات وتظاهرات كبيرة. إذ يحصي المؤرخون قيام العمّال بأكثر من 40 إضراباً[229] بين العشرينيات وحتّى بداية سبعينيات القرن الماضي. صحيح أن هذه الإضرابات لم تحقق جميعها مطالب العمّال، إلا أن الكثير منها فرض قواعد أساسية للعمل مثل تحديد ساعات العمل، إلغاء ضرائب مجحفة بحق العمّال والسكّان، احتساب العطلات الرسمية كأيام مدفوعة الأجر.

[229] علوان، فلاح، " التجمع العام والنقابية في العراق"، موقع الحوار المتمدن، نشر بتاريخ ٣٠ آب ٢٠١٦.

أزمة النقابات

بعد غزو العراق من قبل القوات الأمريكية في نيسان/ أبريل عام 2003، سعت النقابات إلى الشروع ببداية جديدة230. أمل النقابيون حينها البدء بترتيب مؤسساتهم وتقويتها، إلا أن الفوضى التي أحدثها سقوط النظام السياسي وتصرّفات الاحتلال التي أعقبت ذلك، أثبتت أن إدارة الاحتلال الأمريكي والسلطة التي تشكّلت في ظلّها لم تكونا جاهزتين لهذه البداية. فقد أصدر الحاكم المدني بول بريمر نحو مئة قرار كانت تقضي، بأغلبها، إلى اختبار التجربة الاقتصادية النيوليبرالية في العراق، بضمنها تقنين حرية العمل النقابي وحصرها بكيان واحد هو "الاتحاد العام لنقابات العمال" الموروث من حقبة النظام السابق بوصفه كياناً شاملاً وقابضاً تتحكم به الدولة وفقاً لمنهجها السياسي، وهو ما اعتبرته قوىً عمّالية شروعاً لقتل التعددية النقابية وتعارضاً مع "اتفاقية الحرية النقابية وحماية حق التنظيم النقابي" رقم (87) المنبثقة عن المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية العام 1948231، لجهة "عدم أحقية اعتبار الحكومة العراقية أو أي سلطة تنوب عنها ولا أي حزب أن يكون وريثاً أو ممثلاً للعمال"232.

أما بالنسبة للنقابات التي كان لها وجود تاريخي واستعادت عملها، فقد تصارع النقابيون والأحزاب للسيطرة عليها. في عام 2005 جمّدت الحكومة عمل "الاتحاد العام لنقابات عمال العراق"، ولم تسمح له بالتصرّف بأمواله وعقاراته التي حصل عليها عندما كان يتلقّى اشتراكات من العمال في الخمسينيات والستينيات. في عام ٢٠١٢ مُنحت الأحقية لأشخاص مقرّبين من التيار الصدري بزعامة رجل الدين الشيعي مقتدى الصدر، بإدارة النقابة العامة الممثلة للعمال. وخلال هذا الصراع وبعده، كان النقابيون يأسسون نقابة بعد أخرى ما أدى إلى انبثاق ثمان نقابات 233عامة تتنافس جميعها على الانفراد بتمثيل عموم عمّال العراق.

الصراع على النقابة الأم

وفي الواقع، وعلى الرغم من وجود ثمان نقابات، فإن السلطات العراقيّة لا تعترف إلا بـ"الاتحاد العام لنقابات العمال في العراق"، بوصفه مصدراً لردع النقابات المنافسة وتقليل لقدراتها على التأثير.

---

230 مقابلة مع حسن جمعة، رئيس اتحاد نقابات النفط والبتروكيماويات في العراق.

231 راجع: موقع منظمة العمل الدولية، اتفاقية الحرية النقابية وحماية حق التنظيم النقابي (رقم 87) المعتمدة في المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية في 9 تموز/ يوليو 1948، في دورته الحادية والثلاثين، والتي بدء نفادها في 4 تموز 1950، وفقا لأحكام المادة 15 من ميثاق الأمم المتحدة.

232 وفقاً لتصريح رئيس اتحاد المجالس والنقابات العمالية علي عبّاس خفيف. انظر: انتخابات نقابات العمال ولعبة كسر العظم، موقع نقاش، 19 تموز 2012.

233 النقابات والاتحادات هي: اتحاد نقابات النفط والبتروكمياويات، اتحاد المجالس والنقابات العمالية، الاتحاد العام لنقابات العاملين، الاتحاد المستقل للنقابات المهنية والعمالية، الاتحاد العام لعمال وموظفي العراق، الاتحاد العام لنقابات العمال في العراق، الاتحاد العام لنقابات عمال العراق، الاتحاد الوطني المركزي لنقابات عمال العراق.

أما الاتحادات والنقابات العماليّة الأخرى، فإن السلطات تتعامل معها بشكل اعتباطي وبموجب مصالحها. تقبل السلطات التعامل مع هذه النقابات، مثلاً، عندما تتعلّق مطالبها بمطالب عامّة مثل رفع المرتبات أو تثبيت المتعاقدين. لكن عندما تطالب بمطالب وطنيّة مثل عدم قبولها برهن حقول النفط للشركات الأجنبية، أو خصخصة قطاعات مثل الكهرباء والصناعات[234]، فإنها تواجه النقابيين بالعقوبات والغرامات وحتّى التهديد بالحبس وفق قانون مكافحة الإرهاب، وهو قانون مُدان على نطاق واسع إذ يسمح باعتقال أي شخص ومعاقبته بأقصى عقوبات السجن أو حتّى الإعدام فقط إذا قام بـ"التهديد الذي يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أيا كانت بواعثه"، بحسب أحد بنوده.

وللسلطة ايضاً مبرراتها القانونية الشكلية للتمسك بـ"الاتحاد العام لنقابات العمال في العراق" باعتباره امتداد للتشكيل النقابي الموروث عن حقبة النظام السابق، فيما تتعامل الدولة/ الحكومة على نحو أقل رسمية مع تشكيلات نقابية أخرى بوصفها (منظمات غير حكومية) تنشط في مجال العمل النقابي كأمر واقع فرضته متغيرات مرحلة "الانفتاح الديمقراطي" كواحدة من أنساق الشرعية السياسية وما يتيحه لها قانون المنظمات غير الحكومية رقم (12) لسنة 2010 من غطاء235.
التشكيلات النقابية المنافسة، بدورها، باتت أغلبها مرتبطة بنحو أو بآخر بأحزاب وتنظيمات سياسية نافذة في السلطة، وصارت أداةً من ادواتها في إدارة الهياكل الصناعية، وهو ما نصّ عليه ضمناً قانون العمل رقم (37) لسنة 2015236.
لكن الإشكالية التي ظلت معلّقة وتؤرّق الجسم النقابي، هي قرار مجلس قيادة الثورة المنحل رقم (150) لسنة 1987، والقاضي باعتبار "جميع العمال في دوائر الدولة والقطاع الاشتراكي موظفين ويتساوون معهم في الحقوق والواجبات" وفقاً للمادة أولاً من القرار، فيما نصّت المادة عاشراً منه، على أن "التنظيم النقابي للعمال يقتصر على القطاع الخاص والمختلط والتعاوني"237. فالقانون الجديد (2015) لم يُلغ القرار (150) ولم يُشر إليه حتّى، بينما ألغى جملة قوانين على صلة بالعمل النقابي وأبرزها قانون العمل رقم (71) لسنة 1987 الذي يعد الأشمل بتاريخ العراق الحديث238.
وتكمن المفارقة، بأن قانون العمل الجديد رقم (37) لسنة 2015، ألغى قانوناً يصنف على أنه ذو سمو دستوري وهو قانون رقم (71)، والذي فضّلت حتّى سلطة الائتلاف المؤقتة التماشي معه مع اجراء بضعة تكييفات وتعديلات وفقاً للأمر (89) لسنة 2004 دون إلغائه، بيّد أن القانون الجديد لم يلغ القرار (150) وهو قرار "مجرد" صدر عن مجلس قيادة الثورة استناداً

---

[234] David Bacon، "Iraq's Workers Strike to Keep Their Oil"، Global Policy Forum، June 2007.
[235] راجع قانون المنظمات غير الحكومية رقم 12 لسنة 2010، الأمانة العامة لمجلس الوزراء، دائرة المنظمات غير الحكومية.
[236] راجع نص قانون العمل رقم 37 لسنة 2015، موقع مجلس النواب العراقي.
[237] راجع نص قرار مجلس قيادة الثورة رقم 150 لسنة 1987، مجلس القضاء الأعلى، قاعدة التشريعات العراقية.
[238] راجع نص قانون رقم 71 لسنة 1987، مجلس القضاء الأعلى، قاعدة التشريعات العراقية.

إلى مادة فضفاضة هي (42) من الدستور المؤقت لسنة 1970 والتي نصّت على ان للمجلس "إصدار القوانين والقرارات التي لها قوة القانون"239. لذا فإن مبررات وإمكانية إبطال القرار أقوى وأسهل قانونياً من إلغاء قانون وتشريع آخر جديد.
وبالعودة إلى إشكالية تحويل عمال القطاع العام إلى موظفين، فإن النظام العراقي السابق، عقد مروحة قرارات وقوانين في عام واحد فقط (1987) لتنظيم العمل النقابي، وكأنه كان يحاول كسب الوقت والتقدم بخطوات على تغيرات سياسية قد تطرأ في العراق نتيجة المتطلبات "المُلحة" او "المتوقعة" لمرحلة ما بعد الحرب العراقية – الإيرانية سياسياً واقتصادياً وحتّى اجتماعياً، فأصدر قانونين وسلسلة قرارات240.

تأميم العمال سياسياً

توجه الدولة العراقية بقيادة حزب البعث في فترة زمنية قصيرة ومحدودة على تنظيم قطاع العمل والنقابات، إنما أشّرَ على خطورة القطاع وحساسيته لدى السلطة، وكشف عن مخاوفها غير المعلنة من مغبة ترك الطبقة العاملة متحررة من قبضة قوية بظل مؤشرات انتهاء الحرب، وعودة نحو مليون جندي عاطل عن العمل إلى سوق متخمة بعمالة عربية أغلبهم من المصريين الذين كانوا يستنزفون "العملة الصعبة" التي تدفعها الدولة كأجور، وتحولها -تلك العمالة- إلى بلدانها دون أن يستفيد العراق من تدويرها في اقتصاده المحلي المنهك نتيجة ديون الحرب، استحقاقات إعادة الإعمار، النمو السكاني، ضغط التضخم، تراجع قيمة الدينار العراقي مع بدايات أزمة تدني أسعار النفط، وعدم قدرة بغداد على رفع إنتاجها من النفط نتيجة تهالك منشآتها.
وجدت بغداد نفسها في مأزق حين تمسكت بالعقيدة القومية، وباتت محرجة بأن تتراجع عن اعتبار العمالة العربية، بأن لها استحقاقات المواطن العراقي ذاتها، وفقاً لما نصّت عليه المادة (7) من قانون العمل رقم (71) لسنة 1987، بأن "يعامل العامل العربي الذي يعمل في العراق، معاملة العامل العراقي في الحقوق والواجبات المقررة في هذا القانون". لذا ابتكرت القرار (150) بتحويل العمال إلى موظفين، في مناورة بدت في حسابات السلطة أخف من طرد العمالة العربية علانية، إنما بالتضييق عليها، لاسيما وأن العمالة المصرية مثالاً، بدت أكثر شراسة من العمال العراقيين في رفض سياسات تقليص الأجور التي اتخذتها السلطة. وتبدو حادثة إضراب العمال المصريين في معمل إطارات الديوانية أواخر الثمانينات كواحدة من وقائع تمرد تلك العمالة على سلطة حديدية241.
لذا فإن مبررات قرار تحويل العمال إلى موظفين، أريد منه، التهيئة لطرد العمالة العربية والمصرية تحديداً، بوصفها الأكثر عديداً من بين العمالات العربية والأجنبية الأخرى.

---

239 راجع الدستور المؤقت لسنة 1970، موقع مجلس القضاء الأعلى.

240 بدءاً اصدار القرار رقم (150) في 1987/03/19 القاضي بتحويل العمال الى موظفين، وتبعه بقانون التنظيم النقابي للعمال رقم (52) في 15 حزيران 1987، ومن ثم قانون العمل رقم (71) في 17 آب 1987.

241 خلف، صفاء، "بمناسبة القمة الاقتصادية: الأهوال المصرية العراقية مثالاً"، صحيفة "المدن" الالكترونية، صحيفة "المدن" الالكترونية، 6 كانون الثاني 2019.

فإزاحة العمالة المصرية والعربية لشغل فراغها من نحو مليون جندي عراقي عاطل عن العمل عائد من الحرب بروح محطمة، ومستعدون نفسياً للتمرد على السلطة، لاسيما أن حادثة تمرد مجندي قوات الأمن المركزي المصرية في شباط/ فبراير 1986 في القاهرة، واحتلالهم لمواقع وتهديد أمن النظام[242]، ماثلة أمام السلطة في بغداد لما يمكن أن تمثله قوة شابة غاضبة ومدربة عسكرياً عائدة من الجبهات ضد نظام باتت شعبيته في تراجع مستمر في العراق.

لذا، فإن تلك الإزاحة هي محاولة لاحتواء عطالة عراقية متمردة، وهو ما أشار إليه الرئيس الأسبق صدام حسين بلقائه وفد العمالة المصرية ببغداد، بأن "الإنسان العراقي بات يستخدم يديه في العراك أكثر مما يستخدم لسانه، بسبب امتداد الحرب لسنوات عديدة، وهذا العنف أحد الآثار المتخلفة عنها"[243].

ومن جنبة اقتصادية، فإن القرار منح نظام البعث، قدرة الالتفاف على المستحقات المالية للعمالة العربية والمصرية تحديداً، وتقنين التحويلات إلى الخارج، وتفكيك الشبكة العمالية بالعودة إلى توظيف قرار مجلس قيادة الثورة المنحل بالرقم (1010) لسنة 1984، القاضي بـ"عدم سماع الدعوى التي يقيمها العامل الذي أنهيت خدمته في أي وزارة أو دائرة من دوائر الدولة أو القطاع الاشتراكي أو المختلط أو في الاتحادات والمنظمات الجماهيرية والنقابات المهنية بسبب تقليص حجم العمل فيها"، مما يعني حرمان أي عامل متعاقد من رفع شكوى أو مطالبة باستحقاقات مالية غير تلك التي تعترف بها السلطة.

ومع تنامي مؤشرات انتهاء الحرب العراقية – الإيرانية، باتت السلطة في بغداد تفكر جدياً باستحقاقات مرحلة ما بعد الحرب وإدارة الدولة والمجتمع، والشروع بخطة الانفتاح التدريجي على قوى المعارضة العراقية، وفتح المجال السياسي في إطار التحول من سياسة "الحزب الواحد" إلى سياسة "الحزب القائد" على غرار التجربة السورية، و من ثم فإن أقرب القوى التي يمكن أن تتقبلها سلطة حزب البعث، هي العودة إلى الهيكل الخامل لـ"الجبهة الوطنية والقومية التقدمية" التي تأسست في السبعينيات لاحتواء المعارضة العلمانية والوطنية دوناً عن القوى الإسلامية، وأبرز تلك القوى هي الحزب الشيوعي العراقي والحركة الاشتراكية العربية، وعليه فإن المجال الأبرز لحراك تلك القوتين في الداخل سيكون العمال والنشاط النقابي.

وعلى هذا الأساس، ارتأت سلطة بغداد تأميم القطاع العام سياسياً وتحصينه مسبقاً بتحويل كل العمال إلى موظفين تسري عليهم إجراءات منع العمل السياسي خارج صفوف حزب البعث وفقاً لما نص عليه القرار رقم (107) وهو التعديل الثاني للمادة (200) لقانون العقوبات رقم 111 لسنة 1969، والمعروف شعبياً بالقرار (200)، والذي يعاقب بالإعدام "أ- كل من ينتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي إذا أخفى عن عمد انتماءاته وارتباطاته الحزبية والسياسية السابقة، ب- كل من انتمى أو ينتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي إذا ثبت أنه يرتبط اثناء التزامه الحزبي بأية جهة حزبية أو سياسية أخرى أو يعمل لحسابها أو لمصلحتها".

---

[242] مبروك، نادية، "انتفاضة الأمن المركزي: أداة القمع مقموعة أيضاً"، موقع "إضاءات"، ٢٥ شباط ٢٠١٧.

[243] "صدام حسين في لقاء مع ممثلي المصريين العاملين بالعراق: للمصريين مكانة خاصة في قلبي"، جريدة الاهرام، بتاريخ 16 تشرين الثاني 1989.

فسلطة البعث، أرادت تحريم العمل النقابي داخل أجهزة الدولة والحكومة، على نمط تحريم العمل السياسي داخل المؤسسة العسكرية والأمنية، واحتكاره على النشاط لصالح حزب البعث، فيما غير المنخرطين تنظيمياً فهم يعاملون على قاعدة الولاء الضمني لـ"الحزب والثورة".
عملياً بدأت بغداد خطوات طرد العمالة العربية والمصرية، بإدارة سلسلة من الحوادث الغامضة والمفتعلة على نحو مشاجرات وأعمال ثأرية ضد العمال المصريين أدت إلى مقتل المئات منهم، وهو ما أشعل أزمة صامتة، عُرِفَت فيما بعد إعلامياً بـ"النعوش الطائرة"، فخلال 10 أشهر من العام 1989، وصلت 1350 جثة عامل مصري من العراق إلى مصر[244].

دولة الوظائف العامة

على كل حال، ظلّ العراق منذ اكتشاف النفط على أراضيه، دولة ريعية تعتاش على واردات مبيعات النفط. وتفاقمت هذه المشكلة مع النظام السياسي الذي الجديد الذي تأسس على أنقاض نظام البعث في نيسان / أبريل عام ٢٠٠٣. وربطت السلطة العراقيّة الجديدة واحد من كل خمسة عراقيين باقتصاد الدولة. إلى جانب ذلك، يمتلك العراق أكبر شبكة بيروقراطية في منطقة الشرق الأوسط، إذ يوظّف في القطاع العام أكثر من ٤ ملايين موظف بينما عدد سكّانه ٤٠ مليون. عليه فإن عدم السماح لموظفي القطاع العمومي للانضمام أو لتأسيس نقابات هو في متنه قرار سياسي يُراد من خلاله أن يبقى الموظف فرداً ضعيفاً غير منظّم مرتهناً للنظام السياسي وقراراته أيّاً كانت؛ خصوصاً وأن النظام السياسي العراقي هو نظام أوليغارشي تتقاسمه الأحزاب الكبيرة وطبقة تجار مرتبطة بها بشكل مباشر.

فالسلطات العراقيّة ما فتئت تحاول إقرار قوانين للتنظيم النقابي على مدار الأعوام التي أعقبت عام ٢٠٠٣، لكن هذه القوانين كانت بمعظمها تسعى إلى تكبيل النقابات ومنعها من ممارسة أدوارها. أخذت بعض القوانين روح قرار صدّام حسين ومنعت بموجبها الموظفين العموميين من الانضمام إلى النقابات ومنع الإضرابات، وهو الأمر الذي رفضته النقابات والمنظمات الحقوقية. إثر ذلك، لم يتم إقرار أي قانون لتنظيم العمل النقابي في العراق[245]. من هنا يظهر أنّ السلطات في العراق تستغل الفراغ القانوني لتنظيم العمل النقابي في العراق لضرب النقابات بشكل كامل، وتدمير كل مساعيها التنظيمية.

وتعمد السلطات أيضاً إلى إرهاب النقابيين، إذ يروي عدد من الذين أجريتُ حوارات معهم، أن إرهاب السلطة للنقابيين، وعدم إقرار قانون للحريّات النقابيّة، أثر كثيراً على علاقة العمّال

244 خلف، صفاء، مصدر سابق.

245 تجدر الإشارة هنا، اننا نقصد عدم وجود قانون صريح ينظم العمل النقابي، لكن قانون العمل رقم (37) لسنة 2015 أشار في مواضع كثيرة الى حق تشكيل نقابات او وجود مجموعات نقابية داخل مؤسسات الدولة والمنشآت الصناعية.

والموظفين بالنقابات، وبات صـــعباً عليهم إقناع هؤلاء بالانضـــمام إلى التنظيمات خشـــية من معاقبتهم أو إبعادهم عن الوظائف[246].

علاوة على ذلك، تتبع الأحزاب المهيمنة على السلطة طريقين آخرين لاحتواء النقابات. الطريق الأولى تتمثّل بزجّ عدد من أعضـاء الحكومة والأحزاب السـياسـية في النقابات ومن ثمّ دعمهم والتدخّل لصـالحهم في الفوز في الانتخابات والسـيطرة على سـياسـات النقابة وتجييرها لصـالح السلطة[247].

وينعكس ذلك في حالة نقابة الصحفيين العراقيين العريقة التي يهيمن عليها نقيب بعينه لنحو ١٢ عاماً، ولا يقبل أي أعضاء جدد من الصحفيين، بينما يمنح العضوية لأشخاص لم يعملوا مطلقاً في الإعلام أو يمنحها لأشـــخاص يعرف أنهم لن ينتقدوه وأنهم ســـيصـــوتون له في انتخابات النقابة، في وقتٍ يُعد العراق فيه واحداً من أكثر البلدان خطورة على الصـــحفيين وجنّة للإفلات من العقاب، فيما لا تحرّك النقابة ساكناً.

أما الطريق الثانية التي تتبعها السلطة للهيمنة على النقابات وتدميرها عبر تأسيس نقابات رديفة للنقابات الأساسية، ومن ثم محاصرة النقابات الأساسية لإضعافها أو الاستيلاء عليها. فقد دعم المجلس الإســلامي الأعلى في العراق تأســيس اتحاد بديل للأدباء والكتاب، وهو أيضــاً اتحاد عريق، إلا أنه بعد أعوام فشـل نتيجة تمسـك الأدباء بالاتحاد الأسـاسـي. ويؤشـر نقابيون اتباع الطرق نفسها مع النقابات العماليّة، ويتحدّثون عن نقابات تتلقى أموالاً من بعض الأحزاب.

النقابات العماليّة القائمة اليوم تعاني أزمات في علاقتها مع الســـلطة، إذ لا تعترف الأخيرة بها وترفض التفاوض معها غالباً. كما وتعاني من أزمة مع العمال، إذ يتحدّث النقابيون عن أن ثقافة الانضمام إلى نقابة لدى العمّال والموظفين قد تضاءلت نتيجة لسياسات منع العمل النقابي لعقود طويلة.

هذه العوامل وأخرى ايضاً، أدت إلى أزمة مالية لدى أغلب النقابات، إذ لا يدفع المنضمون إليها اشـــتراكات، وتعتمد على تبرعات قياداتها القليلة وبعض المتعاطفين معها. عليه، فنتيجة لعدم وجود قانون لتنظيم عملها وضـــعفها المادي، فإن عمل النقابات يقتصـــر على ردود أفعال على

---

[246] مقابلة مع هاشمية السعدي رئيسة اتحاد إقليم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وحسن جمعة رئيس اتحاد نقابات النفط والبتروكيماويات في العراق، وأبو وطن رئيس الاتحاد العام لنقابات العاملين في العراق.

247 مثالاً: استيلاء النائب الصدري السابق جواد الشهيلي على نقابة المحاسبين والمدققين العراقيين، بالرغم من صدور قرار قضائي ملزم من محكمة التمييز الاتحادية في 15 تموز 2018 على بطلان ترؤس الشهيلي للنقابة لجهة محكوميته على ذمة قضايا مخلة بالشرف في 29 أيلول 2017 وأبرزها غسيل الأموال، وتمكينه لمحبوس مدان بجريمة فساد مالي وهو مدير عام الشركة العامة للتجهيزات الزراعية على الهرب من السجن. انظر: القضاء يحبس "جواد الشهيلي" سنة واحدة لتهريبه مسؤول فاسد، وكالة سكاي برس، في 29 أيلول 2017. وانظر أيضاً: ابطال عملية انتخاب الشهيلي نقيبا للمحاسبين لثبوت الحكم عليه بجريمة مخلة بالشرف، وكالة الموازين نيوز، في 17 آب 2018.

قرارات السـلطة، تنحصـر بالاحتجاجات والإضـرابات والبيانات وتسـجيل المواقف لدى الاتحادات الدولية للعمل.

لكن النقابات أيضاً تعاني أزمات عديدة تتعلّق بالتنظيم، والتحرّك الميداني، والتثقيف، والإعلام. إذ إن جزءاً من النقابيين الذين أجريت معهم حواراً يكاد لا يؤمنون بالقطاع الخاص، وهم يصرّون على التحرّك، فقط في نطاق الموظفين العموميين لتنظيمهم؛ وهذا يشكل بطبيعة الحال عائقاً كبيراً أمام تواصل النقابات مع الشرائح العمالية كافة.

فمثلاً، يمتلك العراق أحّد أكثر شبكات النقل العموميّة تخلّفاً، لكن بالمقابل تنشط فيه شبكة نقل خاصّة ناجعة تتكوّن من الباصات الصغيرة والمتوسّطة والكبيرة والتي تعمل على خطوط نقل خارجية تربط بين المحافظات او داخلها، وهؤلاء ممثلين في نقابة النقل العام والتي تعمل إلى حد ما على تنظيم السـائقين في القطاع وإدارة مشـاكلهم مع الدوائر الأمنية والمرورية، لكن الشـريحة الأكبر غير الممثلة بنقابة هم سـائقو سـيارات الأجرة داخل المدن العراقية، ما يجعل هذا القطاع العريض والمتشـعب غير منظم ولا تحكمه سـوى إجراءات السـلامة المرورية وقوانين استخدام المركبات عموما.

وأخيراً، يمكن القول إن النقابات لم تحسـن أو تحدِّث من طريقتها في مخاطبة جمهورها. إذ ما تزال النقابات تستعمل لغة شِعاراتيّة متهالكة منتهلة من عقود الخمسينيات والستينيات لمخاطبة العمّال وتوثيق وإدارة أحوالهم. نتيجة لذلك فإن النقابات تعاني من أزمة في استجلاب الشباب لكسبهم في العمل التنظيمي. كما لا تمتلك النقابات قواعد بيانات، ولا يعرف الكثير من رؤساء النقابات عدّد العمّال المنتظمين في اتحاداتهم ونقاباتهم. من هنا فإن ضغوط السلطة تعطل كثيراً من عمل النقابات، لكن النقابات نفسـها لا تقوم بتطوير عملها وآلياتها لاسـتحصـال حقوقها القانونية من السلطة.

وعلى الرغم من ضـغط السلطة وضـعف التنظيم، إلا أن النقابات أثبتت، ولأوّل مرّة منذ عقود طويلة، مدى فاعليتها في الحركات الاجتماعية، وإلى أي مدى يمكنها أن تؤثر على قرارات السلطة، وهذا الأمر يجب الانتباه إليه من قبل القوى والشخصيّات الفاعلة في الحركات النقابية. على النقابات الاستفادة من تجربتها في تظاهرات تشـرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٩ لتنظّم نفسـها أكثر، وتبتكر طرقاً لضـمّ قطاعات واسـعة من المجتمع إليها، كما أن على القطاعات العمل الجديدة أن تعي أهميّة تنظيم أنفسها في اتحادات ونقابات لتشكّل ضـغطاً على السلطات لفرض مطالبها.